عبد العزيز الثعالبي

سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(132هـ/750م)

تقديم وتحقيق

حمادي الساحلي



سقوط الدولة الأموية
وقيام الدولة العباسية

(132هـ/750م)

© 1995 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي

ص . ب . 5787 113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

سقوط الدّولة الأمويّة

نشر الشيخ عبد العزيز الثعالبي فصولاً أو كتاباً غير مجموع في مجلّة «الفجر» (التونسية) تباعاً هو **«سقوط الدولة الأمويّة»**.

وهي دراسة واسعة للأدوار الأخيرة للحكم الأمويّ مع استقصاء عوامل السّقوط وأسباب الثّورة، واستخلاص القوانين العامّة لسقوط نُظُم الحكم لعدم انسجامها مع التطلّع الشعبيّ، في تعبير جزيل فصيح، ووصف بليغ مُسْهَب قد يُعْوِزُه الضّبط وتدقيق المعنى.

محمّد الفاضل ابن عاشور
«الحركة الأدبية والفكرية في تونس»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

يندرج هذا العمل في إطار الجهود التي ما فتئت تبذلها دار **الغرب الإسلامي** مشكورة لإحياء وإبراز آثار المنعم المبرور الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله، سواء منها كُتُبه المنشورة منذ عهد بعيد، وقد أصبحت الآن في عِدَاد المخطوطات، أو مؤلّفاته التي لم يسبق نشرها. وبمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته[1] حرصت هذه المؤسّسة النّاهضة على إعادة نشر أثرٍ من آثاره القيّمة التي أصدرها تباعاً في مجلّة «الفجر»[2] (التونسية) في مطلع العشرينات من هذا القرن، تحت عنوان: «**سقوط الدولة الأمويّة وقيام الدولة العباسية: أسباب ونتائج**». وقد صدرت هذه الدّراسة في إحدى عشرة حلقة، حيث نُشِرت الحلقة الأولى في العدد المؤرّخ في 23 جمادى الأولى 1339 الموافق لأوّل فبراير

(1) التحق الشيخ عبد العزيز الثعالبي بجوار ربّه يوم غرة أكتوبر 1944.

(2) أصدر الحزب الحرّ الدستوري التونسي مجلّة «الفجر» في سنة 1920 وعهد بإدارتها إلى أحد قادته وهو المرحوم الشيخ علي بن المختار كاهية (1877 ـ 1956) عضو اللجنة التنفيذية. وقد صدر العدد الأوّل من المجلة في 17 ذي القعدة 1338 الموافق لغرّة أغسطس 1920.

1921، وصاحبها لم يزل قابعاً في السجن العسكري الفرنسي بتونس في انتظار محاكمته[1]. ولذلك فقد أحجمت المجلّة عن ذكر اسمه واكتفت بالإشارة إلى أن الدراسة «من تأليف أحد الكتّاب الباحثين من التونسيّين». وصدرت الحلقة الأخيرة في العدد الأخير من مجلّة «الفجر» الصّادر في شهر ذي الحجّة سنة 1340الموافق لشهر يوليو 1922، والذي لم يُوَزّع[2].

وقد سمحت لنا دراسة هذا الأثر بإبداء بعض الملاحظات التي تؤكّد ما كنّا استنتجناه من ملاحظات عند تقديمنا لكتاب «**تاريخ شمال إفريقيا**»[3]، وهي تتلخّص فيما يلي:

1 ـ لقد اعتمد المؤلّف في نقل الأخبار والروايات على مصدر رئيسي هو تاريخ الطبري المعروف «**بتاريخ الأمم والملوك**». فهو يختار أحياناً لسرد الوقائع والأحداث التاريخيّة رواية من روايات هذا الكتاب ويقدّمها مُلَخَّصة. وينقل في أغلب الأحيان فقرات مطوّلة دون زيادة ولا نقصان. ولكنّه لا يقتصر

---

(1) أُلقي القبض على الشيخ الثعالبي في باريس إثر صدور كتابه «تونس الشهيدة»، ونُقِل إلى تونس يوم 28 يوليو 1920، حيث أودع السجن العسكري بتهمة المسّ بأمن الدولة. وقد بقي في السجن إلى أن أُطْلِقَ سراحه يوم غرّة مايو 1921، بعد ما ختم قاضي التحقيق الفرنسي البحث في قضيّته بالتصريح بعدم سماع الدعوى.

(2) لقد تمكّن الحاج الحبيب اللّمسي من العثور على هذا العدد المفقود، ولولا ذلك لبقيت دراسة الثعالبي مبتورة. انظر: «دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسيّة» (الجزء الأوّل)، ص 104، بيت الحكمة ـ قرطاج، 1989.

(3) «تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

دائماً على النقول بل يعلّق عليها أحياناً، محاولاً إعمال الفكر وتحليل الأسباب والعِلَل واستخلاص العبرة. ولولا ذلك لكانت دراسته غير ذات قيمة علميّة.

2 ـ لكنّنا نلاحظ أنّ تعاليق المؤلّف كثيراً ما تطغى عليها نزعته السياسيّة، فتبعده عن الموضوعيّة التاريخيّة والنّزاهة العلميّة. ولعلّ عذره في ذلك أنّه ينظر إلى الأحداث التاريخية بمنظار الزعيم السياسي الذي سخّر حياته لمقاومة الاستعمار والنضال من أجل الجامعة الإسلاميّة والوحدة العربيّة.

ويتجلّى ذلك بالخصوص من خلال الموقف المتحيّز الذي اتّخذه ضدّ العباسيّين، متّهماً إيّاهم دون أي تحفّظ «بالأنانية وحبّ الذات» والعمل على تفكيك الوحدة الإسلامية. فهم في نظره «طُلاّب تراث ومُلْك، لا طُلاّب إصلاح. وما القناع الذي وضعوه على وجوههم إلاّ لإخفاء مقاصدهم عن النّاس».

أمّا الأمويّون فيقول عنهم إنهم «أنشأوا على أنقاض حكومة الخلفاء الرّاشدين هيئة أكثر تشكّلاً بالطبيعة البشريّة وأوسع قابليّة للتطوّر. فانتقلت بالمسلمين من طور البداوة والسذاجة إلى طور الحضارة والانتظام».

ثم يضيف قائلاً:

«إن الأمويّين قد وُجِدوا على رأس انقلاب عظيم لم يُحسِن المخالفون فهمَه، ولو فهموه لاستفادوا منه كثيراً وسايروا التحوّل وتركوا هذه الحكومة النجيبة (كذا) تتمّ برنامجها المعلوم».

«... وهو البرنامج السياسي والعسكري القاضي باختراق أوروبا وربط المواصلات بين الأندلس والقسطنطينية، وصيرورة البحر الأبيض المتوسط **بحيرة إسلاميّة**».

ولكنّ المخالفين «لمّا واتتهم الأيّام وأسرعت إليهم الدهماء (كذا) وتقبّضوا على الخلافة، لم يعودوا بها إلى حكم الخلفاء الراشدين، بل تجاوزوا بها من الأرستقراطية العربيّة إلى الأرستقراطية الآريّة، فظهرت سرائرهم للناس».

ومع ذلك فقد اعترف الثعالبي بما ارتكبه بنو أميّة من «هفوات سياسيّة» ـ على حدّ تعبيره ـ أهمّها سوء معاملة المسلمين الأعاجم، والحال «أن الإسلام السمح رفع بهم إلى سويّة العرب وجعلهم متكاتفين في الحقوق وإن اختلفوا في الأنساب».

ورغم ذلك لم يستنكف عن تبرير تلك السياسة الجائرة، قائلاً بالخصوص:

«إلّا أن عذرهم في ذلك واضح تبرّره سياسة الفتح والاستيلاء وهو تطوير المفتوحين وفصلهم عن ماضيهم. وما فعلوا ذلك إلّا بنيّة المحافظة على الإسلام في الصّبغة القوميّة (كذا) التي قام بها في العالم».

3 ـ ولعلّ شيخنا قد تنبّه إلى ما يمكن أن يُتَّهَم به من تحيُّز وابتعاد عن الموضوعيّة التاريخية، فصرّح قائلاً:

«لسنا ندافع عن سياسة الأمويّين، لكنّنا نريد إنصافهم ونقول عنهم ما نعتقده صدقاً، ولا أجْمَل من المؤرّخ إذا كانت حليته الصّدق والإنصاف»!.

وعلى هذا الأساس لم يُخْفِ إعجابه ببعض زعماء الحركات المناهضة للأمويّين. فقد قال عن أبي مسلم الخراساني إنّه «معدود من أعلى طبقات رجال التاريخ في السياسة والحرب».

وقال بخصوص القائد العام للجيش الخراساني قحطبة بن شبيب ما يلي:

«من المسائل العويصة التي لم يقف على كنهها الحكماء: **هل الحوادث تكوّن الرجال أم الرجال يكوّنون الحوادث؟** لذلك لا نستطيع أن نبتّ في أمر قحطبة والحوادث التي جرت بين يديه. فإن كان هو مُوجِدُها فهو أعظم قائد عسكري على الإطلاق، وإن كانت هي التي أظهرته فأمرها جدير بالعجب والاستغراب».

كما أورد في كتابه فقرات مطوّلة من خُطب القائد الخارجي المعروف بأبي حمزة، وقد علّق عليها بقوله:

«رأينا من الواجب نقل بعض خطب أبي حمزة الثائر ليقف أحرار عصرنا على رأي وأفكار أحرار الصّدر الأوّل من الإسلام في الحريّة والأنظمة التي يطلبونها باسم الثورة، حتى تكون نموذجاً صالحاً من تاريخ فقه الفكر والانقلابات السياسيّة التي تفتّقت عنها عقول المسلمين». ويتّضح من هذا

التعليق حرص المؤلّف على ربط الماضي بالحاضر واستخلاص العبرة والموعظة من الأحداث التاريخيّة.

4 ـ ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السّياق أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي كثيراً ما يستعمل في كتاباته التاريخّة عبارات ومصطلحات لم تكن معهودة في العصر الذي يؤرّخ له، مثل الديمقراطيّة، والحكومة التيوقراطيّة والقوميّة الإسلاميّة وخطاب العرش الخ... مما يدلّ على أنه لم يستطع دائماً الانفصال عن حاضره والتخلّص من مؤثّرات المحيط الذي يعيش فيه.

5 ـ والأهمّ من ذلك أن المؤلّف لا يقتصر كما أسلفنا على سرد الوقائع التاريخيّة والأخبار والروايات المنقولة عن المصادر القديمة، بل إنه يحرص دوماً وأبداً على تحليل الأسباب والمسبّبات، من ذلك قوله بخصوص سقوط الدولة الأموية:

«ليس من العبر التاريخيّة أن يعرف الإنسان سطحيّاً أن الدولة العباسيّة قامت بعد الدولة الأمويّة. وإنما العبرة أن يعلم ما تخلّل بين سقوط هذه وقيام تلك من العوارض والأسباب».

وتطبيقاً لهذا الاتّجاه استعرض الأسباب التي ذكرها بعض المؤرّخين، ولكنّه لم يقتنع بها واعتبرها «غير مفهومة تحتاج إلى الإيضاح والتحليل». فحاول البحث بنفسه عن الأسباب الحقيقية لهذا الانقلاب العظيم. وبعد الدّرس والتمحيص وتحليل الأحداث التي أفضت إلى «انكسار المروانييّن»،

اهتدى إلى الأسباب الرئيسيّة التالية:

أ - **الوَهَن** الذي انتاب الدولة بسبب «انتزاع الثقة منها وزوال هيبتها من القلوب وجنوح الأمّة إلى الثورات».

ب - ثم **الانقسامات** التي فشت في الأمّة وسَرَتْ إلى الجنود «فأحدثت الفشل في الصفوف، بدون نظر إلى العواقب الوخيمة التي جرّت إلى قلب الدولة **وانحلال العصبيّة**». وهنا يظهر جليّاً تأثّر الثعالبي بنظريّة ابن خلدون المتعلّقة بالعصبيّة.

ج - أمّا السّبب الثالث فهو في نظره «ثمرة جهاد عقلي عامّ نضج في دماغ الإسلام لمصارعة العدوّ القَرْني للأمم: ألا وهو **الاستبداد**».

تلك هي باختصار أهمّ الملاحظات والاستنتاجات التي أوحى بها إلينا تحقيق هذه الدّراسة ومراجعتها.

* * *

وقد تمثّل منهجنا في هذا التحقيق فيما يلي:

1 - تصحيح الأغلاط المطبعيّة الكثيرة التي تسرّبت إلى النصّ المنشور في مجلّة «الفجر» وإصلاح أخطاء النّقل، وإعادة قراءة بعض المفردات أو الفقرات بالرجوع إلى الطبعات الحديثة من تاريخ الطبري الذي اعتمد عليه المؤلف، والمقابلة بينها وبين كتب التاريخ الأخرى، لا سيما منها الكامل لابن الأثير.

2 ـ إضافة بعض العبارات والجُمعل التي سقطت من النصّ المنشور في تلك المجلّة وقد وضعناها بين حاصرتَيْن [ ] للفت انتباه القارىء.

3 ـ إضافة بعض الهوامش والتعاليق لمزيد الشرح والتوضيح، والإحالة على المصادر لتمكين القارىء من الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

4 ـ المقابلة بين التاريخ الهجري الذي اعتمده المؤلف والتاريخ الميلادي.

* * *

وفي الختام لا يسعنا إلى التّنويه بجهود صديقنا المحترم الحاج الحبيب اللّمسي صاحب «دار الغرب الإسلامي» الذي أتاح الفرصة لصدور هذه الدراسة في كتاب مستقلّ بذاته، تخليداً لذكرى صاحبه ووفاءً لروحه الطّاهرة.

والله نسأل أن يوفّقنا جميعاً لإحياء آثار علمائنا الأجلاّء، وأن يهدَينا سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تونس في 25 ربيع الثاني 1415

الموافق لغرّة أكتوبر 1994

حمّادي السّاحلي

حياة المؤلّف في سطور[1]

- هو الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي.
- وُلِد بمدينة تونس يوم 5 سبتمبر 1876.
- بعد ما أتمّ تعلّمه بجامع الزيتونة المعمور أصدر في شهر ديسمبر 1895جريدة «سبيل الرشاد» التي عطّلتها السلطة الفرنسية بعد سنة واحدة من صدورها.
- من سنة 1897إلى سنة 1902 سافر الثعالبي إلى الشرق وزار بالخصوص طرابلس ومصر والأستانة.
- بعد رجوعه إلى تونس في سنة 1902 أحالته الحكومة على المحكمة من أجل أفكاره الإصلاحية التحرّرية، فصدر عليه حكم بالسجن لمدّة شهرين (يوليو 1904).
- وفي سنة 1905 أصدر بباريس كتاباً باللغة الفرنسية للرّد على خصومه يحمل عنوان «**روح التحرّر في القرآن**».

وفي سنة 1907 انضمّ إلى حركة الشباب التونسي التي يتزعّمها علي باش حانبة وتولّى في سنة 1909 رئاسة النشرة

---

(1) انظر ترجمته في «دائرة المعارف التونسيّة» كراس 1990/1، ص 21، وما بعدها بيت الحكمة ـ قرطاج.

العربية من جريدة «التونسي» لسان حال الحركة الوطنية التونسية.

- إثر حوادث الزلّاج (1911) وحركة مقاطعة الترامواي (1912) قرّرت السلطة الاستعماريّة إبعاده من تونس مع عدد من زعماء حركة الشباب التونسي. فقام برحلة طويلة عبر العالم ولم يرجع إلى تونس إلاّ في سنة 1914، بعد رفع قرار الإبعاد.

- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تحوّل إلى باريس سنة 1919 للدفاع عن القضية التونسية وأصدر كتاباً بالفرنسية في سنة 1920 بعنوان «**تونس الشهيدة**». فألقت عليه السلطة الفرنسية القبض ونقلته إلى السجن العسكري بتونس بتهمة المسّ بأمن الدولة. وأطلق سراحه في أوّل مايو 1921.

- في سنة 1920 أسّس مع نخبة من الوطنيين التونسيين «**الحزب الحرّ الدستوري التونسي**».

- ومن سنة 1923 إلى سنة 1937 هاجر من جديد إلى المشرق، متنقّلاً بين مصر والعراق والهند وفلسطين.

- رجع إلى تونس في شهر يوليو 1937 وحاول بدون جدوى توحيد الحركة الوطنيّة التونسيّة تحت إشرافه. ولما باءت محاولته بالفشل اعتزل الحياة السياسيّة إلى أن أدركته المنيّة يوم غرّة أكتوبر 1944.

آثار الشيخ عبد العزيز الثعالبي

أ ـ الآثار المنشورة في حياته:

1 ـ روح التحرّر في القرآن (باللغة الفرنسية) ـ باريس 1905.

2 ـ تونس الشهيدة (باللغة الفرنسية) ـ باريس 1920.

3 ـ سقوط الدولة الأموية، ظهر الكتاب في شكل حلقات منشورة تباعاً في مجلّة «الفجر» (1921 ـ 1922).

4 ـ معجز محمّد رسول الله ﷺ ـ الجزء الأوّل ـ تونس 1938.

5 ـ مقالات في التاريخ القديم ـ 1939 (نُشِرت تباعاً في جريدة الإرادة).

ب ـ الآثار المنشورة بعد وفاته
(والصادرة عن دار الغرب الإسلامي ببيروت):

1 ـ مسألة المنبوذين في الهند، 1984.

2 ـ معجز محمّد رسول الله ـ الجزء الأوّل (الطبعة الثانية)، 1984.

3 ـ تونس الشهيدة (النصّ الفرنسي ـ طبعة ثانية)، 1984.

4 ـ تونس الشهيدة (الترجمة العربية)، 1984.

5 ـ روح التحرّر في القرآن (النصّ الفرنسي والترجمة العربية)، 1985.

6 ـ محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، 1985.

7 ـ مقالات في التاريخ القديم، 1986.

8 ـ تاريخ شمال إفريقيا، 1987.

9 ـ خلفيّات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988.

10 ـ معجز محمّد رسول الله (الجزء الثاني)، 1989.

11 ـ سقوط الدولة الأمويّة، 1994.

ج ـ الآثار المخطوطة:

1 ـ تاريخ الهند.

2 ـ الرحلة اليمنيّة.

3 ـ مجموعة مقالات وفصول.

4 ـ مذكرات الثعالبي (مخطوط مفقود).

السيـرة الذاتيّـة
للشيخ عبد العزيز الثعالبـي

(وثيقة منقولة عن اللغة الفرنسيّة)[1]
عدد 169 ـ 13 ـ B

لقد وجّه إليّ صديقي محمّد سفرجي (؟) رسالة يلتمس فيها منّي كتابة سيرتي الذاتية. فتحرّجت من ذلك كثيراً لأني خشيت لو كتبت سيرتي الذاتية أن أمدح نفسي. وأرجو أن لا أفعل ذلك. وقد كنت أودّ لو تكفّل بهذه المهمّة أحد كبار كتّابنا. فهناك منهم

(1) توجد هذه الوثيقة المنقولة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية في محفوظات المركز القومي للتوثيق بتونس. وهي تتضمّن سيرة الشيخ عبد العزيز الثعالبـي الذاتية من تاريخ ولادته أي 1876 إلى حدود سنة 1920. ويبدو أن الدكتور أحمد بن ميلاد يحتفظ بالوثيقة الأصلية التي حرّرها الثعالبـي باللغة العربيّة. فقد نقل بعض فقرات منها في الجزء الأوّل من الكتاب الذي وضعه بالاشتراك مع الأستاذ محمد مسعود إدريس وأصدرته بيت الحكمة بقرطاج في سنة 1991 بعنوان الشيخ عبد العزيز الثعالبـي والحركة الوطنية. ووعد بنشر تلك الوثيقة مع وثائق الشيخ الثعالبـي الأخرى في الجزء الثاني من الكتاب المذكور. وفي انتظار ذلك رأينا من المفيد تعريبها ونشرها في هذا الكتاب الذي تفضّلت دار الغربـي الإسلامي مشكورة بإصداره بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاة صاحبه.

مَنْ هم قادرون على ذلك.

تنقسم حياتي إلى قسمَيْن اثنين: حياة عامّة تهمّ نضالي السياسي المتأصّل في نفسي، كما تهمّ النهضة الإسلامية بوجه عامّ. وأظنّ أنّ هذا الجزء من حياتي مليء بالأعمال الجليلة ومتّصل بالحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي بأسره. بحيث لا توجد جمعية كبرى، سواء في جاوة أو سومطرة أو مصر أو سوريا أو العراق أو تركيا لم أنخرط فيها ولم أترك فيها آثاراً وأعمالاً. ولكنّي أرى من الضروري أن لا يُعلَن ذلك ولا يُنشَر إلاّ بعد وفاتي. ومن المؤسف أنّي لم أجمع كلّ هذه الأعمال المبعثَرة في أوراقي التي تتضمّن تاريخ انخراطي في كلّ جمعية من تلك الجمعيات، وآرائي المعروضة حول المسائل المتعلقة بالإصلاح الإسلامي، وما أبدته نحوي تلك الجمعيات من تقدير وحسن قبول، ومشاطرتها لآرائي.

فقد قضيت عشرين سنة في دراسة القضايا الإسلامية ومناقشتها مع الاختصاصيّين في مشارق الأرض ومغاربها حتى صرت من أحسن المطّلعين عليها. وأستطيع أن أقول إنّ كلّ ما يمكن أن يلاحظه المرء في أوساط العالم الإسلامي [من آثار] هو من ثمرة نضالي، لأني كنت أعمل في الخفاء وأتحاشى الشهرة والتباهي بالألقاب حيث إنّ غرضي كان يتمثّل في بعث حركة ثوريّة بأتم معنى الكلمة للنهوض بالعالم الإسلامي وإنقاذه من الانهيار، ولم تكن غايتي أن يتعرّف النّاس على شخصي. وإن أمكنني التخلّص من هذا الإحراج، فإني سأجمع بعض الأشخاص الذين لا أشكّ في صدقهم وإخلاصهم وسأكشف لهم عن أسرار هذه

القضيّة، أي سألقّنهم درساً في الحياة السياسية الإسلامية يستفيد منه جميع المسلمين، وسأبوح لهم بكلّ ما كنت أتحاشى إذاعته بسبب قلّة إدراك الناس واستخفافهم بالأعمال الجليلة وخوفهم من إفشاء المشاريع للأشخاص الذين لا يستطيعون كتمان الأسرار.

أما القسم الثاني من حياتي، فيتمثل في نشاطي السياسي بالبلاد التونسية. وهو القسم الذي سأتحدّث عنه الآن لأنه جزء لا يتجزّأ من حياتي السياسيّة الإسلامية ولا يتعارض معها. وهو يتضمّن وقائع ينبغي أن أذكرها، ووقائع أخرى يجب عليّ كتمانها، لأن حياة الأشخاص الذين وُلِدوا في أوساط مثل وسطنا يجب أن تبقى سرّاً مكتوماً في صدور الرجال المخلصين. وأظنّ أن ما يعلمه المعاصرون عن ذلك لا يوفّر أيّ معلومات للقرّاء سوى معرفة الرجل.

أصلي

إني أنحدر من عائلة معروفة جدّاً في الجزائر، وإنّ شهرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي [الجدّ الأعلى للعائلة] ليست في حاجة إلى الذكر. فهو ينتمي إلى ذريّة أحد القوّاد الهاشميّين، ويحتلّ في عاصمة الجزائر مكانة مرموقة، وهو مشهور في إفريقيا الشمالية قاطبة.

وقد وُلِد جدّي موسى أرومة (؟) في مدينة الجزائر حيث كان أبواه مشهورَيْن ومبجّلَيْن. ثم سافر لمزاولة تعلّمه وتتلمذ إلى

عدد من الشّيوخ الذائعي الصيت في كلّ من بجاية[1] وتونس والقاهرة والشام والعراق. ثم استقرّ في بجاية[2] حيث تزوّج امرأة تنحدر من عائلة ماجدة في مطلع القرن التاسع [15م][3]. وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه عاصمة الجزائر حيث كانت تقيم أخته. وقد توفّي ودُفِن بها، وقبره موجود إلى الآن. وترك في بجاية[4] أولاده الذين انقطعوا مثله للعلم والعبادة، وهم جميعاً من رجال الدين، حيث أن العلم جبلّة في ذرّيته. وقد اشتهر من بينهم عدد من رجال القضاء في القرنين العاشر [16م] والحادي عشر [17م]، سواء في مدينة تونس، أو بالخصوص في بجاية[5]، نخصّ بالذكر منهم سيدي أحمد الثعالبي وسيدي[6]... الثعالبي وسيدي عبد القادر الثعالبي وسيدي إبراهيم الثعالبي [والد صاحب الترجمة] وكثيراً من العلماء.

وكان سيدي عبد الرحمان [جدّ صاحب الترجمة] آخر من تولّى القضاء من بين هؤلاء العلماء الأعلام في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وهو السابع في سلسلة رجال القضاء التابعين لهذه الأسرة. وقد كانوا جميعاً يحظون بشعبيّة كبيرة لدى القبائل البربريّة التي كانوا يشرفون على حظوظها في الجزائر، ولا سيما

(1) في النصّ الفرنسي باجة، ويفهم من السياق أن الأمر يتعلّق ببجاية.
(2) نفس الملاحظة.
(3) في النصّ الفرنسي «التاسع عشر» وهو خطأ.
(4) نفس الملاحظة عدد 1.
(5) نفس الملاحظة.
(6) اسم غير واضح.

منها قبائل بجاية[1]. وكانوا يتمتّعون ببعض الامتيازات حين كان الأتراك يحكمون البلاد.

وقد هاجر جدّي سيدي عبد الرحمان إلى تونس بعد الاستعمار [أي احتلال الجزائر]، وذلك في حدود سنة 1200هـ [1785][2]، وقد كان يوجد بها وقتئذٍ أحد أفراد عائلته. وترك في وطنه جميع إخوته وتخلّى عن امتيازاته، مفضّلاً العزلة والابتعاد عن الحياة العامّة والانقطاع للعلم الشريف. وكان قد اشتهر بعلمه أثناء مواصلته لدراسته بجامع الزيتونة، حيث بلغ من العلم ما جعل الملوك والأمراء يحترمونه، فضلاً عمّا حظي به لدى الوزير مصطفى خزنه دار[3] من محبة وتقدير، الأمر الذي أنساه بلاده والرغبة في العودة إليها.

السيد عبد العزيز الثعالبي

وُلِد مساء الخامس عشر من شهر شعبان سنة 1293 [5 سبتمبر 1876]. وشبّ الطفل وتربّى في كنف والده [إبراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي]. ولما بلغ السابعة من عمره شرع في تعلّم القرآن الكريم، كما كان يفعل أجداده من قبل، إلى أن حفظه بأكمله. وكان جدّه يسهر بنفسه على تربية ملكاته الذهنيّة

---

(1) نفس الملاحظة ص 22، هامش 1.

(2) هكذا في النصّ الفرنسي، وهو خطأ واضح، لأن القوّات الفرنسية قد احتلّت الجزائر في سنة 1830، ولعلّ المقصود 1250هـ أي 1834م، وهو تاريخ أقرب إلى الصّواب.

(3) تولّى مصطفى خزنه دار الوزارة الكبرى بتونس من 1837 إلى 1873.

والشعوريّة، وقد علّمه الكرم والحلم والشرف. ولما بلغ من العمر أربع عشرة سنة أدخله والده إلى الجامع الأعظم [جامع الزيتونة] لمواصلة دراسته. فتعلّم النحو والصرف والبلاغة والمنطق وعلم الكلام والفقه والأخلاق والحساب والفرائض والفلك والحديث وعلم التصوّف. وقد توفّي أغلب مشاهير شيوخه، من بينهم فيلسوف الإسلام والعالم المغمور الشيخ مصطفى بن خليل وعالم الرياضيات الشيخ السماتي والشيخ الصادق الشاهد والشيخ محمد بن الخوجة والشيخ إسماعيل الصفايحي والشيخ محمد النجار وأخيراً العلاّمة الشيخ حسين بن حسين. أما الشيخ الصادق صفر والشيخ سالم بوحاجب والشيخ سيدي الطاهر الرياحي والشيخ سيدي إبراهيم المرغني فهم ما زالوا على قيد الحياة، أمدّ الله في أنفاسهم.

وكان [صاحب الترجمة] مهتمّاً منذ نعومة أظفاره بالتفكير في أمراض العالم الإسلامي المشتّت الشمل، والبحث عن وسائل علاجها، الأمر الذي كان يثير شعور والدَيْه، ذلك أنّ الوسط يؤثّر لا محالة في حياة عظماء الرّجال.

وأثناء دراسته للتاريخ وعلم التصوّف استعان بالوسط الذي كان يعيش فيه. ذلك أن من يسهر على شؤون المسلمين يتعيّن عليه أن يتعرّف على أمراضهم وأفكارهم ومبادئهم وحقوقهم وأسرار حياتهم الفكرية والاجتماعية. وقد حذق العلم على أيدي الشيوخ المشار إليهم أعلاه، ولكنه تجنّب التّقليد وحرص على البحث والتمحيص. وهكذا علّمته الحياة الكثير من أسرارها، وتدرّب على الحقائق الخفيّة التي بهرته منذ صباه.

بداية حياتي السياسية

إثر الانتهاء من دراسته خلال سنتَيْ 1311 و 1312 [1893 ـ 1894] شرع في تحرير بعض الفصول المطوّلة والحماسيّة وتوجيهها إلى بعض الصّحف المصريّة مثل النيل والمقياس والفيّوم والمؤيّد بإمضاءات مختلفة لإخفاء اسمه قصد اجتناب الشهرة، الشيء الذي كان يمقته ويكره كلّ من يسعى إليه. وكانت جماعة الشبيبة التونسية تضمّ عهدئذٍ فئةً من المثقّفين الموالين لحكومة الحماية. أمّا حركة الشباب التونسي فكانت تعمل من أجل الاستقلال. فقد كان الشبّان [التابعون لهذه الحركة] يريدون تعويد الفكر على مبادىء الحرية والصدق في القول. لذلك قرّروا إصدار جريدة ذات اتّجاه وطني وإسلامي يستطيعون بواسطتها معارضة جماعة الموظّفين[1].

واتّفقوا على إصدار جريدة باسم «**سبيل الرشاد**»[2] وعهدوا بإدارتها إلى صاحب الترجمة. وقد تقبّلت الأمّة هذه المبادرة قبولاً حسناً، لأنّ الناس كانوا يرغبون في ظهور جرائد ونشريّات أخرى [إلى جانب جريدة «**الحاضرة**»].

---

(1) يشير صاحب الترجمة إلى أفراد أسرة جريدة «الحاضرة» التي صدرت في تونس بلا انقطاع من سنة 1888 إلى سنة 1911، وقد كانوا في معظمهم من موظفي الإدارة التونسيّة. ولذلك فقد اقتصر نشاطهم على الدّعوة إلى الإصلاح والنّهوض بالمجتمع التونسي بواسطة نشر التعليم، مجتنبين الخوض في المسائل السياسيّة، خشية إثارة غضب الحكومة.

(2) صدر العدد الأوّل من «سبيل الرشاد» في 16 ديسمبر 1895.

لكنّ الجريدة الجديدة لم تَرُق للحكومة التي اتّهمت محرّريها بالتطرّف وأوقفتها مدة شهرين. فقرّر الثعالبي الهجرة من البلاد نهائيّاً والتحوّل إلى المشرق.

فارتحل أوّلاً إلى الجزائر [موطن آبائه وأجداده] في حدود سنة 1895[1] وزار أهمّ مدنها ودرس طرق عيش الجزائريين ثم عاد إلى تونس وحاول السّفر إلى مصر، ولكن الحكومة لم تسمح له بذلك، فغادر البلاد متنكّراً [في شهر أغسطس 1896]، واجتاز جنوب المملكة إلى أن وصل إلى جزيرة جربة، ومن هناك توجّه إلى طرابلس عن طريق البحر. فأقام بها شهرين ونشر فصولاً هامّة حول مواضيع مختلفة في الجريدة اليوميّة «**الترقّي الطرابلسي**».

ثم تدخّلت السياسة، فأقنعه والي المنطقة سليمان نامق باشا بالرحيل فوراً إلى بنغازي. فانتقل إليها وقوبل فيها قبولاً حسناً أنساه الأيام التي قضاها في طرابلس. وقد أقام في بنغازي شهرَيْن ثم ارتحل إلى جزيرة قريطش حين هبّت عليها العاصفة الهوجاء التي فصلتها عن الباب العالي، ومكث فيها شهرين أيضاً متنقّلاً بين مدنها. وقد تمكّن من التعرّف إلى المنكوبين من أهل الجزيرة. ثم تحوّل إلى بلاد اليونان وأقام في عاصمتها [أثينا] خمسة عشر يوماً ثم غادرها متوجّهاً إلى الأستانة التي أقام بها سنة كاملة نال أثناءها ما كان يرغب فيه، أي الاطّلاع على الشؤون العامّة والالتقاء

(1) لقد زار الثعالبي الجزائر قبيل صدور جريدة «سبيل الرشاد» وذلك في شهر أكتوبر 1895. ودامت رحلته شهرَيْن وزار على التوالي سوق هراس وعنّابة وسكيكدة وقسنطينة وسطيف وعاصمة الجزائر، انظر: الثعالبي والحركة الوطنية، المرجع المذكور، ص 13.

بعظماء المسلمين، فقد كانت الأستانة عهدئذٍ المركز الرئيسي للسياسة، فتعرّف فيها إلى الأتراك والعرب والبربر والأفغان والهنود والمصريّين، وألمّ بقضايا الشرق السياسية. وكان من حسن حظّه أن اتّصل بالشيخ أبـي الهدى أفندي [الصيّادي][1]، وهو رجل كان يحظى بتأثير كبير في البلاط العثماني. وقد تسنّى للشيخ أبـي الهدى تقدير خصال الثعالبـي فعرض عليه منصباً سامياً في وزارة المعارف. ولكن الثعالبـي رفض هذا العرض معلناً أنه لـم يستكمل بعدُ تكوينه وأنه متعطّش إلى التعلّم من خلال من يلاقيه من الرجال وما يزوره من البلدان. وقد علّل ذلك بأنه لو قبل الوظيفة العمومية لانقطع عن توسيع دائرة معارفه. وعبّر حينئذٍ عن عزمه على مواصلة طريقه في نفس الاتّجاه، لأن قبول أي منصب إداري من شأنه أن يعرقل مسيرته[2]. ولم يُخف الشيخ أبو الهدى دهشته من الاستماع إلى مثل هذه الأقوال، إذ رأى للمرّة الأولى شخصاً يرفض الوظيفة المعروضة عليه. فأعرب عن تقديره لهذا الموقف واقترح على الثعالبـي أن يعتبره في

---

(1) هو أبو الهدى الصيّادي (1849 ـ 1909) الذي كان مقرّباً إلى السلطان عبد الحميد الثاني ومناهضاً للحركة الإصلاحية الي يتزعّمها الشيخ جمال الدين الأفغاني.

(2) جاءت هذه الفقرة في كتاب «الشيخ عبد العزيز الثعالبـي والحركة الوطنية» (ص 28) على النحو التالي:

«إنني أعتبرني لم أزل نشء التعليم، ومدرستي الممالك وأساتذتي من ألاقيه من الرجال. وإذا ملت إلى الوظيفة أنقطع عن التحصيل. والذي يليق بـي أدائب عن طريقتي ولا أتقيّد بوظيف أو نحوه، وفي القيد مصرعٌ لهِمَمِ الرجال».

مقام والده ووعده بالمساندة في كلّ آن وحين.

وأقام صاحب الترجمة في الأستانة متمتّعاً بمودّة واحترام كافّة أصدقائه ومَنْ تعرّف إليهم أثناء إقامته. ثم تحوّل إلى مصر [في نوفمبر 1897]، فأقام بها ثلاثة أشهر وحظي فيها باحترام كبار المفكّرين والعلماء ورجال الأدب. وعرضت عليه هيئة تحرير مجلّة «**الموسوعات**»[1] نشر فصل في المجلّة يتضمّن أفكاره المتألّقة حول مستقبل العالم الإسلامي. فحرّر فصلاً بإمضاء «الفاتح المغربي» أقام المشرق وأقعده. وقد تطرّق فيه إلى الداء الذي ينخر جسم العالم الإسلامي ودوائه، مقترحاً عقد مؤتمر إسلامي عام[2] للبحث عن معالجة أحوال المسلمين المعنويّة والماديّة والسياسيّة. وأخذ عدد كبير من الكتّاب في مختلف الأقطار في الثناء عليه، في حين انتقده البعض الآخر. وقد شغلت هذه القضيّة بال المفكّرين إلى أن دعا الكاتب الروسي المسلم الشهير إسماعيل بك شفرنسكي إلى تطبيق هذه الفكرة[3]. ويحقّ

---

(1) كان يشرف على مجلّة «الموسوعات» زعيم الحزب الوطني المقبل محمّد فريد.

(2) سيُعقد هذا المؤتمر في ديسمبر 1931 بالقدس بمبادرة من مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني وصديقه الشيخ عبد العزيز الثعالبي. انظر حول هذا الموضوع: عبد العزيز الثعالبي، خلفيّات المؤتمر الإسلامي بالقدس، دار الغرب الإسلامي، 1988.

(3) جاءت هذه الفقرة في كتاب الثعالبي والحركة الوطنية ص 33 كما يلي:
«وبقيت هذه المسألة شغلاً شاغلاً حتى انبرى إليها إسماعيل بك غضرتسكي (هكذا) الكاتب المسلم الروسي الشهير، قام بالدعوة لإخراج الفكرة من القوّة إلى الفعل».

للتونسيّين أن يقولوا إن هذه الفكرة قد صدرت عنهم.

ومن سنة 1898 إلى سنة 1902 زار الثعالبي على التوالي الأستانة ومصر، فكان يقضي الصيف في شواطىء البوسفور ويقضي الشتاء على ضفاف النيل ويقضي الربيع في الترحال عبر بلدان العالم. فقد تحوّل إلى الأناضول ومقدونيا والعراق وسوريا والنمسا وإيطاليا، وزار جميع أنحاء البلاد المصرية وكذلك الخرطوم. وأثناء إقامته في مصر كان يقضي كامل أوقاته في متابعة دروس جامع الأزهر، لا سيما منها دروس الفلسفة والتفسير والحديث الشريف واللّغة. وقد تمكّن من دراسة مختلف الأنظمة السياسيّة وما كان يبدو له غامضاً منها، واتّصل بالكُتّاب والباحثين، وربط علاقات بجميع الأقطار حيث عُرِف بكونه خطيباً مِصْقَعاً وكاتباً بارزاً وعالماً جليلاً. واشتهر بالخطب التي ألقاها في الفيوم، وزار أيضاً بني سويف وأبي شيخ وسوهاج وغيرها من المدن المصرية، وترك انطباعاً طيّباً عندما انتُدِب للقيام ببعض الأعمال. وأنشأ السيد عبد العزيز في مصر هيئة لتأليف كتاب حول التاريخ الإسلامي العامّ، تضمّ السيد أحمد باشا زكي سكرتير الهيئة وأحمد بك تيمور وعيسى بك بهجت مدير الدار الإسلامية ورفيق بك الأكبر وحقّي بك ومحمد فريد وحافظ بك سلطان والمرحوم عصمان بك طالب رأفت وإسماعيل باشا سرسك مدير المدارس العسكرية والمرحوم عمر بك لطفي مدرس الحقوق والمؤرخ إسماعيل بك. وإذا دعت الحاجة إلى إجراء بحث تاريخي في أي قطر من العالم الإسلامي، يمكن الاعتماد على بعض المراجع لمعرفة واقع المسلمين وماضيهم المجيد. ولكن لسوء الحظّ، لما

رجع الثعالبي إلى تونس وغادر مصر [في سنة 1902] لم يواصل أحد أصدقائه تلك المهمّة.

رجع الثعالبي حينئذٍ إلى وطنه ومسقط رأسه بعد غيبة دامت سبع سنوات، إلا أنه عاد بفكر ثاقب وزاد غزير من المعارف. فأقام بتونس بضعة أشهر ثم ارتحل إلى القطر الجزائري فزار جميع مدنه، ووصل إلى المغرب الأقصى، فزار أهمّ مدنه وتحوّل إلى إسبانيا ثم قفل راجعاً إلى الجزائر من جديد. وفي طريق عودته إلى تونس مرّ من بجاية[1] وزار أغلب مناطق أوراس. ولما عاد إلى تونس اعترض سبيله جمع من الخصوم، رغم ما كان يكنّ لهم من مودّة، وتعرّض من قِبَلهم لأشدّ المضايقات فتقبّلها بصدر رحب. وحاول بعض الأشخاص أن ينالوا من سمعته، ولكن موقفهم ما لبث أن عزّز مكانته وزاد في شهرته. فقد عرفه من كانوا يجهلون اسمه، وذلك بالرغم من الآراء المتباينة المقدّمة في شأنه. إذ أن المصائب هي التي تصنع الرجال. وظنّ بعض المتعنّتين أنه ارتدّ عن دينه فأخذوا في مضايقته[2]. وعند ذلك ألّف كتاباً عنوانه «روح القرآن»[3]، تولّى فيه الدفاع عن الحقيقة وأوضح فيه للمتحاملين على الدين [الإسلامي] أنّ آراءهم باطلة وأن ديننا الحنيف يتضمّن عناصر كفيلة بضمان سعادة البشر. أمّا انحطاط المسلمين فإن سببه

(1) في النصّ الفرنسي باجة، وهو خلط بين بجاية في الجزائر وباجة في تونس.

(2) يشير الثعالبي هنا إلى القضيّة التي رُفعت ضدّه لدى المحكمة الابتدائية بتونس سنة 1904 بتهمة التطاول على الدّين. وقد أصدرت المحكمة حكماً يقضي بسجنه مدّة شهرين.

(3) العنوان الكامل هو «روح التحرر في القرآن» (L'esprit libéral du Coran).

لا يعود إلى تأثير الدين فيهم، إنما يرجع إلى انتشار البدع المُحدَثَة.

وقد تمّ طبع هذا الكتاب [بفرنسا] بعدما نقله من العربية إلى الفرنسيّة السيد الهادي السبعي والأستاذ [سيزار] بن عطّار. فباغت الكتاب المعارضين الذين ندموا على صنيعهم وظهرت حسن نيّة [المؤلّف] ونزاهة آرائه لمعارضيه وخصومه. وأدرك العقلاء أنه هو المسلم الحقيقي، في حين نقض آراءه بعض الأشخاص وتبرّأ منه البعض الآخر. ولكنّه واصل طريقه دون أن يعير إلى هؤلاء أيّ اهتمام، متحلّياً بالحكمة والوقار والصبر، أي تلك الخصال غير المعهودة لدى عظماء الرجال.

ذلك أن غيره من الناس ربّما كانوا يفضّلون الاستفادة من المعارضين لنظريّاتهم. ولو أراد [صاحب الترجمة] ذلك لكانت الظروف قد ساعدته. ولكنّ نزاهته أعظم من أيّ سعي إلى الربح. ذلك أنه كان يرى نفسه مُكلّفاً بمهمّة في هذه الدنيا أسمى من هذيان الأدعياء وانتقام الحسّاد. ولو تمّ ذلك لكان برهاناً ساطعاً ضدّ الأفّاكين. وتلك هي أقسى عقوبة يستعملها العقلاء ضدّ أعدائهم المتكبّرين.

وقد أدرك صاحب الترجمة أن الحركة الرجعيّة التي اعترضت سبيله لم تكن من تدبير التونسيّين، بل من صنع حكومة الحماية. فنذر نفسه لمقاومة هذه الحركة دون أن يخشى أحداً أو يكلّف أيّا كان بالقيام بتلك المهمّة. وهذا لعمري من اختصاص الرجال البارزين.

فاتّفق مع صديقه الحميم المأسوف عليه المقدّم ديستري على إصدار جريدة يوميّة ناطقة باللغة الفرنسية للتنديد باختلال إدارة الحكومة التونسية وفسادها. ورأى أن مثل هذا المشروع سيُكتَب له النجاح لو ضمن لنفسه مشاركة بعض الفرنسيّين. وحسب رأيه فإن هذا الحلّ أفضل من الاعتماد على التونسيّين دون سواهم(1).

وما إن صدرت جريدة «البريد» حتى شنّت حملة شعواء على حكومة الحماية، وقد كان محرّرو افتتاحياتها من المحبّين للسّلام. فشعرت الحكومة شعوراً حادّاً بآثار تلك الحملة وجنحت إلى بعض التنازلات. من ذلك أنها أشركت العنصر التونسي في أعمال المجلس الشوري، وفتحت بعض أبواب المدارس في وجه الأطفال المسلمين. وأصبح الصحافيّون التونسيون يتمتّعون بنصيب أوفر من الحريّة، وخفّفت الإدارة من وطأة سياسة القمع التي كانت تنتهجها. ثم ظهرت بعض الجمعيّات والمنظمات، واستطاع التونسيّون أن يُظهِروا ما يتّسمون به من روح المبادرة، وباختصار فقد طرأ تغيير تامّ [على الوضع في البلاد]، وانقضى عهد الركود والتقليد الأعمى، وحلّ محلّه عهد العمل والإبداع، وانطلقت الحكومة في طريق التغيير والإصلاحات. ولكن ما لبث أن ظهر ردّ الفعل بسبب عدم وعي بعض العناصر من مواطنينا اليهود الذين أصغوا إلى السياسيين المناهضين للتونسيين. فعمدوا

---

(1) ظهر العدد الأوّل من هذه الجريدة اليوميّة التي أصدرها Destrées يوم 26 فبراير 1905، Le courrier Tunisien.

إلى الانفصال عن أسرة تحرير جريدة «البريد» والتخلّي علناً عن الجنسيّة التونسيّة. فاضطرّ شركاؤهم التونسيّون [المسلمون] إلى تصحيح الوضع ومَحْو ما تركه سلوكهم من آثار سلبيّة.

فاتّفقوا فيما بينهم على تكوين مجموعة تضم ثلّة من الشبّان التونسيّين وأصدروا جريدة ناطقة باللغة الفرنسية[1]. فكانت بداية الحركة الوطنيّة. وبعد ذلك بسنتَيْن اقتنع المسؤولون عن تلك الجريدة بأنه لا سبيل إلى الاستغناء عن مساعدة الثعالبي لصيانة الحركة الوطنية. فتمّ الاتفاق معه على إصدار صحيفة ناطقة باللغة العربية، وعُهِد إليه برئاسة تحريرها بالإضافة إلى اختيار اللهجة المناسبة التي ينبغي اعتمادها لتوحيد الأمّة وإفهامها ما تهدف إليه تلك النخبة من الشباب من غايات. وقد ظهر العدد الأوّل من الجريدة العربية «التونسي» في أكتوبر 1909. ومن أوّل وهلة توخّت الجريدة لهجة الصراحة والجدال، فحلّ التضامن بين الصحافيّين محلّ الشقاق، واكتسبت الصحافة حقّ الوجود، وأدرك الناس ما ينبغي أن تتبوّأه من مكانة مرموقة. وقد كانت الآراء التي تعبّر عنها الجريدة مسموعة ومُتّبعة في جميع الأوساط. فتوجّست منها الحكومة خيفة.

وينبغي البحث هناك عن مصدر أحداث مقبرة الزلاج. فقد تمّ تضخيمها وربطها بالإضراب العام الذي شنّه عملة الترامواي بمدينة تونس[2]، وبالاستياء الناشىء عن إقرار ضريبة العشور

(1) وهي جريدة «التونسي» (Le Tunisien) التي صدر عددها الأوّل يوم 7 فبراير 1907 بإدارة الزعيم علي باش حانبة.

(2) اندلعت حوادث الزلاج الدامية يوم 7 نوفمبر 1911 بمدينة تونس. أما

الإضافية التي أثارت استنكار الجميع. وقد هدّدت بعض العناصر الشعبيّة بالهجرة من البلاد إن لم تتراجع الحكومة عن فرض هذه الضريبة. فتمّ تعطيل الصحف الوطنية الناطقة باللغة العربية[1] وإبعاد زعماء الحركة الوطنية. ونزلت البلاد إلى الحضيض. وما زال الكثير من مواطنينا يتذكّرون تلك الفترة العصيبة. وقد كان الثعالبي من بين الزعماء المبعدين. فتحوّل مع صديقه علي باش حانبة إلى فرنسا حيث التقيا بعدد كبير من الفرنسيّين الغيورين على سمعة بلادهم في الخارج. فنصحوهما بالعدول عن الدفاع عن القضية التونسية بجدّ [في ذلك التاريخ]، لأن الظروف لم تكن مواتية. وأكّدوا لهما أنه لا يمكنهما الأمل في وجود آذان صاغية في الأوساط الفرنسية والبلاد تتأهّب للحرب، وليست هناك أيّة إمكانية لتغيير السياسة الاستعماريّة الفرنسيّة. وأقنعوهما بأنه من الحكمة تأجيل إعادة تنشيط الحركة إلى فترة لاحقة أي بعد انتهاء الحرب. فاقتنع الثعالبي حينئذٍ بأنّه لا فائدة تُرجى من مواصلة إقامته في فرنسا، وتحوّل في الحين إلى الأستانة على متن قطار الشرق السريع. وأثناء رحلته زار أغلب العواصم الأوروبية ووسّع

أحداث مقاطعة الترامواي فقد جدّت في نفس المدينة خلال شهر مارس 1912. وقد اتّهمت السلطة الفرنسيّة حركة الشباب التونسي بتحريض التونسيين على مقاطعة الترامواي فحكمت على سبعة من زعماء الحركة بالنفي في مقدّمتهم علي باش حانبة وعبد العزيز الثعالبي.

(1) تمّ تعطيل الصحف العربيّة في نوفمبر 1911 إثر حوادث الزلاج، ولم تستمرّ في الصدور سوى جريدة «الزهرة» التي أصبحت صحيفة شبه رسميّة. وقرّرت السلطة الاستعمارية تعطيل جريدة التونسي الناطقة بالفرنسية إثر إبعاد زعماء الحركة الوطنية في سنة 1912.

من دائرة معارفه. وبعد ثمانية أشهر من وصوله إلى العاصمة العثمانية اندلعت حرب البلقان، فرأى أنّه لا يتحمّل البقاء هناك بسبب القلاقل، وذلك بالرغم من المناصب السامية التي عُرِضت عليه، مثل إدارة أوقاف الحرمَيْن الشريفَيْن والقضاء الشرعي في بيروت، لكنه رفض تلك الخطط. وعُرِضت عليه أيضاً خطّة مفتّش المكتبات التابعة للأوقاف، مع تكليفه بتنظيمها وإعداد فهارسها. فقبل هذه الخطّة بطيبة خاطر لما لها من علاقة بالمطالعة ولأنّها ستسمح له بالاطلاع على المؤلّفات المفيدة والنّادرة الموجودة في تلك المكتبات، والتي يصعُب العثور عليها في العواصم الأخرى. فباشر تلك الوظيفة مدّة شهر ثم تخلّى عنها بمحض إرادته وغادر العاصمة التركيّة في أواخر ديسمبر 1911[1] في اتّجاه مصر، فأقام بها حتى أواخر شهر يناير 1912[2]. ثم توجّه إلى بور سعيد ومنه إلى عدن عن طريق البحر. فأقام بعدن بضعة أيّام ثم زار اليمن انطلاقاً من لحج وتوغّل في داخل البلاد... وبعد ذلك قفل راجعاً إلى عدن، ومن هناك توجّه عن طريق البحر إلى جزيرة سيلان[3] (سرنديب)، فأقام بضعة أيّام في [عاصمتها] كولومبو ثم ارتحل إلى عاصمة المسلمين السابقة (قلعة سيلان)، وزار مدينة كزدا وجبل سرنديب الذي نزل فيه آدم عليه السلام من الجنّة. ثم عاد إلى كولومبو وتوجّه عن طريق البحر إلى ميناء مدوراي الواقع في

---

(1) هكذا في النصّ الفرنسي والصحيح ديسمبر 1912 لأن الثعالبي قد أُبْعِد من تونس في شهر مارس 1912.

(2) الصحيح يناير 1913.

(3) سيلان جزيرة تقع في الجنوب الشرقي من الهند، وقد أصبحت تُسمّى «سري لنكا» منذ سنة 1972.

جنوب الهند. ومن هناك امتطى القطار في اتّجاه مدينة مدراس عاصمة الممالك الهندية الجنوبية. [ولما وصل إليها] ارتحل إلى مدينة فلغلان عاصمة يناريف، ومن هناك تحوّل إلى سنغفورة وجاوة. وبعدما زار جميع تلك المدن قفل راجعاً إلى سنغفورة، ثم تحوّل إلى مملكة السيام [تايلندا الآن] ومنها إلى شنغاي [في الصين]، وبعد ذلك رجع مرة ثالثة إلى سنغفورة ثم غادرها نهائيّاً متوجّهاً إلى رنغون عاصمة مملكة برمانيا [أو بورمة] حيث زار المعبد الذهبي الذي يمثّل أقدم هيكل ديني بناه الإنسان، ويحجّ إليه اليابانيون وقسم من البوذيّين الصينيّين. ومن برمانيا توجّه عن طريق البحر إلى كلكتا عاصمة البنغال، فأقام بها خمسة أيّام ثم تحوّل إلى مدينة الله آباد ومنها إلى بنارس مدينة البراهمة المقدّسة ثم إلى مدينة عُلَيْكِرة ثم إلى دلهي عاصمة الهند. وبعد ذلك تحوّل إلى مملكة تيمور ثم إلى هيبو عاصمة الوثنيّين ثم إلى مملكة تنك الواقعة في صحراء الهند، ومن هناك ارتحل إلى مملكة بوهبل ثم إلى البنجاب وبومباي. وفي آخر شهر يوليو 1913 توجّه عن طريق البحر من بومباي إلى مصوّع ثم إلى عدن، ومن عدن إلى بور سعيد، ومن بور سعيد إلى القاهرة. ثم رجع من جديد إلى بور سعيد ومن هناك توجّه عن طريق البحر إلى نابولي ثم تولون ثم مرسيليا وأخيراً تونس. وكان قد بلغه قرار العفو الذي شمله وهو في سنغفورة إثر رجوعه من شنغاي.

وأثناء هذه الرحلة الطويلة ألقى [صاحب الترجمة] عدّة خطب حركت مشاعر المسلمين. وفيما يلي قائمة المدن والمناطق التي تناول فيها الكلمة:

1 ـ ألقى خطاباً في الاجتماع الإسلامي المنعقد في قلعة سيلان.

2 ـ وفي جامع جميع صاحب في مدينة مدراس.

3 ـ وفي بيت أحد كبار التجّار [بدون تحديد المكان].

4 ـ وفي دار الضيافة العربية بمدينة بنائك [في بلاد الملايو].

5 ـ وفي مقر الجمعية الإسلامية بسنغفورة.

6 ـ وفي سنغفورة ذاتها.

7 ـ وفي المدرسة [القرآنيّة] بمدينة بتافيا[1] التي كان على رأسها آنذاك مدير تونسي هو الشيخ الهاشمي بن المكي[2].

8 ـ وفي المدارس العليا بالأستانة.

9 ـ وفي المدرسة المحمّديّة بجليبة.

10 ـ وفي قرية كومان ملجأ الحركة الإسلامية بجاوة.

11 ـ ويوم الجمعة في جامع مدينة هولون عاصمة السلاطين المسلمين السابقة.

12 ـ وفي النادي الوطني الهندي بكلكتا.

13 ـ وفي الكلية الإسلامية بكلكتا.

14 ـ وفي قصر السلطان بابا الكائن بمدينة بومباي.

وقد كانت الصحف الصادرة في الأقطار التي زارها تنشر

---

(1) بتافيا اسم عاصمة أندونيسيا في عهد الاستعمار الهولندي، وأصبحت تسمّى بعد الاستقلال جاكرته.

(2) محمد الهاشمي بن المكي صحافي تونسي (1881 ـ 1942) هاجر من تونس إثر تعطيل جريدته «بوقشّة» في سنة 1909، واستقرّ به المقام في آخر الأمر في جاوة حيث أسّس أوّل مدرسة عربية عصريّة. انظر: محمد حمدان، أعلام الإعلام في تونس، ص 92 ـ 93 ـ 94.

خطبه وأقواله، ولم يكن هناك أيّ فرق بين جريدة وطنية وأخرى أجنبية.

ولمّا وضعت الحرب الأوروبية الضّروس أوزارها وأقيمت احتفالات الهدنة، قرّرت حركة الشباب التونسي عقد اجتماع عام لدراسة الوضع. فاجتمع أعضاء الحركة عدّة مرّات في بيت أحد مشاهير الوطنيّين. وأثناء الاجتماع المنعقد في آخر شهر ديسمبر 1918 تقرّر تعيين الشيخ الثعالبي ممثّلاً للأمّة التونسية لعرض مطالبها على فرنسا. فسافر في أوائل شهر يوليو 1919 وقام بالمهمّة التي عهدت بها إليه الأمّة على أحسن وجه، ممّا يدلّ على ما كان يتحلّى به من إخلاص وكفاءة.

مؤلفاته

لقد شرع [صاحب الترجمة] في تأليف عدّة كتب حول مواضيع شتّى ولكنّه لم يُكمِل أغلبها. وهذا عيب معظم المفكّرين، فإنّهم يفارقون هذه الدنيا دون أن يتركوا آثاراً من شأنها أن تعرّف بهم بعد وفاتهم.

1 ـ الرّحلة الأولى:

لقد حرّر رحلته الأولى وقدّمها في شكل يوميّات ووصف فيها الأحداث التي عاشها وكذلك آراءه ونظريّاته. وقد قال إنه حاول عدّة مرّات إصلاحها وجمعها وصياغتها في أسلوب تاريخي، ولكن بعض العراقيل قد حالت دون إتمام ذلك العمل فتخلّى عنه. وقد بقيت تلك الأوراق على حالها رغم ما تكتسيه

من أهميّة بالغة. ذلك أنّها تصف أعمال السّلطان عبد الحميد والأفكار الرائجة في عهده والمضايقات والأخطار المحدقة بالشرق الأوسط، وأسباب كلّ ذلك.

2 ـ آراء وأفكار:

وهي مجموعة من المقالات والفصول التي حرّرها حول مواضيع مختلفة ولم ينشرها. وهذه الفصول هي ـ إن صحّ التعبير ـ بمثابة حلقات متتالية من تأمّلات الرّجل.

3 ـ تاريخ شمال إفريقيا إلى بداية الدولة الحفصيّة:

وقد شرع في تحريره منذ عهد قريب ولكنّه لم يُكمله لسوء الحظّ.

4 ـ روح القرآن:

طُبع هذا الكتاب [باللّغة الفرنسيّة] في فرنسا [في سنة 1905 وصدر بعنوان: **روح التحرّر في القرآن**].

5 ـ رحلة الشرق الأقصى:

يمثّل هذا الكتاب أحسن ما كتبه المؤلّف. فهو يتضمّن دراسات مفيدة حول حياة المسلمين في جاوة والهند، وعرضاً مفصّلاً لمعتقدات البراهمة والبوذيّين وأسرارهم الكهنوتية وآدابهم الدينية وخفايا سيطرة الأجانب على المسلمين وبراعتهم في تفكيك العناصر التي ترتكز عليها الوحدة الوطنيّة، مع إبراز الفوارق بين مختلف سياسات الدول الاستعمارية التي تحتلّها. هذا بالإضافة إلى الدّراسات التاريخية وأسباب انتشار الإسلام في تلك الأقطار

الشقيقة واندماجها في صلب العالم الإسلامي.

6 ـ تونس الشهيدة:

هذا الكتاب [قد نُشِر باللغة الفرنسيّة في باريس في سنة 1920]. وهو يتضمّن نقد السياسة الاستعماريّة التي ينتهجها النظام القائم في البلاد التونسية. ويُعتبَر أهمّ ما أُلِّف من كتب في هذا الموضوع.

نقل هذه الوثيقة من اللّغة الفرنسيّة
إلى اللّغة العربيّة ووضع حواشيها
حمّادي السّاحلي

سقوط الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة
أسباب ونتائج

الحلقة الأولى

الرّاضون والنّاقمون:

لما أفحش سُوّاس الأمويّين وخلفاؤهم في أمر العصبيّة العربيّة واستخدموها في توطيد الحاكميّة المضريّة، اضطرّتهم السياسة للتعسّف في تطبيق بعض الأحكام من الكتاب العزيز، إقراراً للدولة في نصاب المروانيّين. فأحفظوا صدور منافسيهم من بني هاشم، وأضرموا الغيرة في نفوس القحطانيّين وربيعة إلى أن آل أمرهم إلى الثورة والاعتزاز بالعصبيّة والعشيرة وانقسام العرب إلى شقّيْن: راضٍ وناقم. فالراضون هم الأقلّون القائمون بالدولة، الناهضون بأمرها ومن لفّ لفّهم من الأجناد والمصطنعين، والناقمون هم الأكثرون المنعزلون عنها المجدّون في إسقاطها، وهم أحزاب منهم المفسد ومنهم المصلح، جمعت ما تفرّق من أهوائهم كلمة المعارضة للأمويّين، وهم فيما بينهم على خلاف تامّ في المبادىء والمقاصد وشكل تأليف الحكومة.

دعـوى النّاقميـن:

أنكر الناقمون على اختلاف مشاربهم وأحوابهم على الأمويّين تطوير الحكومة وقلب وضعيّتها من الديمقراطية الإسلامية (هكذا) الصّرف[1] إلى الأرستقراطيّة الوراثيّة، وسلوكهم لنمط من السّياسة مخالف لما نهجه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم. وتغافل المنكرون عن حركة الزمن وتأثير المحيط واقتضاء الحوادث. وهي عوامل انقلاب وتغيير لا مدخل فيها للاختيار، فِعْلُها فوق إرادة الأمويّين وحذر المخلصين وعسف الناقدين.

حكومة الخلفاء الراشدين:

كانت الحكومة على عهد الخلفاء الراشدين [10 ـ 41هـ/ 632 ـ 661م] هي أشبه بالرئاسة الروحيّة منها بالرئاسة الدنيويّة وأعلق بالسذاجة والفطرة منها بالحضارة والتصنّع، فلا قصور ولا بلاط، ولا حشم ولا حُجّاب، ولا وزراء ولا أعوان. ديوانهم المسجد، وأجنادهم المسلمون، وأمرهم شورى بينهم، أكفّاء لبعضهم، سواسية في الحقوق، لا آمر ولا مأمور. يتفاضلون بالصالحات من الأعمال والسّابقة إلى الإسلام. يأخذون من الغنيّ ويوسعون على الفقير، ويجعلون الفيء في أهله. همّهم من الدنيا مرضاة الله وكرامة الآخرة.

الديمقراطيّة الحقّ[2]:

كان الأعرابي الجلف يَفِدُ على أمير المؤمنين من أقاصي

---

(1) في النصّ الأصلي: الصّرفة.

(2) في النصّ الأصلي: الديمقراطية الحقّة.

البادية أشعث أغبر على قلوص[1] أعجف ينيخه برحاب المسجد ـ دار ندوة المؤمنين ـ ثم يدخل على أميره فيدعوه باسمه كما يدعو راعي شويهاته، فيلبّيه تلبية التّرب للتّرب بلا صغار ولا كبرياء، فيداوله ما شاء من أمر الحكومة. ثم يعود من حيث أتى وهو لا يشعر بعظمة الملك وجلال السلطان إلا بقدر ما انبثّ في روعه من هيبة الطاعة وفضيلة الانقياد. وإن أسمع أميره من خشونة القول وجفاء الحديث ما تتثاقل عنه النفوس، خفض له الجناح ولاَيَنَه إلى أن تزول السخيمة[2] عن صدره ويعرف حقّ أمير المؤمنين دون إذلال ولا خرق للحريّة التي وهبها الله للنّاس وسلبها ملوك الإطلاق.

ماذا عساني أقول وأكتب عن هؤلاء الخلفاء وقد زكّى الله نفوسهم وطهّرهم من أعلاق الدنيا وشهواتها ولم يجعل لها حظّاً منهم ينزع بهم إلى الملك، تنويهاً بشرف الرّسالة وتكريماً لمقام الصحبة لئلاّ يُحفَظ عنهم شيء غير الإصداع بأمر الله. ناهيك بقومٍ عاشوا في الدنيا أتقياء وخرجوا منها أصفياء. فقد كان يُجبَى للفاروق [عمر بن الخطاب] رضي الله عنه خراج فارس والعراق والشام ومصر وبرقة، وصدقات الحجاز ونجد واليمن، وأخماس الفيء، وحشو بيت ماله غنى الدنيا. ومع ذلك كان عطاؤه لا يزيد عن خمسة دراهم في كلّ يوم، وكان يستكثرها. ولو شاء لبنى لنفسه قصراً من ذهب مكلّلاً بالدرّ واليواقيت، وأقام للخلافة بلاطاً يبزّ به كسرى وقيصر من غير أن يؤثر في بيت المال أو يخلّ بعطاء

(1) القلوص من الإبل: الطويلة القوائم.
(2) السخيمة أي الضغينة.

المسلمين، لكنه بنى ما هو أفضل من القصر الذهبي المكلّل. بنى المملكة الإسلامية وشيّدها أفضل تشييد، وأقام بدل البلاط دولة ارتجّ لها المعمور، وخلّد بهما من المآثر ما لا تبيده الدهور ولا تفنيه العصور.

فرجالٌ هذه سيرتهم وسريرتهم، وتلك مناقبهم، لا يمكن عدّهم من الرجال العاديّين الذين يعرفهم النّاس. ولا سبيل لجعل حكومتهم مثالاً لما عسى أن يتلوها من الحكومات.

حسبك يا صاح! حكومة تقوم على عقيدة أن الله تعالى جعل الدنيا فتنةً لعباده وامتحاناً لأوليائه، ثم صيّرها إليهم ﴿لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1] ثم يتولّى حسابهم وهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ولا يلتهم من عملهم سيئاً يوم تجزى كلّ نفس وهي بما كسبت رهينة ولا يظلم ربك أحداً.

إن الحكومة القائمة على أساس التّقوى والمراقبة الإلاهيّة لا يمكن عدّها من طراز الحكومات التي يعرفها الناس، وإنما هي من قبيل الخوارق العادية المقرونة بالتحدّي، المختصّة بأحكام النبوّات، فلا مطمع في ظهورها على يد غيرهم. ولا يصحّ قياسها بحكومات السّواء من الناس.

حكومة الأمويّين:

قامت حكومة الأمويّين إثر حكومة الخلفاء الراشدين [41هـ/ 661م] بعد ثورة ديمقراطية (هكذا) كتم أنفاسها الأمويّون وأنشأوا على أنقاضها هيئة أكثر تشكّلاً بالطبيعة البشريّة وأوسع

(1) سورة هود، الآية 7، وسورة الملك، الآية 2: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

قابليّة للتطوّر. فوثبت بالمسلمين وانتقلت بهم من طور البداوة والسذاجة إلى طور الحضارة والانتظام. واقتبست أصولاً كثيرة بتأثير الاحتكاك والامتزاج بالمجاورين [لا سيما منهم الفرس والروم]، منها تحويل الخلافة إلى ملك وانقلاب الخلفاء إلى قياصرة تحرسهم الأجناد ويسيرون في الحفل تخفق فوق رؤوسهم الأعلام والبنود، وتحيط بهم الغاشية والجنود.

ثم تدرّجوا وأنشأوا الدواوين وطبعوا المسكوكات وأحدثوا الحُجّاب ورتّبوا الأجناد وجعلوا العطاء[1] وظائف لأهل المناصب ونصبوا الوزراء واتّخذوا البريد وساسوا الملك بالاصطناع والتشريف وأقاموا هيبة السلطان في القلوب واتخذوا الزخارف والزينة ولبسوا الخزّ والديباج والوشي وتحلّوا بالأساور والأطواق المرصّعة وحملوا التيجان وتقلّدوا السيوف المزركشة والمناطق الجميلة.

وبدا لهم حال في اقتضاء الأموال أنكره الناس، كانوا كلّما انفتح عليهم باب من الإنفاق فتحوا من قِبَلهم على الأمّة أصنافاً من الجبايات. وأفادتهم تجارب الأزمات، إذ لا بدّ من احتجان الأموال لمقابلة العسرات وتلافي طوارق الآفات. فسلكوا في ذلك مسلك الدول العريقة، ولم يكن عهد بمثله للعرب فحسبوه بليّة وجعلوه وتراً يرمون عنه المروانيّين، والإنسان عدوّ لما جهل وحرب لغير ما ألف.

وزاد الطين بلّة إمساك العطاء الذي كان دارّاً على عهد

(1) انظر حول العطاء: دائرة المعارف الإسلامية، 1/751 ـ 752.

حكومة الخلفاء [الراشدين]، عن عامّة سكّان الحرمَيْن من غير الأجناد. فاضطغنه المحرومون ورفعوا به عقيرتهم للمز المروانيّين بالأثرة ونبذ الدين، ولو أنصفوهم لعذروهم.

لم يعدل الأمويّون عن العطاء المسنون على عهد الراشدين لمجرّد احتجان المال أو لتبذيره في إقامة البهرج للملك أو العصبيّة، بل لذلك سبب آخر أهمّ يعرفه المغرضون أنفسهم وإنما يغمضون عنه أعينهم لئلاّ يرونه. وهو تكاثر العدد بالنموّ وكثرة المواليد عن الوفيات، مع زوال العسر وتوفّر اليسر حتى تضاعفت النسبة مراراً وصاروا بعد أن كانوا يُعَدّون بالآلاف يُعَدّون بالملايين، وصار جند الأمويّين باتّساع نطاق الدولة وترامي أطرافها وكثرة ثغورها أضعاف من كان يجري عليهم العطاء حسب ديوان عمر [بن الخطّاب]، لذلك وجب على الأمويّين تعديل نظام العطاء ومطابقته لحالة الدولة الماليّة ووضع الموازنة بين الموارد[1] والمصاريف، شأن الحكومات النظاميّة المتينة.

تقرّر النظام المالي للحكومة الأموية على أساس متين على عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان [64 ـ 86هـ/ 684 ـ 705م]، فقصر العطاء على أهل الولاية والمرتّبين من الأجناد وصرف المدنيّين لتعاطي الأسباب وطلب الرّزق من وجوهه المعلومة، بعد أن انفتحت لهم الدنيا وتدانت المكاسب من أيديهم، وجعل نصيبهم في الحريّة والأمن والرخاء، وحملهم على التنافس في الانتشار والاكتساب، وأدنى لهم من المرافق

(1) في النصّ الأصلي: الواردات، وهي عبارة تقابل الصادرات.

والحظوظ ما كانوا يرجون ويؤمّلون.

ليس في وسع أيّ حكومة صالحة تتشكّل في العالم أن تقوم بإعالة مجموع رعاياها ـ وهم هجود رقود ـ ولم يصنع من ذلك عُمَر ما صنع إلاّ لمّا جنّد العرب وسيّرهم لفتح فارس والشام[1] ومصر وبرقة الخ... وكان حقّاً عليه أن يقوم بأودهم ويكفل رزقهم وهم جنده الذين يغزو بهم في سبيل الله، وما كان ليعطيهم رضي الله عن هنات.

وإذا أمكن لِعُمَر أن يجنّد مجموع العرب ويُشْرِكهم في العطاء، فهم قلائل في ذلك العهد بالنسبة إلى ما صاروا إليه، والفتوحات متوالية والغنائم كثيرة والخراج موفور والصدقات نامية. أفكان يتّسع للدولة الأمويّة أن تجيب إلى ذلك والإسلام ضارب بحرانه من البرني[2] (هكذا) إلى جدار الصين، وشقّة الفتوحات بعيدة والنفقات طائلة والغنائم قليلة وأهل الخراج ـ وهم أعظم مورد للحكومة ـ مقبلون على الإسلام؟.

لو فرضنا جدلاً أن كنوز الدنيا انسابت إلى خزائن الأمويّين وقسّموها بالعدل بين المسلمين، هلْ يكون هذا الصنيع مرضيّاً للمخالفين؟ بربّك ماذا ينوب المخالف من هذه القسمة وهي بيت القصيد؟ إنه لا ينوبه أكثر من درهم! وهل يرضيه ذلك ويقنعه؟.

---

(1) في النصّ الأصلي: سوريا، والكلمة المستعملة في العصور الإسلامية الأولى هي الشام.

(2) المقصود هو جبال البيريني (Pyrénées) الواقعة جنوب ـ غربـي فرنسا.

أم إنه يريدها قسمة ضِيزَى[1] إشباعاً لنهمه، وسواء لديه بعد ذلك قام العدل أو قعد؟.

لا شكّ أنه يريد الوجه الثاني وفيه تتجلّى صورة الحقيقة المخجلة من صخب هؤلاء الناقمين ونواياهم. وما هي غير الأنانية وحبّ الذات.

إن من يلمّ بأقوال وآراء أكثر المخالفين للأمويين يعلم أنهم كانوا يريدون حملهم على جعل العطاء حقّاً موروثاً في البيوت ينتقل من الآباء إلى الأصلاب بلا حدّ معلوم ولا في مقابل عمل معروف. قصاراهم أن يمتّ أحدهم بنسب مشهور وصحابي مذكور. وليس عليهم بعد ذلك خربت الدنيا أو عمرت، ولو كانوا يفقهون لأدركوا أنّ العطاء في ذاته بغير عوض، رزق غير مُبرَّر وربما كان ضرره على الهيئة الاجتماعيّة أشدّ من حرمان المستحقّين، لأنه يدفع إلى استمراء طعم الكسل والبطالة، ويبرّر الحياة الطّفيلية، وهو أمر تتحاماه الأمم الأثيلة، لذلك كان اتّهام المروانيّين من هذا الجانب غير سديد في نظر الباحثين وربما أقاموا لهم ألف عذر.

لسنا ندافع عن سياسة الأمويّين، لكننا نريد إنصافهم ونقول عنهم ما نعتقده صدقاً، ولا أجمل من المؤرخ إذا كانت حليته الصدق والإنصاف.

وجماع القول إن الأمويّين وُجدوا على رأس انقلاب مهول

---

(1) «قسمة ضيزى» أي جائرة. قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾. سورة النجم، الآية 22.

لم يحسن المخالفون فهمه، ولو فهموه لاستفادوا منه كثيراً وسايروا نظام التحوّل وتركوا هذه الحكومة النجيبة تتمّم برنامجها المعلوم، ولو فعلوا ذلك لخدموا الإسلام أجلّ وأنفع خدمة. لكن لا سبيل إلى ذلك مع قوم بسطاء حشوهم بعض رجال ليست لهم نيّة صالحة لا يستفيدون إلاّ بإفساد برنامج المروانيّين وتنحيتهم عن الملك، ولم يجدوا لأنفسهم دعوة مؤثّرة في أعماق النفوس يسلسون بها قياد العامة غير اتّهام الأمويّين بالزيغ ومخالفة أحكام الكتاب وسنّة الرسول ﷺ ونهج الخلفاء الراشدين لوضوح ذلك في منازع الانقلاب واشتباهه بما يدّعون. وما كانت دعواهم في الحقيقة إلاّ مجرّد شغب وتضليل يصدق عليه ما قاله عليّ كرّم الله وجهه: «كلمة حقّ أُرِيد بها باطل»، لمن قال له: «لا حكم إلاّ لله»[1]، وإلاّ فمن يستطيع أن يدفع سنن الانقلاب في الأمم ويعاكس نظام التحوّل؟.

وفعلاً فإن أخصام المروانيّين قد واتتهم الأيّام وأسرعت إليهم الدهماء[2] وتقبّضوا على الخلافة، لكنّهم لم يعودوا بها إلى حكم [الخلفاء] الراشدين. بل تجاوزوا بها نظام الأرستقراطية المروانية العربية إلى حكم الارستقراطية الآريّة. وظهرت سرائرهم للناس أنهم كانوا طلاّب تراث وملك لا طلاّب إصلاح.

(1) إنّ الخوارج هم الذين احتجّوا على عمليّة التحكيم بين علي ومعاوية، وكان شعارهم: «لا حكم إلاّ لله».

(2) «دهماء الناس»، أي العامّة والرعاع، وهي كلمة كثيراً ما يستعملها الثعالبي في خطبه وكتاباته، انظر: **الكلمة الحاسمة**، للشيخ عبد العزيز الثعالبي، ص 52، دار المعارف، سوسة، 1989.

وما القناع الذي وضعوه على وجوههم إلّا لإخفاء مقاصدهم عن الناس.

هفوات سياسة الحكومة الأمويّة:

لم تكن للحكومة الأمويّة هفوات يعرفها لها التاريخ تنكّبت بها عن المحجّة البيضاء التي بها الإسلام غير ما كان منها من ترجيح جانب السياسة على الدّين في اتّخاذ العصبيّة وتصلّبها في أمر الحاكميّة العربية وحمل العرب على أعناق الأمم الداخلة في الإسلام، مع أن عذرهم في ذلك واضح تبرّره سياسة الفتح والاستيلاء، وهو تطوير المفتوحين وفصلهم عن ماضيهم. وما فعلوا ذلك إلّا بنيّة المحافظة على الإسلام في الصبغة القومية التي قام بها في وجه العالم داعياً إلى الله.

ولكن هذه الهفوات المُبرَّرة عند قوم والمُبْغَضة لدى آخرين، كانت سلاحاً ماضياً في أيدي أخصام المروانيّين من بني هاشم وخزاعة وربيعة وغيرهم، يثيرون به عاطفة الأعاجم من المسلمين حتى كان أمرهم ما كان.

كانت دعوى مخالفة الإسلام في سياسة الحكومة للأعاجم أظهر منها في سياستها مع العرب. إذ كانوا يحمّلونهم الخراج بعد الإسلام ويقدّمونهم في الجهاد ويمنعون عنهم حقّهم في الفيء ولا يولونهم المناصب السياسية ويعدّونهم خولاً لهم وعبيداً، مع أن الإسلام السّمح رفع بهم إلى سويّة العرب وجعلهم متكاتفين في الحقوق وإن اختلفوا في الأنساب. لذلك كان صوت الناقمين الصادي سريع التأثير فيهم، ولقيت بينهم مذاهبهم السرّية التي

نصبوها للكفاح نجاحاً بيّناً[1].

المقاومة بالأحزاب والمذاهب السياسيّة:

كانت المذاهب السياسيّة التي قام بها الشيعة والشُّراة[2] والحروريّة[3] وغيرها تعمل في طيّ الخفاء والظهور لإحداث انقلابات سياسية ومذهبية في فارس وخراسان وإفريقية والأندلس بعد أن خفتت في جزيرة العرب وفي العراق. فكانت تبدو وتغيب والأمويّون منها بالمرصاد إلى أن استفحل مذهب الشراة بالبربر ووضحت آثاره بمقتل يزيد بن أبـي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب والأندلس[4]. فانتبه على دويّ هذه الكارثة النازعون إلى الخلافة من العبّاسيين، وكانوا ممّن يرشّحون لها أنفسهم بعدما أخفق فيها سعي الطالبيّين[5] أولاد عمّهم، وكاد ينقطع أملهم فيها بسبب إخفاق الثورات التي أشعلوها مراراً في العراق واليمن والحجاز، واستفادوا كثيراً من الأغلاط التي ارتكبوها ـ ومن الحكمة الاستفادة من أغلاط الغير ـ فحاذروا الوقوع فيها.

---

(1) أبدى المؤلف نفس هذا الرأي في كتابه، تاريخ شمال إفريقيا، ص 143 ـ 144.

(2) الشُّراة أي الخوارج.

(3) **الحروريّة**: اسم لمذهب سياسي ظهر في العراق بعد انقطاع مذاهب الأزارقة والصفريّة، وهو أكثر ليونة وتسامح من المذهبين الأوّلين، وغاية أصحابه نيل الحرية بإزالة حكم الأمويّين (المؤلف).

(4) الطبري (839 ـ 923)، تاريخ الأمم والملوك، 358/5. انظر أيضاً: الثعالبـي، تاريخ شمال إفريقيا، ص 120.

(5) يقصد المؤلف بالطالبيّين شيعة علي بن أبـي طالب وذريّته.

اتّكل الطالبيّون وغيرهم من النازعين إلى طلب الخلافة على العرب الخُلّص، فكانوا يقتعدون بهم غارب الطريق بأدنى لفتة من الأمويّين. وأدرك العبّاسيون من نجاح ثورة البربر أن الاعتماد على الأعاجم أنجح للمقاومة، فانصرفوا إلى الموالي وتحاموا العرب وسيّروا دعاتهم ومبشّريهم إلى خراسان، فتوفقوا هناك ما لم يتوفّق إليه من سلفهم من القائمين [أي الثائرين].

قيام دولة إثر دولة:

ليس من العبر التاريخية أن يعرف الإنسان سطحيّاً أن الدولة العباسيّة قامت بعد الدولة الأمويّة، وإنما العبرة أن يعلم ما تخلّل بين سقوط هذه وقيام تلك من العوارض والأسباب وما صرف من المجهودات، لأنه ليس من السهل الهيّن سقوط دولة وقيام أخرى بمجرّد ظهور عزم القائمين على الأمر، إذا لم يكن العزم مقترناً بمقدّمات وأسباب قائمة على العلم والتدبير والذكاء.

لذلك وجب علينا أن نبحث في المجهودات العظيمة التي تقدّمت ظهور الدولة العباسية. وفي ذكرها دربة ونشاط للعقول على إدراك سرّ تطوّر الأمم. وفوق ذلك فهي حلقة مهمّة في سلسلة تاريخ النبوغ العقلي المملوء بالعِبَر. ونحن لا نعرف حقيقتنا إلّا متى عرفنا أسرار ماضينا. فقد حكمتنا الدولة العباسيّة [في إفريقية] زهاء 163 سنة[1]، أي من سنة 134 إلى سنة 297.

---

(1) هكذا في الأصل، والصحيح 146 سنة (بالتقويم الهجري) أي من سنة 132، تاريخ قيام الدولة العباسية في المشرق، إلى سنة 296، تاريخ قيام الدولة

فالبحث في كونها هو في الحقيقة بحث عن قسم عظيم من ماضينا.

مبدأ الدعوة العبّاسيّة[1]:

أوّل من دعا للعبّاسيّة وأسّس لها التشكيلات السريّة محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس عمّ النبيّ ﷺ. وقد ألمعنا فيما تقدّم إلى بعض الأسباب التي جعلته يتلع بعنقه إلى الخلافة. ولما أتمّ وضع التشكيلات انتدب أبا منصور طلحة بن زُرَيْق بن أبي سعيد، وكان رجلاً صليب العود، ذا رأي ونجدة، حافظاً لأسرار الدعوة، بصيراً بمنازع الشيعة[2] كفؤاً للهمّة. وهو القائل لأبي مسلم لما شاوره في أمر بعض الخارجة عليه: «اجعل سوطك السيف وسجنك المقبرة، يستقم لك اعوجاج الناس». كان في أوّل الأمر قائداً في جيش الثائر عبد الرحمان بن

الفاطمية بالمغرب، و 159 سنة (بالتقويم الميلادي)، أي من سنة 750 إلى سنة 909. وقد استمرّت الدولة العباسية في الشرق إلى سنة 656هـ/ 1258، تاريخ سقوط بغداد في حوزة هولاكو المغولي.

(1) الطبري، 6/ 79 والكامل لابن الأثير، 5/ 53.

(2) المقصود بالشيعة هنا، شيعة بني العبّاس (الطبري، 5/467). على أنّ عبارة شيعة قد أصبحت تُطلَق على أتباع المذهب السياسي والديني الذي يدعو إلى حصر الخلافة في آل علي بن أبي طالب، بدعوى أن الرسول ﷺ قد أوصى بالخلافة للإمام علي رضي الله عنه. والإمام في نظر الشيعة معصوم لا تحلّ مخالفته ولا يجوز عزله. والجدير بالملاحظة أن المؤلف يستعمل في هذا الكتاب عبارة شيعة للدلالة على أتباع بني العباس، وذلك اقتداءً بالطبري وابن الأثير.

الأشعث[1] لمّا خرج على الأمويين، فعفا عنه الحجّاج. ولازم بعده جيش المهلّب بن أبـي صفرة حتى مات المهلّب، وحضر حروباً وتقلّبات سياسية مرّت على الدولة المروانية أكسبته علماً وتجربة فيما كان بسبيله. ثم انضمّ إلى حزب محمد بن علي [بن عبّاس] وأقام على صحبته حتى سيّره إلى خراسان سنة 103 [721م] يدعو الناس سرًّا إلى بيعة الرضاء من آل محمد. وتقدّم إليه أن لا يسمّى أحداً لئلا يعلم أمره فيقطع به الأمويّون ويقتلون الدعوة في مهدها. فأقام بخراسان مدّة يستألف من بها من شيعة بني هاشم، حتى دخل في حزبه سبعون رجلاً، فاختار منهم اثني عشر نقيباً وكان معدوداً من جملتهم. وهم[2]: سليمان بن كَثِير ومالك بن الهَيْثَم وزياد بن صالح وعمرو بن أعين وزياد بن شبيب المعروف بقحطبة وأبو عيينة موسى بن كعب ولاهز بن قُرَيْظ والقاسم بن مُجاشع وأبو مسلم أسلم بن سلام وأبو داود خالد بن إبراهيم وأبو علي الهروي وأبو منصور طلحة بن زُرَيْق[3]. وانتدب لرئاسة النقباء سليمان بن كثير، وجعل على الدعاة أبا داود خالد بن إبراهيم. وأناط بمجلس النقباء النظر في سياسة الدّعوة وقبول اللاّحقين بها والدّاخلين فيها. واختار تعيين النقباء من أقاليم مختلفة من أعمال خراسان يجتمعون كلّ مرّة في جهة.

---

(1) خلع ابن الأشعث طاعة عبد الملك بن مروان في العراق. فتوجّه إليه الحجّاج بن يوسف وقاتله حتى هزمه في دير الجماجم سنة 82هـ/ 701م.

(2) هناك اختلاف طفيف بين الأسماء الواردة في هذه القائمة والأسماء التي ذكرها ابن الأثير في الكامل، 5/ 53 ـ 54.

(3) في الأصل «بن رزيق» نقلاً عن الطبري، وقد أخذنا برواية الكامل، المصدر المذكور.

واتخّذ لهم شعاراً وإشارات سريّة يتعارفون بهـا ولا يقبلون داخلاً في دعوتهم كائناً من كان إلا بعد استقراء أحواله وبيعة الرضاء وأداء اليمين، وهذه صيغته: «أبايعكم على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه ﷺ وعَلَيَّ بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به وُلاَتُكم، وإن كان عدوّ أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلاّ بأمر وُلاتكم».

الدعوة في إقليم خراسان:

وعكف النقباء على الدعوة بإقليم خراسان وتوجيه دُعاتهم ومشيريهم إلى سائر الآفاق، وانتشر نفوذهم الخفيّ في نواحٍ عديدة، وصارت لهم بها كلمة دون أن ينتبه لذلك الأمويّون ولا عمّالهم. سوى أنهم كانوا يظفرون أحياناً ببعض الدعاة فيتقبّضون عليهم ويشدّدون في استنطاقهم، فلا يبوحون لهم بشيء من سرّهم، فيهدرون دماءهم، فلا يزيد ذلك إلا إصراراً وتمكيناً ومحافظة على الكتمان. وكان لهذا الإصرار والتكتّم أثر واضح في نجاح الدعوة.

ولم يزل أمر الشيعة في تزايد ونموّ حتى قُبِض [أي مات] محمد بن علي[1] وعهد بالوصيّة من بعده لابنه إبراهيم الملقّب بالإمام. فبعث من قِبَله إلى خراسان داعيته وكاتم أسراره أبا هاشم بُكَيْر بن ماهان سنة 126 [743م][2]. وبعث معه بالسيرة

(1) توفّي محمّد بن علي سنة 124هـ/ 741م، الطبري، 5/513.

(2) نفس المصدر، 5/592، والكامل، 5/308.

والوصيّة. فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من رجال الدعوة، فنعى لهم الإمام محمد ودعاهم إلى بيعة إبراهيم ودفع إليهم كتابه، فأسرعوا إلى عقد السريّة ودفعوا إليه جانباً من مال الدعوة. فقدم به على إبراهيم ولم تطل بعد ذلك مدّته حتى أدركته الوفاة، فأوصى الإمام أن يستوزر من بعده حفص بن سليمان المكنّى أبو سَلَمَة الخلاّل.

أبو سَلَمَة الخلاّل وزير آل محمد:

هو أدهى رجال الدعوة وأبعدهم نظراً في الأمور، وأعلاهم كعباً في التدبير، وأشهرهم صيتاً، دعاه إبراهيم الإمام وقلّده الوزارة. وكتب إلى النقباء أنه أسند أمرهم إليه وأوصاهم بالطاعة له وأمره بالمسير إلى خراسان والنظر فيما يصلح أمر الشيعة هناك، فمكث يدبّر أمورهم أشهراً. ولما انصرف عنها وافاه الأمر بالتحوّل إلى البصرة والإشراف منها على أعمال الشيعة وتسيير البرد وإشغال الأمويّين عن الانتباه لحركة الدعاة وأعمال الشيعة.

وما كاد أبو سَلَمَة يتسلّم مقاليد الشيعة حتى ظهرت كفاءته وجدارته في إدارة الأمور وحفظ الأسرار وتمكين الصلة بين النقباء وبثّ المبشّرين والدعاة في جميع الآفاق وتدريب الرجال على الأعمال إلى أن تهيّأ له الأمر فأخرج إلى الوجود دولة عظيمة من عالم الخيال. وهو معدود من أعاظم الرجال الذين نبغ بهم الدهر.

أبو مسلم الخراساني[1]:

ما زال أمر الشيعة ينمو تحت طيّات الخفاء حتى أجمع النقباء على الخروج، فكتب سليمان بن كثير إلى أبي سلمة الخلال يسأله أن يكتب إلى الإمام إبراهيم أن يسيّر رجلاً من أهل بيته إلى خراسان يقلّدونه طاعتهم ويسندون إليه قيامهم بالأمر[2]. فكتب أبو سلمة بذلك إلى إبراهيم وهو يومئذٍ بالحُمَيْمَة من أعمال البلقاء. فعرض إبراهيم الأمر على غير واحد من رجاله وآل بيته فأبوه. ثم أمسك مدّة وعرض الأمر على إبراهيم بن سلمة فلم يقبل فأجمع أمره على أبي مسلم عبد الرحمان الخراساني.

أصله ومنشأه: ينسبه المؤرخون إلى أرومة فارسية كانت تقيم بخطرانية من سواد الكوفة وكان مملوكاً لإدريس بن معقل العجلي، فسار به إلى مكة، وكان له شغف بآل البيت ويحبّ أن تصير لهم دولة. ولما دخل به مولاه على محمد بن علي [بن عبّاس]، أخذ بيديه يقبّلهما ويبكي بكاءً شديداً حتى رق له مولاه ووهبه للإمام وقيل ابتاعه منه. وكان لم يزل حدثاً، فأمر الإمام بعض النقباء أن يقوم على تربيته وتهذيبه فلازمه مدّة تخرّج فيها عليه. ولما مات محمد بن علي انتقل ولاء أبي مسلم إلى إبراهيم الإمام، وكان به حفيّاً عالماً بمقداره فأنكحه ابنة أبي النجم[3] وساق عنه صداقه. وكانت من كرائم النساء، فعَلَتْ بها منزلته في نظر مولاه، وكان كبير الهمّة شديد الملوكيّة من صغره، لا عيب

---

(1) انظر نسب أبي مسلم الخراساني في الكامل، 5/254.

(2) المصدر المذكور، 5/255.

(3) هو عمران بن إسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم، الكامل، 5/254.

فيه إلّا حداثة سنّه. وهو لم يقعد به في نظر الإمام عن توجيهه إلى خراسان، لأن العبرة بالمقدرة والكفاءة لا بالأسنان. فوجّهه وأوصاه، فذهب إلى خراسان بمفرده حقيراً لا يؤبه إليه، وعاد منها بالدولة ومن خلفها الدنيا.

وصيّة إبراهيم الإمام لأبي مسلم:

«يا عبد الرحمان إنك صرت رجلاً منّا أهل البيت، ٱحفظ وصيّتي. ٱنظر هذا الحيّ من اليمن، فالزمهم وٱسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتمّ هذا الأمر إلّا بهم. وٱنظر هذا الحيّ من ربيعة فاتّهمهم في أمرهم ولا تركن إليهم. وٱنظر إلى هذا الحيّ من مُضَر، فإنهم العدوّ القريب الدّار، فاقتل من شككت في أمره منهم ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء. وإن استطعت أن لا تدع بخراسان مَن يتكلّم بالعربية فافعل. أيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله. ولا تخالف سليمان بن كثير فإنه شيخ دولتنا ولا تَعْصِه. وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منّي. فَسِرْ مُوَدَّعاً على بركة الله»[1].

وكتب الإمام بذلك إلى النقباء، وقال: «إني قد أمرته بأمري فاسمعوا له وأطيعوا، فإني قد أمّرته على خراسان، وما غلب عليه بعد ذلك». فقدم أبو مسلم خراسان سنة 128 [745م][2]. فلم يقبله سليمان بن كثير لحداثته، وحسب أنه لا يقوم بأمرهم،

(1) نفس المصدر، 5/348.

(2) الطبري، 6/14 والكامل، 5/347.

وخاف على نفسه وأصحابه فردّه. وكان النقيب أبو داود خالد بن إبراهيم رئيس الدعاة غائباً خلف نهر بلخ. فلما قدم مرو، أقرؤوه كتاب الإمام. فسألهم عن الشابّ الذي أُرسِل إليهم، فأخبروه أن سليمان بن كثير ردّه. فأرسل خلف جميع النقباء وجمعهم في منزل عمران بن إسماعيل وعرض عليهم الأمر.

ونظراً إلى الأهميّة التاريخية التي وقعت لهذا الاجتماع أحببت أن أنقل ما دار فيه من الأبحاث والمناقشات التي تصوّر للقارئين فكرة ذلك العصر.

الحلقة الثانية

جلسة تاريخية لجمعيّة النقباء[1]:

ليس كلّ جلسة تُعقَد، ولا كلّ مؤامرة تقع، تذهب نتائجها ضياعاً ويفنى أثرها في عالم الأثير. فإن الجلسة التاريخية التي عقدتها جمعيّة النقباء في منزل عمران بن إسماعيل في إحدى قرى خزاعة من أعمال مرو كان لها أثر في تغيير مجاري التاريخ وقلب نظام الدنيا. وكفاها أنها أظهرت للعالم مؤسّس الدولة العبّاسية أبا مسلم، ولو لم تنتدبه لم تكن تلك الدولة شيئاً مذكوراً، وهو معدود في أعلى طبقات رجال التاريخ في السياسة والحروب.

انعقد الاجتماع في مخدع خفيّ في المنزل، فافتتحه رئيس النقباء سليمان بن كثير بحمد الله تعالى والصلاة على نبيّه ثم دخل في الغرض الذي دُعُوا لأجله، وتلا عليهم كتاب الإمام، ثم جعل يشرح لهم رأيه في أبـي مسلم فقال:

«وفد عليّ رسول الإمام فرأيته حَدَثاً لا عهد لمثله بمقارعة الحوادث. وخفت أن لا يقدر على هذا الأمر. فأشفقت على من دعونا إليه وعلى أنفسنا وعلى المجيبين، فرددته. ولما رجع إلينا

---

(1) الطبري، 6/29 ـ 30.

أبو داود[1] من وراء بلخ علم الخبر فأمضّه وأفضعه وطلب إليّ جمعكم للمداولة في الأمر».

ثم سكت. فأنصت الحاضرون وحوّلوا أبصارهم إلى ناحية أبـي داود فقال:

- «أيها النقباء! إن الله تبارك وتعالى اختار محمّداً ﷺ وانتخبه واصطفاه وبعثه برسالته إلى جميع خلقه، فهل فيكم أحدٌ ينكر ذلك؟».

- جميعاً: لا.

- قال: «أفتشكّون أن الله تعالى أنزل عليه كتابه أحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنّ فيه سننه وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟».

- كلّهم: لا.

- قال: «أفتشكّون أن الله عزّ وجلّ قبضه بعدما أدّى ما عليه من رسالة ربّه؟».

- بلى.

- قال: «أتظنّون أنّ ذلك العلم الذي أُنزِل عليه رُفع معه أو خَلَفَه؟».

- الجميع: «نعتقد خلفه».

- قال: «أفتظنّونه خلفه عند غير عترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟».

- «بل خلفه يقيناً لعترته».

---

(1) وهو خالد بن إبراهيم أحد النقباء.

ـ قال: «فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له مجيبين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه؟».

ـ كلّهم: «اللهمّ لا. اللهمّ لا. وكيف يكون ذلك؟».

ـ ثم قال: «لست أقول لكم فعلتم أو إني أتّهم أحداً بذلك. ولكن الشيطان ربما نزغ النزغة فيما يكون ولا يكون ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1]. فهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عترة الرسول ﷺ؟».

ـ جميعاً: لا.

ـ قال: «أفتشكّون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث الرسول؟».

ـ لا.

ـ قال: «فأراكم شككتم في أمرهم ورددتم علمهم. ولو لم يعلموا أنّ هذا الشابّ هو الذي يقوم بأمرهم، لم يبعثوه إليكم. وهو غير متّهم في موالاتهم ونصرتهم والقيام بحقّهم؟».

فندموا على ما كان من صرف أبي مسلم ورجعوا باللائمة على سليمان بن كثير وبعثوا خلف أبي مسلم فردّوه وهو منصرف من قومس، وقلّدوه أمرهم. وسمعوا له وأطاعوه واجتمعت حوله كلمة الشيعة والنقباء وقبلوا ما جاء به وصدع بأمره الدعاة فانبرى ليث الدعوة ومؤسّس الدولة إلى إيجاد التراتيب وتنظيم التشكيلات في أقطار خراسان، وبثّ الدعوة في سائر الجهات، وجلب الناس بوسائل الترغيب والإقناع إلى أن كان من أمره ما كان.

---

(1) سورة الحجرات، الآية 6.

ظهور أعراض الانحطاط في الدولة الأمويّة:

لندع أبا مسلم الخراساني سابحاً في أفكاره، منهمكاً في أعماله يصعد إلى مجرى الأفلاك ويهبط إلى فسح الأسماك، يخلو حيناً إلى أهل الدعوة يناجيهم بما يهوى من الأماني والآمال ويدبّر ما شاء من الآراء والأعمال. ولنرجع البصر كرّة إلى صحف الوقائع التي مرّت على الأمويّين قبيل ظهوره ثم نعود إليه عسانا نجد فيها حلاً للأحاجي التاريخية التي تعرض للباحثين بين طيّ الأمويّين ونشر العباسيّين، ويزول ما غمض من ذلك عن أفكار الباحثين ويأخذ العلم مجراه من القياس والتعليل والاستنتاج. ومن الغلط المحض في نظر التاريخ أن يسند الباحث طيّ الأُوَل ونشر الثانين إلى مجرّد أحكام التدابير التي وضعها أبو سَلَمَة الخلاّل أو إلى المساعي النشيطة التي قَامت بها جمعية النقباء السريّة في سير الانقلاب أو إلى ظهور الباقعة الداهي أبـي مسلم الخراساني على رأس الحركة في أقاليم خراسان، ينفّذ الأمر بدهاء وذكاء خارقَيْن، بل لا بدّ لذلك من مقارنة أسباب أخرى أعلق بسير الأمم وأشدّ تأثيراً في مجرى الحوادث التي تعاقبت على الأمويّين فأوهنت ما أحكموا من المؤسّسات التي قامت عليها دولتهم فحلّت محلّها مؤسّسات القائمين بالأمر للعباسيّين. فلا ريب أنه لو لم يمسس مؤسّسات الأمويّين الوهن لاستحال انتقال الدولة إلى العباسيّين بلغ ما بلغ من حكمة أبـي سلمة أو نشاط جمعية النقباء أو بعد نظر أبـي مسلم.

ومن أفدح ما طرق [الدولة] الأموية من الوهن انتزاع الثقة

منها وزوال هيبتها من القلوب وجنوح الأمّة إلى الثورات وتتابع النكبات. كما حصل ذلك على عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان سنة 125 [743م].

فقد أجمع المؤرخون أن دور العظمة الأموية خُتِمَ بمهلك أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان [125هـ/ 743م]. وبدأ الانحطاط في ولاية خلفه الوليد [بن يزيد بن عبد الملك][1]. فقد كان جبّاراً عنيداً وشهوياً خليعاً غير محمود السيرة منعكفاً على المجون واللذّات ومنادمة الدعّار والفسّاق، حتى أنه تجنّب الإقامة في المدن وبالغ في الاحتجاب عن لقاء النّاس وأهمل النظر في شؤون الدولة واستعمل في المناصب غير الأكفاء، فثقل أمره على الأمّة وقَلَتْه العصبيّة وكرهته الأجناد. وكان ذلك بداية دور التدلّي في [الدولة] الأمويّة ولم يرتفع لها فيه رأس إلى أن انقرضت نهائيّاً على عهد مروان الجعدي بن محمد بن مروان بن الحكم، [ويُسَمَّى مروان الحمار]، سنة 132 [750م][2].

يذكر التاريخ جنايات كثيرة للوليد على الدولة المروانية،

---

(1) الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وُلِد بدمشق حوالي سنة 90هـ/ 708م، وعُرِف منذ نعومة أظفاره بميله إلى اللّهو والمجون، ومنادمة الخلعاء، ومعاشرة الظرفاء والمغنّين. وقد بُويع بالخلافة سنة 125هـ/ 743م، وتوفّي مقتولاً سنة 126هـ/ 744م.

(2) بعد مقتل الوليد بن يزيد تولّى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان في جمادى الثانية 126/مارس 744 ودامت ولايته خمسة أشهر وليلتَيْن. وخلفه أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك في 7 ذي الحجّة 126/20 سبتمبر 744. فلم تطل مدّته حتى خُلع في محرّم 127/أكتوبر 744. فقام بعده مروان بن محمد الجعدي الذي بويع بدمشق في صفر 127/أكتوبر 744.

لكن كان أعظمها إفساده بني عمَّيْه هشام والوليد، والوزراء، والـولاة، واليمـانيّـة، وهـم الـدولـة. فقـد قـام بجلـد ابـن عمّـه سليمان بن هشام وتغريبه إلى عمّان لأمور كان ينقمها من أبيه وهو وليّ عهده[1]. وكان سليمان ناشطاً محبوباً معدوداً من أكابر الرجال علماً وسياسةً ودرايةً بالحروب ومعرفةً بحِيَلها ومكائدها. واغتصب جارية لآل عمّه فكلّمه فيها عمر بن الوليد فأبى ردّها. فقال له عمر: «إذن تكثر الصواهل[2] حول عسكرك»[3]. وحبس وليّ عهده يزيد الأفقم بن هشام ظلماً، وأراد البيعة لابنَيْه الحكم وعثمان، وكانا غلامَيْن دون الحلم. وسجن الوزير سعيد بن صهيب لنهيه إيّاه عن البيعة لابنَيْه فغضب عليه وتركه في السجن حتى مات. وعرض أمر البيعة لابنَيْه على خالد بن عبد الله القسري وكان رأس ولاة الأمويّين وشيخ وزرائهم وأعظم قائد لجند اليمـانيّـة. فقـال: «كيـف أبـايـع مـن لا أصلّي خلفـه ولا أقبـل شهادته»؟. فقال له قوم من أهله: «كيف تقبل شهادة الوليد مع مجونه وفسقه»؟ قال: «أمره غائب عنّي ولا أعلمه يقيناً، وإنّما هي أخبار الناس»[4]. فاضطغنها عليه الوليد حتى نكبه. ويروون في نكبته أن الوليد لما أراد الحجّ في السنة التي بويع فيها، شاور خالداً في الخروج، وكان لا يألوه نصحاً وهو مطّلع على ما أجمع عليه زعماء مضر وقضاعة واليمانيّة من الفتك به. فقال: «أخّر

(1) الطبري، 5/538.
(2) الصّواهل، ج، صاهل وهو الفرس.
(3) الطبري، 5/539.
(4) المصدر المذكور.

الحجّ العام». فقال: «ولِمَ»؟ فأبى أن يكاشفه بما علم اتّقاءَ الفتنة. فأمر بحبسه وأن يُستأدى ما عليه من أموال العراق أيّام كان عليه ودفعه إلى خاله يوسف بن عمر وكان على العراق وقبض فيه خمسين مليون درهم وسار به عمر إلى العراق ومكث في العذاب إلى أن مات قتيلاً سنة 126 [744م][1]. وكان آل القعقاع يتولّون أهمّ الولايات. فكان الوليد بن القعقاع على قنسرين، وعبد الملك أخوه على حمص، فعزلهما وعيّن يزيد بن عمر بن هبيرة وكان موتوراً على الوليد. ودفع إليه آل القعقاع فعذّبهم ونكل بهم حتى مات الوليد وأخوه عبد الملك في العذاب ورجلان من آلهما.

ونظراً إلى هذه الأسباب فقد اضطغن على الوليد آل هشام وآل الوليد ابنَيْ عبد الملك وآل القعقاع واليمانية ومضر وألّبوا عليه الأمّة.

روى الإمام الطبري[2] أنهم أتوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة، فشاور عمرو بن يزيد الحكمي وكان من فضلاء سوّاس الأمويّين، فقال له وهو يريد صرفه: «لا تفعل حتى تشاور أخاك العبّاس بن الوليد، فهو سيّد بني مروان. فإن بايعك لم يخالفك أحدٌ، وإن أبى كان الناس له أَطْوَع». فقال: «هل لك رأي في غير هذا»؟ قال: «فإن أبيت إلا المضيّ على رأيك قم فادع لنفسك وأظهر للناس أن العبّاس قد بايعك، وإلّا فما أنت منها بشيء».

---

(1) الكامل، 5/276 والطبري، 5/541.
(2) تاريخ الطبري، 5/543.

حذّر البصراء عواقب الخلع:

لم يستطع يزيد أن يبتّ في أمره شيئاً قبل عرض الأمر على أخيه العبّاس. فأتاه وشاوره فيما دعته إليه العصبيّة الأمويّة، فلما سمع قول أخيه اعترته هزّة وقال: «مهلاً يا يزيد فإن ما تحاوله فساد في ملك آل مروان[1]، وإيّاك أن تفعل فتجني على بيتك وقومك». فانقلب يزيد إلى منزله يائساً من العبّاس ودسّ رجالاً من عظماء الدولة، منهم الأحنف الكلبي ويزيد بن عنبسة السكسكي وآخرين من ثقاته يدعون الناس إلى بيعته سرًّا. ولما عُرِضَت الدعوة على الحجّاج بن بشر بن فيروز الديلمي عامل دهلك، قال: «لا حول ولا قوّة إلا بالله، كأني بالوليد قد قُتِل ويكون قتله سبب هلاك آل بيته وانقراض ملكهم». وعاود يزيد أخاه العبّاس ومعه قطن مولاهما ومربّيهما وكلّمه في ذلك فزبره العبّاس وقال: «لئن بلغني أنك عدت لمثل هذا لأشدنّك وثاقاً ولأحملنّك إلى أمير المؤمنين». فخرج يزيد مغضباً. فقال العبّاس لقطن: «ويحك يا قطن أترى يزيد جادّاً»؟ قال: «جُعِلتُ فداك، ما أظنّ ذاك. ولكنه خاف ضياع الدولة مما صنع الوليد ببني هشام والوليد والأمراء وما يُنقَل عنه من الاستخفاف بالدين والتهتّك، وقد بلغه من ذاك ما ضاق به ذرعاً». فقال العبّاس: «أَمَ والله إني لأظنّ يزيد أشأم سخلة في بني مروان. ولولا ما أخاف من عجلة الوليد مع تحامله علينا لشددت أخي وثاقاً وحملته إليه ليرى فيه رأيه. فأزْجِرْه عن رأيه فإنه يسمع إليك».

(1) هكذا في الأصل، وفي الطبري، المصدر المذكور: «فإنّ في نقض عهد الله فساد الدّين والدّنيا».

ولما عاد قطن حكى ليزيد ما دار بينه وبين العبّاس. فقال: «والله لا أكفّ ولو كان في ذلك حتفي، ولإنقاذ دولة بني مروان من المهوات أحبّ إلي من الحياة». وعكف على دعوة الناس إلى بيعته وخلع الوليد سرًّا. فبلغ ذلك معاوية بن عَمْرو بن عتبة[1]، فأتى الوليد فقال: «يا أمير المؤمنين إنك تبسط لساني بالأنس بك وأكفّه بالهيبة لك، وأنا أسمع ما لا تسمع وأخاف عليك ما أراك تأمن. أفأتكلّم ناصحاً أو أسكت مطيعاً»؟ قال: «كلّ مقبول منك، فتكلّم بما شئت». فحكى له ما بلغه عن يزيد، فأنصت له الوليد إلى أن أتمّ فقال: «إن الله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. ولو علم بنو مروان أنهم يوقدون على رضف يلقونه في أجوافهم ما فعلوا. دَعْهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾[2].

[كتاب مروان بن محمد]:

وبلغ مروان بن محمد الجعدي، وكان والياً على أرمينية، أن يزيداً يؤلّب الناس على ابن عمّه ويدعو إلى خلعه. فكتب إلى شيخ بيت الملك سعيد بن عبد الملك بن مروان يستكفه أمر الناس وينذر به آله زوال الدولة من أيديهم إن أبوا إلاّ الإصرار على الفتنة. وكتابه معدود من نفائس الكتب السياسية، وإليكه بنصّه بعد حذف الديباجة:

«إن الله تعالى جعل لكلّ أهل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتّقون بها المخاوف وأنت بحمد ربّك ركن من أركان أهل بيت

---

(1) في الأصل: معاوية بن عُمَر، والتصحيح من الطبري.

(2) سورة الحشر، الآية 2.

بني مروان. وقد بلغني أن قوماً من سفهاء (كذا) أهل بيتك قد استنوا أمراً إن تمّت لهم رؤيتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا باباً لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم. وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجاً. ولو جَمعتَني وإيّاهم لرممت فساد أمرهم بيدي ولساني ولخفت الله في ترك ذلك، لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا، وإنه لن ينتقل سلطان قوم قطّ إلا في تشتيت كلمتهم، وإن كلمتهم إذا تشوّشت طمع فيهم عدوّهم. وأنت أقرب إليهم مني. فاحتل لعلم ذلك بإظهار المتابعة لهم. فإذا صرت إلى علم ذلك فتهدّدهم بإظهار أسرارهم وخُذْهم بلسانك وخوّفهم العواقب لعلّ الله أن يردّ إليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم، فإن فيما سعوا فيه تغيير النعم وذهاب الدولة.

فَعَاجِلْ الأمر وحبل الألفة مشدود والناس سكون والثغور محفوظة. فإن للجماعة دولة من الفرقة والسّعة دافعاً من الفقر وللعدد منتقصاً، ودول اللّيالي مختلفة على أهل الدنيا والتقلّب مع الزيادة والنقصان.

وقد امتدّت بنا أهل البيت متتابعات من النعم قد يُغْنَى بها جميع الأمم وأعداء النعم وأهل الحسد لأهلها. وبحسد إبليس خرج آدم من الجنّة. وقد أمل القوم في الفتنة أملاً لعلّ نفوسهم تهلك دون ما أملوا. ولكن أهل البيت مشائيم يغيّر الله النعمة بهم. فأعاذك الله من ذلك واجعلني من أمرهم على علم، حَفَظ الله لك دينك وأخرجك مما أدخلك فيه وغلب لك وشدّك على نفسك» (انتهى).

ولما اتّصل الكتاب بسعيد بعث به إلى العبّاس بن الوليد، فدعا العبّاس يزيداً فعذله وتهدّده وقال: «أما كنت نهيتك عن هذا الأمر؟ إني أخاف يا يزيد أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدوّنا أراد أن يُغْري بيننا ثم يسلبها عنّا». فأقسم له يزيد أنه لم يفعل، فصدّقه.

وحكى بشر بن يزيد بن الوليد قال:

«دخل أبـي على عمّي العبّاس يكلّمه في خلع الوليد [وبيعة يزيد]، فكان العبّاس ينهاه وأبـي يراده، فكنت أفرح وأقول في نفسي أرى أبـي يجترىء أن يكلّم عمّي ويردّ عليه قوله. وكنت أرى الصّواب فيما يقوله أبـي. ولما حدث ما حدث من انقلاب الدولة وزوال النعمة علمت أن الصّواب كان مع عمّي. وقد كان يقول: «يا بني مروان إني أظنّ أن الله قد آذن في هلاككم»، وينشد [بسيط]:

«إنـي أعِيـذكـم بـالله مـن فتَـنٍ ... مثلِ الجبالِ تَسامَى ثم تَنْدَفِعُ
إنّ البَرِيَّةَ قد مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ ... فاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدّينِ وارْتَدِعُوا
لاَ تَلْحِمُنَّ ذِئَابَ النّاس أَنْفُسَكُمْ ... إنّ الذِئَابَ إذا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لا تَبْقَرُنَّ بِـأَيْـدِيكُـمْ بُطُـونَكُـمْ ... فَثَمَّ لاَ حَسْرَةٌ تُغْنِي وَلاَ جَزَعُ»[1]

خلع الوليد بن يزيد[2]:

لما استوثق يزيد بن الوليد من البيعة لنفسه وعوّل على خلع

---

(1) الطبري، 5/545.

(2) لقد لخّص المؤلف الروايات المنقولة عن الطبري، 5/545 ـ 546 ـ 547 ـ 548.

ابن عمّه أقبل من البادية إلى دمشق [متنكّراً] في سبعة نفر من رجاله وأرسل إلى من بايعه من أمراء الأجناد أن يوافوه إلى دمشق. فأقبل الوليد في من معه إلى المسجد الأموي فصلّوا العتمة. وكان للمسجد حرّاس وُكِلوا بإخراج الناس باللّيل بعد الصلاة. فلما صلّى الناس صاح بهم الحرس. وتباطأ أصحاب يزيد ثم صاروا يخرجون من باب المقصورة ويدخلون من باب آخر حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد. فأخذوا الحرس ومضى يزيد بن عَنْبَسَة إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده وقال: «قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه». فقام معه وقال: «اللهمّ إن كان هذا لك رضى فأعنّي عليه وسدّدني له. وإن كان غير ذلك فاصرفه عنّي [بموت] إنك على كلّ شيء قدير».
وخرج في اثني عشر رجلاً من الخاصّة ثم وافته الأجناد وهو سائر في الطريق. فمضى إلى المسجد وأخذوا معه خُزَّان بيت المال وصاحب البريد. وأُمِر في تلك الليلة بالقبض على كلّ رجل له هوى في الوليد، وملك يزيد من ساعته دمشق واحتوى على ما كان بها من خزائن بني أميّة من أسلحة وأموال وذخائر. ولم يصبح حتى توافت إليه الأجناد فانتقى منهم ألفاً وخمسمائة. فعقد لمنصور بن جمهور على طائفة، وليعقوب بن عبد الرحمان الكلبي على طائفة، ولهرم بن عبد الله بن دحية على طائفة، ولحميد بن حبيب اللخمي على طائفة، وأمّر عليهم ابن عمه عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك، وسيّرهم لمحاصرة الوليد وخلعه وكان بالأغدف. فأتى الوليد الخبر وكان معه يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وعبد الله بن عنبسه بن سعيد بن العاص.

فقال له يزيد بن خالد: «يا أمير المؤمنين سِرْ حتى تنزل حمص فإنها حصينة ووَجِّهْ جنودك إلى يزيد فيُقْتَل أو يُؤْسَر. فقال ابن عنبسة: «ما ينبغي لأمير المؤمنين أن يدع قصره ونساءه[1] قبل أن يقاتل ويعذر». وقال يزيد بن خالد: «وماذا يخاف على حرمه؟ وإنما أتاه عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك وهو ابن عمّهنّ». فمال الوليد إلى قول ابن عنبسة. فقال له الأبرش بن سعيد بن الوليد الكلبـي كبير وزرائه: «يا أمير المؤمنين تدمر حصينة وبها قومي يمنعونك». فأبـى أن يجيبه وارتحل من ساعته. وسار في طريق السمـاوة وترك الريف وهو في مائتَيْن من الفرسان. ولما وصل إلى حصن البخراء قال له بيهس بن زميل: «أما إذا أبـى أمير المؤمنين المضيّ إلى حمص أو تدمر، فهذا حصن البخراء فإنه حصين وهو من بناء العجم. فانْزِلْه». قال: «إني أخاف الطاعون» ـ وكان فاشياً يومئذٍ ـ قال: «إنّ الذي يُرَاد بك أشدّ من الطاعون، فانْزِلْ».

ولما نزل الوليد حصن البخراء توافت إليك عساكر يزيد فأمر أن يُنصَب إليه سرير، فجلس عليه وتدانت إليه العساكر فقال: «أَعَلَيّ تُوثَب الرجال وأنا أَثِبُ على الأسود في آجامها وأتخصّر الأفاعي»؟ فأخرج لواء جدّه مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية ونصبه على رأسه وركب فرسه السندي وتقدّم في أصحابه وقاتل جيش يزيد قتالاً شديداً وأثخن في الرجال حتى سمع صائحاً يقول: «أقتلوا عدوّ الله!»، ورُمِيَ بالحجارة وصُرِع كثير من أبطاله. فألوى عنان فرسه ودخل القصر وأغلق الأبواب. وأحدق

(1) في الطبري «أن يدع عسكره ونساءه»، 5/549.

به جيش عبد العزيز. فدنا الوليد من الباب فقال: «أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلّمه»؟ فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي، أخو عبد الله صاحب الوليد: «كلّمني». قال له: «مَنْ أنت»؟ فاستسمى له. فقال له: «يا أخا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المُؤَن (الضرائب) عنكم؟ ألم أَعْطِ فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟». فقال يزيد: «إنّا ما ننقم عليك في أنفسنا ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمّهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله».

قال الوليد: «حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أُحِلّ لي لسعة عمّا ذكرت». ورجع إلى مخدعه، فجلس وأخذ مصحفاً وقال: «يومٌ كيوم عثمان». ونشر المصحف يقرأ، فعلوا الحائط، وكان أوّل من علاه يزيد بن عنبسة، فنزل إليه وسيف الوليد إلى جنبه، فقال له يزيد: «نحّ سيفك»! فقال الوليد: «لو أردت السيف لكانت لي ولك حالة غير هذه».

فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه. فنزل من الحائط عشرة، فضربه واحد على رأسه، وضربه آخر على وجهه وجرّوه بين خمسة يخرجوه، فصاحت امرأة كانت معه في القصر، فكفّوا عنه ولم يخرجوه. واحتزّ أبو علاقة القُضاعي رأسه وأخذ عَقَباً فخاط الضربة التي في وجهه. وقدم رَوْح بن مقبل بالرأس على يزيد. وأقبل يزيد بن عنبسة وأخذ بيد يزيد بن الوليد وقال: «قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله لك على عدوّك»، فاختلج يزيد يده من كفّه وقال: «اللهمّ إن كان هذا لك رضا فسدّدني». وسأل

يزيد: «هل كلّمكم الوليد»؟ فأخبره بما دار بينهما. فقال يزيد: «حسبك فقد لعمري أغرقت وأكثرت، أَمَ والله لا يُرْتَق فتقُكم ولا يُلَمّ شعثكم ولا تجتمع كلمتكم»[1]. وقد كان مقتل الوليد يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الأخيرة سنة 126 [مارس 744] وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.

تتابع الفتن[2]:

اضطرب حبل بني مروان بعد مقتل الوليد وهاجت الفتن وتتابعت الأحداث ولم تنقطع إلاّ بزوال الملك، وإنّ في ذكرها لعبرة للمتبّصرين. فقد وثب سليمان بن هشام بن عبد الملك على يزيد بن الوليد بعمّان ـ وكان منفياً هناك ـ واحتوى على ما بها من أموال الدولة. واستمرّ إلى أن استقدمه يزيد وعفا عنه. وثار أهل حمص وكاتبوا الأجناد ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم. وعقد هؤلاء الثوّار بينهم عقداً تحالفوا عليه، خلاصته أن لا يدخلوا في طاعة يزيد. وإن كان وليّا عهد الوليد حيَّيْن عقدوا البيعة لهما، وإلاّ جعلوها لخير من يعلمون، على أن يعطيهم العطاء من المحرّم إلى المحرّم، ويعطيهم للذريّة «ما أشبه اللّيلة بالبارحة»! وأمّروا معاوية بن يزيد بن حصين.

فلما بلغ يزيد بن الوليد خبرهم وجّه لهم رسولاً وكتب إليهم أنه ليس يَدْعو إلى نفسه ولكنه يدعوهم إلى الشورى. فاجتمع رؤساء الثائرين للمناقشة في ردّ الجواب. فقال عمرو بن قيس

---

(1) نفس المصدر، 5/551. انظر أيضاً: الكامل، 5/280.

(2) الطبري، 5/564 ـ 565.

السكّوني: «نحن راضون بوليَّـيْ[1] عهدنا» (يعني ابنَيْ الوليد).
فقام إليه يعقوب بن عمير وأخذ بلحيته فقال: «أيها العشمة إنك قد فيّلت وذهب عقلك[2]. إن اللذين تعنيهما لو كان يتيمَيْن في حجرك لم يحلل لك أن تدفع إليهما مالهما فكيف أمر الخلافة؟ أما تتّقي الله»؟ فحصل بينهم شجار ثم عادوا واتّفقوا على عدم الجواب وطرد رُسُل يزيد.

ولما اتّصل ذلك بيزيد سيّر إليهم مسرور بن الوليد والوليد بن روح في جيوش كثيرة، فتجهّز للقائهم أهل حمص وصاروا إلى دمشق حتى وافوا عذراء، وهي على أربعة عشر ميلاً من العاصمة الأمويّة[3]. فنهد لهم يزيد ليث نجدته عبد العزيز بن الحجّاج في ثلاثة آلاف وأمره أن يثبت على عقبة السلامة[4]، وأمر الجيشين أن يمدّ بعضهم بعضاً. وحين التقى الجيشان بالثائرين حمل عبد العزيز بن الحجّاج فانهزم الثوّار فتبعهم عبد العزيز فناداه يزيد بن خالد القسري: «الله الله في قومك»! فكفّ عنهم على أن يبايعوا ليزيد، وأرسل وجوههم إلى دمشق معتقلين. ولما وصلوا بايعوا مع أهل دمشق ليزيد، فعفا عنهم وأعطاهم أموالاً واستعمل عليهم معاوية بن يزيد بن حصين برضاهم.

(1) هكذا في الأصل، وفي الطبري: «نحن راضون بوليّ عهدنا».
(2) في الأصل «صوابك» والتصحيح من الطبري.
(3) هكذا في الأصل، وفي الطبري (5/566): «فلقيهم بالسليمانية مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خلف عذراء من دمشق على أربعة عشر ميلاً».
(4) فقرة ساقطة من الأصل. وفي الطبري (المصدر السابق): «وأمره أن يثبت على ثنيّة العقاب. ودعا هشام بن مصاد فوجّهه في ألف وخمسمائة وأمره أن يثبت على عقبة السّلامة».

وثار أيضاً أهل فلسطين لما أتاهم نبأ مقتل الوليد، وكان رئيسهم يومئذٍ سعيد بن روح بن زنباعٍ. فكتب إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك أن الخليفة قد قُتِل، فاقدِمْ علينا نولك أمرنا. فجمع له سعيد قومه وكتب إلى عامل فلسطين سعيد بن عبد الملك وهو نازل بالسَّبَع: «ارتَحِلّ عنّا فإن الأمر قد اضطرب وقد ولّينا أمرنا رجلاً ارتضيناه». فخرج ولحق بيزيد بن الوليد.

وبلغ أهل الأردن ما فعل الفلسطينيون، فتابعوهم وولّوا عليهم محمد بن عبد الملك، فبعث إليهم يزيد سليمان بن هشام في أجناد دمشق وحمص، فارتحل بالجنود إلى أن أشرف على طبريّة، فوافاه إليها الثوّار، فأوفد إليهم رسوله محمّداً بن راشد يكلّم سعيداً وضبعان ابنَيْ روح، والحكم وراشد ابنَيْ جرو، فلقيهم فوعدهم ومنّاهم على الدخول في طاعة يزيد، فبايعوه على الرضا وصرفوا الجنود ووقى الله منهم، ووفى لهم يزيد بما واعدهم محمد بن راشد من الولايات. ثم تحوّل سليمان بجنوده إلى الرملة وأخذ البيعة على أهلها.

ولما وافت يزيد البشائر بخمود الفتن خرج إلى الجامع في موكب مشهود وألقى ما يسمّونه [في العصور الحديثة] خطاب العرش. وقد ضمّن فيه أصول سياسته الداخلية، ومنه يعرف القارىء ما بلغت إليه الشعوب الإسلامية والحكومة الأمويّة من الرقيّ في النظام الاجتماعي قبل أن تعرفه أوروبا نفسها، بحيث يمكننا أن نقول ولا فخر إن ما يتبجّحون علينا بادّعائه قد سبقناهم بأكثر من اثني عشر قرناً. ومَنْ كان في ريب من ذاك فليُمْعِنْ في

فصوص خطاب يزيد، وهاكه منقولاً عن الإمام الطبري[1]:

«أيّها الناس، إني والله ما خرجت أَشَراً ولا بَطَراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبةً في الملك. وما بـي إطراء نفسي، إنّي لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربّـي ولكنّي خرجت غضباً لله ورسوله ودينه، وداعياً إلى الله وكتابه وسنّة نبيّه ﷺ، لما هُدِمت معالم الهدى وأُطفِىء نور أهل التقوى، وظهر الجبّار العنيد المستحلّ لكلّ حرمة والراكب لكلّ بدعة، مع أنه والله ما كان يصدّق بالكتاب ولا يؤمن بيوم الحساب. وإنه لابن عمّي في الحسب وكفئي في النّسب».

«فلما رأيتُ ذلك استخرت الله في أمره وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوّته لا بحولي وقوّتي».

«أيّها الناس، إنّ لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر [ولا لبنة على لبنة] ولا أكري نهراً ولا أكثر مالاً ولا أعطيه زوجة ولا ولداً. ولا أنقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى أسدَّ ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فضل فضلة نقلته إلى البلد الذي يليه لمن هو أحوج إليه. ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم. ولا أغلق بابـي دونكم فيأكل قويُّكم ضعيفَكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم. وإنّ لكم أعطياتكم عندي في كلّ سنة وأرزاقكم في كلّ شهر حتى

(1) الطبري، 5/570.

تستدرّ المعيشة [بين المسلمين] فيكون أقصاكم كأدناكم».

«أيّها الناس، **إن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن أنا لم أَفِ لكم، فلكم أن تخلعوني**. إلاّ أن تستيبوني، فإن تُبْتُ قبلتم منّي، فإن علمتم ممّن يُعرَف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أوّل من يبايعه ويدخل في طاعته».

«أيها الناس، **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء له بنقض عهد. إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يُعصَى ويُقتَل**. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

ولما انتهى أمير المؤمنين يزيد من إلقاء هذا الخطاب الجليل الذي جعله بمثابة القانون الأساسي لتجديد نظام الدولة الأمويّة طبق إرادة الأمّة ومطالبها، قام الناس وجدّدوا له البيعة. فكان أوّل مبايع يزيد الأفقم بن هشام وليّ عهد الوليد، ثم تبعه قيس بن هانىء العبسي، فقال:

«يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله ودُمْ على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحد من أهل بيتك وإن قالوا عمر بن عبد العزيز [99 ـ 101هـ/ 717 ـ 719م]، فأنت أخذتَها بحبل صالح (بالاختيار والانتخاب) وأن عمر أخذها بحبل سوء (بالإيصاء والتعيين)».

ولما فرغ يزيد من ضبط ولايات الشّام وأجرى ما قرّره في خطابه من قواعد الإصلاحات والتنظيمات، أحبّ أن يعمّم ذلك في كافّة ممالك الخلافة. فالتفت إلى العراق، فعزل عنه يوسف بن

عمر خال الوليد المخلوع وعيّن عليه منصور بن جُمْهور وضمّ إليه أقاليم خراسان. وكتب بما حدث من الانقلاب بلاغاً لأهل تلك الولايات، هذا نصّه[1]:

«أما بعد، فإن الله تعالى اختار الإسلام ديناً وارتضاه وطهّره وافترض فيه حقوقاً أمر بها ونهى عن أمور حرّمها، ابتلاءً لعباده في طاعتهم ومعصيتهم. فأكمل فيه كلّ منقبة خير وجسيم فضل. ثم تولّاه فكان له حافظاً ولأهله المقيمين حدوده وليّاً، يحوطهم ويعرّفهم بفضل الإسلام. فلم يكرم الله بالخلافة أحداً يأخذ بأمر الله وينتهي إليه، فيُنَاوِئُه أحدٌ بميثاق أو بحلول صرف ما حباه الله به، أو ينكث ناكث إلا كان كيده الأوهن ومكرُه الأبور، حتى يتمّ الله ما أعطاه ويدّخر له أجره ومثوبته ويجعل عدوّه الأضلّ سبيلاً الأخسر عملاً. فتناسخت خلفاء الله وُلَاة دينه قاضين فيه بحكمه متّبعين لكتابه. فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته ما تمّت به النّعم عليهم، وقد رضي الله بهم لها حتى توفّي هشام» [في ربيع الثاني 125هـ/ فيفري 743م].

ثم أفضى الأمر إلى عدوّ الله الوليد المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مسلم ولا يقدم عليها كافر، تكرّماً عن غشيان مثلها. فلمّا استفاض ذلك منه واستعلن واشتدّ فيه البلاء وسفك فيه الدماء وأُخِذَت الأموال بغير حقّها مع أمور فاحشة، لم يكن الله ليخلي العاملين بها إلا قليلاً، سرت إليه مع انتظار مراجعته وإعذار إلى الله وإلى المسلمين، مُنكِراً لعمله وما اجترأ عليه من

(1) المصدر المذكور، 5/576 ـ 577.

معاصي الله، متوخّياً من الله إتمام الذي نويت من اعتدال عمود الدين، والأخذ في أهله بما هو رضى، حتى أتيت جنداً وقد وغرت صدورهم على عدوّ الله لما رأوا من عمله. فإن عدو الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلاّ أراد تبديله والعمل فيه بغير ما أنزل الله. وكان ذلك منه شائعاً شاملاً، عريان لم يجعل الله فيه ستراً ولا لأحد فيه شكّاً.

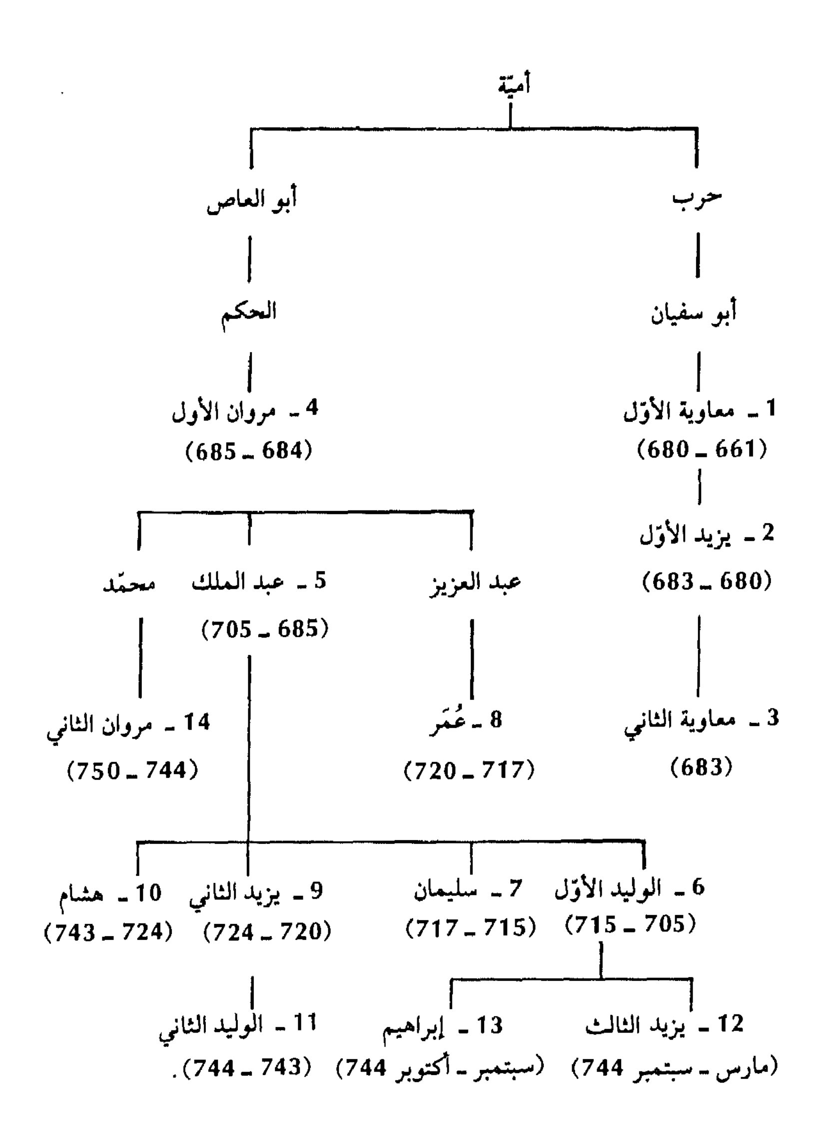
فذكرتُ لهم الذي نقمت وخفتُ من فساد الدين والدنيا وحَضَضْتُهم على تلافي دينهم والمحاماة عنه وهم في ذلك مستريبون، قد خافوا أن يكونوا قد أبقوا أنفسهم بما قاموا عليه، إلى أن دَعَوْتُهم إلى تغييره فأسرعوا إلى الإجابة. فابتعث الله منهم بعثاً يخبرهم من أولي الدين والرضى، وبعثتُ عليهم عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك حتى لقي عدوّ الله إلى جانب قرية يقال لها البخراء، فدعوه إلى أن يكون الأمر شورى ينظر المسلمون لأنفسهم مَنْ يقلّدونه ممّن اتّفقوا عليه. فلم يجب عدوّ الله إلى ذلك وأبى إلاّ تتابعاً في ضلالته. فبدرهم الحملة جهالةً بالله، فوجد الله عزيزاً حكيماً وأَخْذَهُ أليماً شديداً. فقتله الله على سوء عمله وعَصَبَتَه ممّن صاحبوه من بطانته الخبيثة لا يبلغون عشرة. ودخل من كان معه سواهم في الحقّ الذي دُعُوا إليه، فأطفأ الله جمرته وأراح البلاد منه، فبُعْداً له ولمن كان على طريقه.

أحْبَبْتُ أن أُعْلِمَكم ذلك وأعجل به إليكم لتحمدوا الله وتشكروه. فإنكم أصبحتم اليوم على أمثل حالكم، إذ وُلاَتكم خياركم، والعدل مبسوط لكم لا يُسَارُ فيكم بخلافه. فأكثروا على

ذلك حَمْدَ ربّكم وتابعوا منصور بن جمهور، فقد ارتضَيْتُه لكم. على أنّ عليكم عهد الله وميثاقه وأعظم ما عهد وعقد على أحد من خلقه، لتسمعنّ وتطيعنّ لي ولمن استخلفته من بعدي ممّن اتّفقت عليه الأمّة. ولكم عليّ مثل ذلك لأعملنّ فيكم بأمر الله وسنّة نبيّه ﷺ، وأتّبع سبيل من سلف من خياركم.

نسأل الله ربّنا وليّنا أحسنَ توفيقه وخَيْرَ قضائه».

نسب الخلفاء الأمويّين



الحلقة الثالثة

[ثورة أهل خراسان على عاملهم نصر بن سيّار اللّيثي][1]:

قدم منصور بن جمهور العراق فأخذ البيعة على الناس وعيّن أخاه منظور بن جمهور عاملاً له على الريّ وخراسان، وأسرّ إليه عزل نصر بن سيّار عامل بلاد خراسان وما وراء النهر. فوصل منظور إلى الريّ وكتم وجهته إلى خراسان، فأرجفت الأزد بخراسان أن منظور بن جمهور قادم إليها، فبلغ ذلك نصراً فصرف الهدايا التي كان أعدّها إلى أمير المؤمنين وأعتق ما كان فيها من الرقيق وقسّم الجواري في ولده وخاصّته ووزّع الآنية والتحف في وجوه الناس، وغيّر العمّال وأمرهم بحسن السيرة وأشرك معه في الأمر رجالاً من ربيعة واليمن[2].

فولّى يعقوب بن يحيى بن حصين على طخارستان ومسعدة بن عبيد الله اليشكري على خوارزم والمغيرة بن شعبة الجهضمي على قهستان.

---

(1) في الأصل «نصر بن يسار»، والتصحيح من الطبري والكامل. والجدير بالملاحظة أن المؤلف يسمّيه في بعض المواضع «ابن يسار»، وفي مواضع أخرى «ابن سيّار».

(2) الطبري، 5/577 ـ 578.

فتوثّق بذلك ممّن كان ينزع إلى خلافة وأصرّ على منابذة منصور بن جمهور حتى صرّح بذلك في بعض خطبه فقال: «إن جاءنا أمير ظنين قطعنا يديه ورجليه»، وما كان يتعرّض بسوء ليزيد.

ولما بلغ منصور بن جمهور ما بلغه من تنمّر نصر بن سيّار بعث عليه عيناً من بلقين [خراسان] يكاشفه بأحوال خراسان، فلقيه حميد مولى نصر، وكان من قِبَله على سكك بنَيْسَابور، فضربه وهشّم أنفه. فقدم على نصر شاكياً، فأمر له نصر بعشرين ألف درهم وكسوة. وقال: «إن الذي هشّم أنفك مولى «لي وليس بكفئي فأقصّك منه». ثم أوعز إلى عصمة بن عبد الله الأسدي، وكان من رجال شواره أن يخلو بالبلقيني ويكلّمه. فخلا به، فقال: «يا أخا بلقين من تأتي؟ إنا قد أعددنا قيساً لربيعة وتميماً للأزد، وفضّلناكم بكنانة ليس لكم من يكافئها». ثم لقيه نصر فقال: «ما بالكم كلّما أصلحنا أمراً أفسدتموه»؟[1] وبقي نصر مجافياً لمنصور حتى عزله يزيد وأولى مكانه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز. فكتب يقرّه على ما كان قبله من الأعمال. وكانت الفتنة يومئذٍ تدبّ في خراسان بين اليمانيّة والنزارية، فخاف نصر من اشتعالها، فأمر بنقل خزائن المال وأعطى الناس بعض أعطياتهم ممّا كان أعدّه للبعث مع الهديّة السالفة، ومنع العطاء عمّن كان يتوقّع منه الخلاف. فاعترضته فرق من الأجناد، فكان أوّل من تكلّم ورفع عقيرته في وجهه رجل من كندة، فصاح به وهو مارّ في الطريق: «العطاء! العطاء!». فلما كانت الجمعة توقّع

(1) المصدر المذكور، 5/580.

نصر الشغب حين الصلاة، فأمر رجالاً من الحرس فتقلّدوا السلاح وتفرّقوا في المسجد، وأمرهم بكفّ المشاغبين. فلما رقي المنبر، قام الكندي فصاح: «العطاء! العطاء!». فتبعه مولًى للأزد يكنّى أبا الشياطين وصاح أيضاً: «العطاء! العطاء!». ثم تلاهما حمّاد الصائغ وأبو السليل البكري وأخذا يصرخان: «العطاء! العطاء!»، وتبعهما العامّة من الجند. فقال نصر: «إيّاي[1] المعصية، عليكم بالطاعة وملازمة الجماعة، فاتّقوا الله واسمعوا ما تُوعظون به». فصعد إليه سلم بن أحوز وقال: «ما يغني عنّا كلامك هذا شيئاً». ووثب الناس إلى أسواقهم خشية الفتنة، فغضب نصر وقال للجند:

«ما لكم عندي عطاء بعد يومكم هذا. وكأنّي بالرجل منكم قد قام إلى أخيه وابن عمّه فلطم وجهَه في جَمَلٍ يُهْدَى له وثوب يُكْساه ويقول مولاي. وكأني بكم قد نبغ من تحت أرجلكم شرّ لا يُطَاق. وكأني بكم مطرّحين في الأسواق كالجُزُر المنحورة. إنّه لم تَطُلْ ولاية رجل إلاّ ملّوها.

إني لَمُكَفَّرٌ ومع ذلك لَمُظَلَّمٌ، وعسى أن يكون ذلك خيراً لي. إنكم تَرِشون أمراً تريدون به الفتنة ولا أبقى الله عليكم! والله لقد نشرتُكم وطويتُكم وطويتكم ونشرتكم، فما عندي منكم عشرة. وإني وإيّاكم كما قال من كان قبلكم [رجز]:

اسْتَمْسِكُوا أَصْحَابَنَا نَحْدُو بكم فقد عَرَفْنا خَيْرَكم وشَرَّكم

فاتّقوا الله! فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنَّيَنّ الرجل منكم أن يخلع من ماله وولده ولم يكن رآه.

(1) في الأصل «احذروا المعصية» والتصحيح من الطبري والكامل.

يا أهل خراسان، إنكم غمطتم الجماعة وركنتم إلى الفرقة. أسلطانَ المجهول تريدون؟ وتنتظرون أنّ فيه لهلاككم معشر العرب».

وتمثّل بقول النابغة الذّبياني [توفي حوالي سنة 604م] [وافر]:

فَـإنْ يَغْلِـبْ شَقَـاؤُكُـمْ عليكـم   فإني في صَلاَحِكُمُ سَعَيْتُ[1]

[وأضاف قائلاً]:

«يا أهل خراسان، أنتم مسلحة في نحور العدوّ، فإيّاكم والخلاف»[2].

واستمرّ نصر متقبّضاً على خراسان بقوّة الدهاء وحسن السياسة مع كثرة الخارجين بها عليه وجنوح مَنْ بها من قبائل العرب المجنّدين إلى إثارة القلاقل والفتن ولازم الطاعة للأمويّين حتى أجلاه عنها أبو مسلم كما سنفصّله بعد عند الكلام على ثوّار خراسان.

دهاء مروان بن محمد ومناوراته السياسية:

كانت لمروان بن محمد [الجعدي] قائد عموم جند المروانيّين على ثغور الروم ووالي أرمينية مطامع في الخلافة وهو يبدي خلافها حسبما عُلِم من كتابه إلى عظيم بيت بني مروان سعيد بن عبد الملك[3]. وكان يداخل أهل الفتن ويضامّهم ويصانع

---

(1) الطبري، 5/584 ـ 585 والكامل، 5/302 ـ 303.

(2) زيادة من الكامل.

(3) انظر الحلقة الثانية ص 69.

رجال الأحزاب حتى يستجن بواطن الأسرار ويعرف مكان المحزّ من وضع السكين. وأعجب ما يُذكَر عنه في هذا الباب مواطأته ليزيد قبل الخلع مع إظهار الإنكار عليه.

كتب إليه يزيد يستشيره فيما عزم عليه وسيّر بكتابه مولاه مسلم بن ذكوان[1]. ولما دخل على مروان سأله يتعرّف منزلته من يزيد، فقال: «أنت مولى تبّاعه أو مولى عتّاقه»؟ فقال مسلم: «بل مولى عتّاقه». قال: «ذاك أفضل وأدعى للثقة، اذكر ما أرسلك به مولاك، فقد طاب لي أن أسمعك». فقال مسلم: «إن رأى الأمير أن يجعل لي الأمان على ما أقوله، أُوافقه في ذلك أو أخالفه». فبذل له الأمان، فقام مسلم، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه، وذكر ما أكرم الله به بني مروان من الخلافة ورضا العامّة بهم. ثم تعرّض للوليد وأتى على حاله كلّها من نقض العُرَى وتغيير القلوب وإفساد نيّة العامّة إلى غير ذلك من حجج الخلع، ثم سكت. وتكلّم مروان فقال:

«سمعت ما قلت، قد أحسنت وأصبت، ولَنِعْمَ الرأي رأي يزيد، فأشهد الله أني قد بايعته، أبذل في هذا الأمر نفسي ومالي لا أريد بذلك إلاّ ما عند الله. والله ما أصبحت أستزيد الوليد، لقد وصل وفوّض وأشرك في ملكه. ولكنّي أشهد أنه لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم سأله عن حال يزيد فأكبره وعظّمه، فقال مروان: «نعم الفحل، إنه لفحل بني مروان». ثم صرف مسلماً إلى منزل أعدّه له،

---

(1) في الأصل: «سلم بن ذكوان» والتصحيح من الطبري، 5/581.

وبعد أيّام طلبه وقال له:

«اْلْحَقّ بصاحبك وقل له: يقول لك مروان سدّدك الله، اْمْضِ على أمر الله، فإنّك بعين الله».

وقال له: «إن قدرت يا مسلم أن تطوي أو تطير فافعل، فإنه يخرج بالجزيرة إلى ستّ ليالٍ أو سبع خارجة وأخاف أن يطول أمرهم فلا تقدر أن تجوز». فقال له مسلم: «وما علمُ الأمير بذلك»؟ فضحك مروان وقال: «ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات أنفسهم. وافقت الرجال على أهوائهم ودخلت معهم في آرائهم وضاممتهم في أحزابهم حتى بذلوا لي ما عندهم وأفضوا إليّ بذات أنفسهم».

فودّعه مسلم وخرج، فلما كان بآمد لقيته البُرُد تتبع بعضها بعضاً. وإذا عبد الملك ابنه قد وثب على عامل الجزيرة فأخرجه منها ونصب الأرصاد والعيون على الطريق[1].

ولما أتى مروان نبأ مقتل الوليد كتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد المخلوع يدعوه إلى المطالبة بدم أخيه وإظهار الخلاف ليزيد بن الوليد، وهذا نصّ كتابه إليه:

«أمّا بعد فإن هذه الخلافة من الله على مناهج نبوّة رسله وإقامة شرائع دينه، أكرمهم الله بما قلّدهم يُعِزُّهم ويُعِزّ من يُعِزّهم. والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم. فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقّها ناهضٌ بعد ناهضٍ بأنصارٍ لها من المسلمين.

---

(1) المصدر المذكور.

وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبّه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشدّه نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحقّ. فاستدرّت نعمة الله عليهم، قد عمر بهم الإسلام وكُبِت بهم الشرك وأهله. وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامَها، وإن كانت القلوب عنه متنافرة والمطلوبون بدم الخليفة ولاية من بني أميّة، فإن دمه غير ضائع. وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور، فأمرٌ أراده الله لا مردّ له.

قد كتبتُ بحالك فيما أبرموا وما ترى، فإني مُطْرِق إلى أن أرى غِيَراً فأسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المتبول وفرائضه المتروكة مجانة ومعي قوم أسكن الله طاعتي قلوبَهم أهل إقدام إلى ما قدمت بهم عليه ولهم نظراء صدورهم مُترعة ممتلئة لو يجدون مَنْزَعاً. وللنقمة دولة تأتي من الله ووقت موكّل.

ولم أشبّه محمّداً ولا مروان، غير أني رأيت غِيَراً لم أشمّر للقدريّة[1] إزاري وأضربهم بسيفي جارحاً وطاعناً يرمي قضاء الله

(1) القدريّة: ظهر هذا المذهب الديني الفلسفي الاجتماعي بدمشق أوائل المائة الثانية إثر تفشّي عقائد الجبر في المسلمين السالبة للاختيار، والتي كانت أساساً للتربية العسكرية في القرن الأوّل. ثم بدت منها أعراض قبيحة خارج مصافّ الجنود، أوهنت شأن الأمّة، وتعارضت مع مورد التكاليف الشرعية ومناط الثواب والعقاب، فأوجب المشفقون الانصراف عنها إلى ما ينهض بالإرادة والفكر إلى المستوى اللائق بعزائم ونهضة المسلمين. فوضع فريق من أهل النظر والعلم مبدأً تعليميّاً آخذاً بمسالك القدر الذي لدينا في التعلّق الكبير بالمقدور. فلقي في أوّل الأمر الصدمة التي تعرض لكلّ رأي جديد في الكون من عبيد العادة ومقلّدي الإلف. واستمرّت الحرب سجالاً بين الفريقين إلى أن شكّل أصحاب الرأي الجديد حزباً دعوه حزب القدريّة. فلعب دوراً هائلاً في

في ذلك حيث أخذ أو يرمي في عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه.

وما إطراقي إلاّ لما أنتظر ممّا يأتيني عنك فلا تهن عن ثأرك بأخيك، فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً»[1].

أمّا ما كان من أمر ظهور ابنه عبد الملك بالجزيرة فإنه لما عاد منصرفاً من غزوة الصائفة تلك السنة من بلاد الروم، أمره أن ينصرف إلى الجزيرة وكان عليها للوليد عبدة بن رباح الغسّاني، وقد انصرف إلى دمشق لمبايعة يزيد، فصار عبد الملك إلى حرّان وضبط مدائن الجزيرة وولاّها من قِبَله سليمان بن عبد الله بن علاثة وكتب بذاك إلى أبيه بأرمينية، وأشار عليه بتعجيل السير والقدوم. فتهيأ مروان للمسير وأظهر في عسكره أنه يريد المطالبة بدم الخليفة الشهيد المقتول..!.

فأحكم قبل سيره الأمور وسدّ الثغور وأقام الأجناد وبثّ العيون والأرصاد. واستعمل على أهل الباب إسحاق بن مسلم العقيلي وهو رأس القيسيّة، وثابت بن نعيم الجذامي[2] من أهل

شؤون السياسة الأمويّة وانضمّ إليهم عظماء الرجال ومنهم يزيد بن الوليد. وهو الذي أسقط الوليد ورشّح يزيداً للخلافة، ثم ذهب وبقيت الفكرة مذهباً علمياً يتدارسه المسلمون على توالي الدهور (تعليق المؤلف).

(1) الطبري، 5/580 ـ 581.

(2) كان من قوّاد أجناد اليمن الذين قدموا إفريقية مع حنظلة بن صفوان الكلبي [سنة 124هـ/ 742م]، وقد اختارهم هشام لمعاقبة البربر على قتلهم كلثوم بن عياض القيشري. فأفسد أمر الجند على حنظلة، فأمر هشام بسجنه ومكث في السجن حتى تشفّع فيه مروان وضمّه إلى قوّاده. وهو من أشدّ النّاقمين على المروانيّين (المؤلف).

فلسطين وهو رأس اليمانيّة وكان رضيًّا فيهم وكان وليّهم قبل ذلك فحمدوا ولايته.

ولما وصلت الأجناد إلى المدائن انقلب ثابت على مروان بن محمد وجحد الصنيعة فدسّ إلى من معه من جند الشام بالانخزال عن مروان والانضمام إليه ووعدهم أن يسرّحهم ويعود بهم إلى الشام، فانخزلوا عن عسكرهم مع من فرّ ليلاً وعسكروا على حِدَة. وبلغ مروان أمرهم فبات ليلته ومن معه في السلاح يتحارسون[1] حتى أصبح ثم خرج إليهم بمَنْ معه، ومَنْ مع ثابت يضعفون على من مع مروان. ولما تصافّوا للقتال أمر مروان منادين من قِبَله فنادوا بين الصفّين: «يا أهل الشام، ما دعاكم إلى الانعزال وما الذي نقمتم عليّ فيه من سَيْري؟ أَلم أَلِكُم ما تحبّون، وأُحْسِن السيرة فيكم والولاية عليكم. ما الذي دعاكم إلى سفك دمائكم؟». فأجابوه بصوت واحد: «كنّا نطيعك بطاعة خليفتنا، وقد قُتِل خليفتنا وبايع قومنا يزيد بن الوليد وخالفتَه أنت، ونحن لا نريد أن نقاتل قومنا على حقّهم، فرضينا بولاية ثابت ليسير بنا على ألويتنا حتى نُرَدّ إلى أجنادنا ونلتحق بأهلنا».

فأمر مناديه أن ينادي: «قد كذبتم والله فيما زعمتم، وليس تريدون ما قلتم. وإنما أردتم أن تركبوا رؤوسكم فتغصبوا من مررتم به من أهل الذمّة أموالهم وأطعمتهم وأعلافهم، وما بيني وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إليّ فأسير بكم حتى أوردكم الفرات، ثم أخلي عن كلّ قائد وجنده فتلحقون بأهلكم».

---

(1) في الأصل «يتمارسون على السلاح»، والتصحيح من الطبري، 5/594.

فلما أدركوا منه الجدّ انقادوا إليه ومالوا له وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده فحبسهم بعد تجريدهم وقبض على رؤساء العصاة من الجنود وسار بهم إلى الجزيرة فلم يقدر واحد منهم على أن يشذّ ولا يظلم أحداً من أهل القرى ولا يرزأه شيئاً إلا بثمن حتى ورد حرّان. ثم صرفهم إلى منازلهم كما وعدهم وأبقى ثابتاً ومن معه محبوسين.

وحين استقرّ بالمدينة دعا أهل الجزيرة إلى الفرض. ففرض لنيف وعشرين ألفاً من أهل الجلد منهم، وتهيّأ للمسير إلى يزيد.

فلما بلغ يزيد مسير مروان إليه أسرع بكتاب إليه يدعوه إلى البيعة والطاعة ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان أولى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان. فسكنت نفس مروان لذلك وأقلع عما كان عليه وبايع يزيداً. وأوفد إليه بالبيعة محمد بن عبد الله بن علاثة ونفراً من وجوه الجزيرة، ولكن المنون عاجلت يزيداً قبل وصول البيعة، وبقي مروان ليس في عنقه بيعة لأحد[1].

[وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك]:

مات يزيد رحمه الله في ذي الحجّة سنة 126 [سبتمبر 744] بعد انقضاء العيد ولم يمكث في الخلافة إلا خمسة أشهر وأيّاماً. فكانت وفاته أفدح رزء على الدولة الأمويّة حيث كانت في إبان الفتوق والأحداث بعد أن تمكن ببصيرته من تلافيها واستمال الناقمين وحوّل الغضب العام إلى القناعة والرضا بعد النفور. ولو

---

(1) المصدر المذكور، 5/ 595.

أفسح الله في أيّامه لأعاد الدولة إلى أحسن ما كانت عليه بأَعْصُر شبابها على عهد عمَّيْه الوليد وسليمان ولقطع عنهما أسباب الخلاف والفتن والثورات فيدوم بذلك حكم الأمويّين إلى ما شاء الله وينجزون برنامجهم السياسي العسكري القاضي باختراق أوروبا وربط المواصلات بين الأندلس والقسطنطينية وصيرورة البحر المتوسط بحيرة إسلامية. ولكن لَحَا[1] الله المنون ما أشدّ ضراوتها على النابغين في الإسلام! وما أنكر فتكها فيهم في جميع الأعصار التي يُحتاج فيها إليهم!.

وكان يزيد يرشّح للولاية من بعده أخاه إبراهيم[2]، وقيل إنه أعهد إليه فبايعه فريق وأمسك عنه فريق. ومكث الأمر مضطرباً مدّة أربعة أشهر لم يتمّ له فيها أمر حتى تصدّع الجمع ووهى الأمر وأقبل مروان بن محمد [الجعدي] من الجزيرة فخلعه (أي إبراهيم) وانتصب مكانه على عرش بني مروان.

عودة الفتوق إلى الخلافة:

بلغ مروان بن محمد نبأ وفاة يزيد بن الوليد فأرسل خلف بن علاثة وأصحابه الذين أوفدهم للبيعة فردّهم من منبج[3] وخلف ابنه عبد الملك على الرقّة في أربعين ألفاً وشخص بجنده إلى دمشق. فلما انتهى إلى قنسرين، وعليها بشر بن الوليد أخو يزيد، خرج إليه في حامية المدينة. فلما التقيا خذل بشراً يزيد بن عمر بن

---

(1) لَحَا = ذمّ وطعن.

(2) تولّى إبراهيم الخلافة بعد أخيه يزيد. فلم تطل مدّته حتى خُلع في محرم 127/أكتوبر 744.

(3) في الأصل «حنيج»، والتصحيح من الطبري، 5/597.

هبيرة، وكانت قيادة الحامية إليه، فمال بها إلى مروان. وأسلم بشراً وأخاه مسروراً ابنيْ الوليد فقبض عليهما مروان وسار فيمن معه وضامّه من حامية قنسرين إلى حمص. وكان أهلها امتنعوا بعد موت يزيد عن البيعة لإبراهيم فيمن امتنع عليه، فساق إليهم إبراهيم عبد العزيز بن الحجّاج في جند دمشق فحاصرهم، ولما بلغه مسير مروان إليه أقلع عنهم، فخرج الحمصيون إلى مروان فبايعوه. فبعث إليه إبراهيم بن الوليد سليمان بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألف فارس، وكان مروان في نحو ثمانين ألف. ولما تصافّوا دعا مروان ابن عمّه سليمان إلى كفّ القتال وحقن الدماء والتخلية عن ابنيّ الوليد الحكم وعثمان، وهما في سجن دمشق وضمن له أن لا يؤاخذا أحداً بقتل أبيهما، فأبى عليه ذاك وجدّ في منازلته، فاستمرّ بينهما القتال وكثر الفناء في الجيشين. وكان مروان مجرّباً مكايداً، فدعا ثلاثة من أمهر قوّاده فأمرهم بالمسير خلف صفّه في ثلاثة آلاف من خيله ووجّه معهم فريق الفَعَلة معهم الفؤوس وآلات الدّمار، وقد تعبّأ الصفّات من جنده وجند سليمان بن هشام ما بين الجبلين المحيطين بالمرج. وكان بين العسكرين نهر جرّار وأمرهم إذا انتهوا إلى الجبل أن يقطعوا الشجر فيعقدوا جسوراً إلى عسكر سليمان ويغيرون عليه من خلف. فلم تشعر خيول سليمان وهم مشغولون بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة في عسكرهم من خلفهم. فلما رأوا ذلك سقط في أيديهم وانكسروا فكانت الهزيمة واستبيح عسكرهم فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين الحكم وعثمان وخلّى عن الباقين من العساكر بعد أن قوّاهم بدينار

دينار[1]. ومضى سليمان ومن معه من قوّاد الفلّ منهزمين إلى دمشق. فأسرع إبراهيم إلى عقد اجتماع حضره كافة رؤوس الدولة وقوّاد الأجناد وآل مروان. وهو ما يعبّر عنه في اصطلاحنا العصري بمجلس التاج الذي يلتئم في الظروف الحرجة. وهاك أسماء بعض من حضره: إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك، هؤلاء من بيت الملك. ومن الوزراء ورؤساء الدولة: يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة السكسكي والأصبغ بن ذُؤَالة الكلبي ونظراؤهم. وتداولوا في مآل الخلافة بعد أن قرّروا أن لا طاقة لهم بقتال مروان. ثم تشاوروا في أمر الغلامَيْن المحبوسَيْن ابنيْ الوليد. فقال يزيد بن خالد القسري إن بَقِيَا حيَّيْن حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويسير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً ممّن ألّب على أبيهما، والرأي قتلهما، فتقرّر قتلهما بالإجماع وأناطوا التنفيذ ليزيد. فأرسل يزيد القسري قائداً من طرفه في عدّة من الجند فقتل الغلامين.

ثم دهمت خيول مروان المدينة فتغيّب عنها إبراهيم بن الوليد وأنهب سليمان بن هشام ما كان في بيت المال من النقود، قسّمها فيمن بقي معه من الجنود وخرج من المدينة.

فثار بها موالي الوليد بن يزيد وهجموا على دار عبد العزيز بن الحجّاج فقتلوه. وفي تلك الساعة أقبل على المدينة مروان بن محمد ونزل بقصر الخلافة فأمر بإحضار أبي محمد

(1) في الأصل «بعدما أعطاهم ديناراً ديناراً»، والتصحيح من الطبري، 5/598.

السفياني، فأوتي به يحجلْ في قيوده، وكان محبوساً مع ولدَيْ الوليد، فأمر بفكّ قيوده، فقام وسلّم على مروان بالخلافة، وكان يسلّم عليه قبل ذلك بالإمرة. فقال: «مه يا أبا محمد»! فقال: «فداك عمّي وخالي يا أمير المؤمنين، إنهما جعلاها لك بعدهما ابسط يدك أبايعك. فبايعه وبايعه الحاضرون من أجناده بالخلافة.

وأمر بعد ذلك باجتماع أهل الشورى فأمرهم أن يختاروا ولاتهم، فاختاروا لدمشق زامل بن عمرو الجبراني، ولحمص عبد الله بن شجرة الكندي، وللأردن معاوية بن مروان، ولفلسطين ثابت بن نعيم الجذامي، وقد عفا عنه وأخذ عنه العهود والمواثيق. فأنفذ الأوامر بتعيينهم وبعثهم إلى ولاياتهم[1].

ولما استوت له الولايات الشاميّة عاد إلى مقرّه بحرّان ولم يستقرّ ثلاثة أشهر حتى نكث به أهل الشام.

ثورة الولايات الشاميّة:

كان المُوقِد لجذوة هذه الثورة الثائر المبير ثابت بن نعيم الجذامي والي فلسطين. فبمجرّد ما علم انقلاب مروان إلى الجزيرة دعا رؤساء الكارهين لحكم المروانيّين لموافقته على نكثه بيعة مروان واختيار من يرضونه، فلبّوه وانضمّوا إليه. ثم بعث نحو ألف فارس عليهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي وقوّاد آخرون إلى حمص فاحتلّوا المدينة ليلة عيد الفطر من سنة 127 [745م][2]، فأتى خبرهم مروان فجدّ في طلبهم وكان معه إبراهيم المخلوع.

(1) المصدر المذكور، 5/607.

(2) نفس المصدر، 5/608.

فانتهى إلى حمص ثالث يوم عيد الفطر فأحدق بالمدينة وكان جند الكلبيّين قد ردموا أبوابها من الداخل ووقف مروان حذاء باب من أبوابها وأشرف على جماعة من خلف السور، فناداهم مناديه: «ما دعاكم إلى النكث بعد عقد البيعة والطاعة»؟ فأجابوا: «إنّا لم نزل على بيعتنا» فقال لهم: «فإن كنتم على ما تذكرون فافتحوا الباب». فأسرعوا إليه وفتحوه. فاقتحمه عليهم ثلاثة آلاف من جند الناكثين، ولما كاثرتهم أجناد مروان انتهوا إلى باب تدمر، فخرجوا منه وكانت عليه روابط مروان فقاتلوهم عليه حتى هزموهم، واستنقذت المدينة.

وتابعهم أهل الغوطة إلى دمشق وثاروا بعاملهم زامل بن عمرو، وولّوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق وأهلها. فوجّه إليهم مروان من حمص عشرة آلاف عليهم أبو الورد وعمرو بن الوضّاح. فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم فانفرج أمامهم الثوّار وهزموهم وقتلوا منهم رجالاً كثيرين. وكان ممّن قُتِل يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة[1].

ورحل ثابت بن نعيم من دمشق في جند فلسطين حتى أتى مدينة طبريّة فحاصرها وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فقاتلوه أيّاماً. فبعث مروان إلى أبي الورد بمدّهم والشخوص بذاته إليهم. فلما بلغ الطبرّيين دُنُوَّه خرجوا على ثابت ومن معه، فاستباحوا عسكرهم وانصرف ثابت إلى فلسطين منهزماً، فجمع قومه وجنده. فلحقه أبو الورد فهزمه ثانية وأسر عدّة من بنيه

(1) المصدر المذكور.

ومضى في طلبه إلى أن ظفر به بعد شهرين فسيّره إلى مروان، فعاقبه عقاباً صارماً جزاءً عن سوء أعماله.

ولما خمدت الفتن بالشّام أقبل مروان من دير أيّوب إلى دمشق وأخذ البيعة لابنَيْه عبد الله وعبد الملك من بعده وزوّجهما ابنتَيْ هشام بن عبد الملك وجمع لذلك آل مروان ورؤوس مضر وأمراء العرب ومشاهير القوّاد، وبعد أن انفضّ موكب الاحتفال قطع على أهل الشام بعثاً وولّى على كلّ جند منهم قائداً وأمرهم أن يلحقوا بيزيد بن عمرو بن هبيرة، وكان قبل مسيره إلى الشام وجّهه في عشرين ألف من أهل قنسرين والجزيرة وأمره أن ينزل دورين إلى أن يصدر له الأوامر بالمسيرة إلى الجهة التي سيعيّنها.

ثم انصرف مروان من الشام على طريق البريّة حتى قدم الرّصافة مع آل بني مروان. فأقام بها يوماً ثم شخص إلى الرقّة، ثم زايلها إلى واسط، فنزل على شاطىء الفرات، فمكث به ثلاثة أيّام. ثم تحوّل إلى قرقيسيا حيث كان ينتظره ابن هبيرة ليقدّمه إلى محاربة ثوّار الحروريّة[1].

ثورة الحروريّة بالجزيرة والعراق[2]:

ظهر بعد مقتل الوليد حروري اسمه سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من سكّان الجزيرة فيهم الضحّاك بن قيس الشيباني. فاغتنم اشتغال مروان بفتوق الشام، فخرج بالمكان المعروف بكفَرْتوثاً، فخرج عليه بسطام البيهسي في مثل عدده من ربيعة،

---

(1) انظر الحلقة الأولى، ص 51 الهامش (3).

(2) الطبري، 5/611 وما بعدها.

وهو لئن كان على رأي سعيد في طلب الحرورية، لكنه فارق وتغيّر عليه. فقصد كلّ واحد منهما صاحبه، فلما تدانى العسكران وجّه سعيد بن بهدل قائداً من طرفه اسمه الخيبري، وكان فارساً معدوداً هزم جيشاً لمروان في بعض غاراته، في نحو مائة وخمسين فارساً، وأمره بمباغتة بسطام. فانتهى إلى عسكره وهم غارون، فأمر فرسانه أن يحلل كل واحد منهم رأسه بثوب أبيض ليعرف بعضهم بعضاً إذا حمى الوطيس. فبكّروا عساكر بسطام، فأصابوا منهم غرّة، فقتلوا بسطاماً وجميع من معه إلاّ أربعة عشر. فلحقوا بمروان فأثبتهم في روابطه وولّى عليهم رجلاً منهم يقال له مقاتل [ويكنّى أبا النعثل]، اصطناعاً للحرورية. ثم مضى سعيد بن بهدل بعد فوزه على خصمه نحو العراق، لما بلغه عنه من تشتيت الكلمة واختلال الأجناد وقتال بعضهم بعضاً، وقد كانت المضرية مع ابن الحرشي بالكوفة واليمانيّة مع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالحيرة، وهم يقتتلون بينهم بكرة وعشيّة. فأصيب سعيد بن بهدل بطاعون فمات واستخلف من بعده على زعامة الحزب الضحّاك. فأقام بشهرزور يدعو بقايا الصفرية والشراة حتى التقطهم من كلّ مكان وصار في أربعة آلاف وراءها قوّة كافية بطلب الحريّة ضدّ المغتّصبين.

لما هلك يزيد بن الوليد كان عامله على العراق عبد الله بن عمر، فانحطّ مروان من أرمينية حتى نزل الجزيرة وولّى العراق النّضر بن سعيد الحرشي. وكان من بعض قوّاد عبد الله بن عمر، فأغضبه ذلك فحاربه أربعة أشهر. ثم أمدّ مروان النضر [بقائد من أهل قنسرين يقال له] الغُزَيْل في ألف، فأقبل الضحّاك سنة 127

[745م] نحو الكوفة. فأرسل عبد الله بن عمر إلى النّضر: «هذا لا يريد أحداً غيري وغيرك. فهلمّ نجتمع عليه». فتعاقدا على ذلك وأقبل ابن عمر فنزل تلّ الفتح وأقبل الضحّاك ليعبر الفرات. فأرسل إليه ابن عمر جيشاً عليه[1] حمزة بن الأصبغ [بن ذؤالة] ليمنعه من العبور. فأشار عليه عبد الله بن العباس الكندي بتمكينه من العبور، وقال: «ذلك أهون علينا من طلبه في أكناف الجزيرة». فأرسل ابن عمر إلى حمزة يكفّه عن ذلك. فنزل ابن عمر الكوفة وكان يصلّي في مسجد الإمارة بأصحابه، والنضر يصلّي في ناحية أخرى بأصحابه لا يجامعان بعضهما حتى في الصلاة. غير أنهما قد تكافآ واجتمعا على قتال الضحّاك. وأقبل الضحّاك حين ارتدّ عنه حمزة حتى عبر الفرات يوم الأربعاء في رجب سنة 127 [إبريل 745]، فخفّ إليه جند أهل الشام من أصحاب ابن عمر والنّضر قبل أن ينزلوا، فأصابوا منهم أربعة عشر فارساً وثلاث عشرة امرأة. ثم نزل الضحّاك وضرب عسكره وعبر أصحابه وأراحوا. ثم تغادوا يوم الخميس فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكشفوا ابن عمر وجنوده، وقتلوا أخاه عاصماً وجعفر بن العباس الكندي، وكان على شرطة ابن عمر. فانهزم ابن عمر وغدا يوم السبت وجنده يتسلّلون إلى واسط. وكان ممّن لحق بواسط النضر بن سعيد وجميع الوجوه من القوّاد، وبقي ابن عمر في قلّة من جنوده. فقيل له: «علامَ تقيم وقد فرّ الناس عنك»؟ قال: «أتلوّم وأنظر». فأقام يومين لا يرى إلا هارباً قد ملئت قلوبهم رعباً من الحروريّة. فأمر عند ذلك بالرحيل إلى واسط. فنزل بها منزل

---

(1) في الأصل «عليه عليّ بن الأصبغ»، والتصحيح من الطبري، 5/612.

الحجّاج في اليمانيّة، ونزل النضر ومن معه من القوّاد والمضريّة ذات اليمين من طريق البصرة، وخلّوا الكوفة والحيرة للضحّاك فاستولى عليهما.

وعادت الحرب بين عبد الله بن عمر والنّضر إلى ما كانت عليه قبل قدوم الضحّاك. يطلب النضر إلى عبد الله أن يسلّم إليه ولاية العراق بكتاب مروان بن محمد والمضريّة تعضده ويأبى عبد الله ذلك واليمانيّة تنصره، والضحّاك يستولي على الكوفة في إثر خلافهما. فقد دخل الكوفة فعلاً في شعبان السنة واستعمل عليها ملحان الشيباني. ثم أقبل منقضاً في الحرورية إلى واسط متّبعاً لابن عمر والنّضر. فنزل باب المضمار، فلما رأى ذلك ابن عمر والنضر نكلا عن الحرب فيما بينهما وصارت يدهما عليه كما كانت بالكوفة. فجعل النضر وقوّاده يعبرون الجسر فيقاتلون الضحّاك وجنوده مع ابن عمر ثم يعودون إلى مضاربهم ولا يقيمون مع ابن عمر. فلم يزالوا على ذلك شعبان وشهر رمضان وشوّال، وقُتِل بشر كثير من الجندين وأبلى منصور بن جمهور في القتال مع ابن عمر بلاءً اعترف له به الشراة الذين كانوا مع الحرورية.

ثم بدا لمنصور أن يضامّهم، فقال لابن عمر: «ما رأيت في المحاربين مثل هؤلاء قطّ [يعني الشراة أي الخوارج]، فَلِمَ تحاربهم وتشغلهم عن حرب مروان؟ أعطهم الرضا واجعلهم بينكَ وبين مروان. فإنك إن منحتهم الرضا خلّوا عنّا ومضوا إلى مروان، فكان حدّهم وبأسهم عليه، وأقمت أنت مستريحاً بموضعك هذا. فإن ظفروا به كان ما أردت وكنت عندهم آمناً، وإن ظفر بهم وأردت خلافه وقتاله قاتلته جاماً مستريحاً وأرى أمرهم سيُعْيِيه

ويطول ويوسعونه شرّاً»[1].

فقال ابن عمر: «اتّئد يا منصور ولا تعجل حتى نتلوّم وننظر».

فقال: «تنظر في أيّ شيء؟ وأنت لا تستطيع أن تطلع معهم ولا تستقرّ، وإن خرجنا لم نقم لهم. فما انتظارنا بهم ومروان في راحة يهزأ بنا وقد كفيناه[2] حدّهم وبأسهم وشغلناهم عنه؟ أما أنا يا ابن عمر فخارج إليهم لاحق بهم».

فخرج ولحق بهم وبايعهم وقال الآن قد أسلمت. ثم لحق بهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في آخر شوّال السنة. فكان أوّل أمير من بيت الملك انضمّ إلى أعداء التّاج وأخصام الملك.

---

(1) المصدر المذكور، 5/616 ـ 617.

(2) في الأصل «كيّفناه»، والتصحيح من الطبري.

الحلقة الرّابعة

نكوث سليمان بن هشام عن بيعة مروان بن محمّد[1]:

بينما كانت فتنة الحروريّة تقذف براكينها في العراق، والحاكمية المروانية مشرفة على مصارع الهلاك، ومروان بن محمد لا يفتر لحظة واحدة عن رتق الفتوق وإزالة الأحداث وحشد الأجناد وعرض البعوث وتدريب المقاتلين للفتك بالضحّاك وجمع ما انتثر من عقد الخلافة، إذ بسليمان بن هشام يواثبه من خلف ليتنجز قضاء الله بالدولة.

قلنا إن مروان بن محمد لما توطّد له الملك بالشام وأقبلت عليه العصبيّة وزالت عنه الغوائل عاد إلى حرّان ومعه آل مروان، فسار منها إلى الرقّة لتوجيه ابن هبيرة إلى العراق لقطع أوصال الضحّاك. فلما بلغ الرصافة استأذنه سليمان في التخلّف بها أيّاماً لإصلاح أمره وإجماع ظهره، فأذن له ومضى مروان. فأقبل عليه نحو عشرة آلاف ممّن كان مروان قطع عليهم البعث ليغزو بهم مع قوّادهم العراق. فدعوه إلى خلع بيعة مروان ومحاربته. وقالوا له: «أنت أرضى منه في نظر رجال العصبيّة من أهل الشام وأولى منه

(1) الطبري، 5/617.

بالخلافة». فاستزلّه الغرور وزيّن له الطمع فأجابهم وخرج إليهم في إخوته وولده ومواليه فعسكر بهم ثم سار فيهم إلى قنسرين. فراسل بطاعته أهل الشام فانقضّوا إليه من كل وجه. وأقبل مروان بعد أن شارف قرقيسيا منصرفاً إلى سليمان.

وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالثبوت في معسكره من دورين ثم ارتحل إلى معسكره بواسط واجتمع من كان بالهنيّ من موالي سليمان وولد هشام. فدخلوا حصن الكامل بذراريهم فتحصّنوا فيه وأغلقوا الأبواب دونه. فأرسل إليهم: «ماذا صنعتم؟ خلعتم طاعتي ونقضتم بيعتي بعدما أعطيتموني العهود والمواثيق». فردّوا عليه: «إنّا مع سليمان على من خالفه». فردّ عليهم: «إني أحذّركم وأنذركم أن تتعرّضوا لأحد ممّن تبعني من جندي أو يناله منكم أذًى فتحلّوا بأنفسكم ولا أمان لكم عندي». فأرسلوا إليه: «إنّا سنكفّ». ومضى عنهم مروان. فجعلوا يخرجون من حصنهم فيغيرون على من اتّبعه من أخريات الناس وشذاذ الجند فيسلبونهم خيولهم وأسلحتهم. وبلغه ذلك فتحرّق عليهم غيظاً. واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من الشام والذكوانية وغيرهم، وعسكر في قرية لبني زفر يقال لها خساف من أعمال قنسرين. فلما دنا منه مروان تقدم له [معاوية] السكسكي في نحو سبعة آلاف، ووجّه مروان قائده عيسى بن مسلم في نحو ذلك، فالتقوا فيما بين العسكرين فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانتصر السكسكي على عيسى وأسره، فانهزمت مقدّمة مروان، فبلغه الخبر وهو في مسيره. فمضى وطوى على تعبئته ولم ينزل حتى انتهى إلى معسكر سليمان وقد تهيّأ له فلم يناظره حتى واقعه فانهزم

سليمان ومن معه واتّبعتهم خيول مروان تأخذهم قتلاً وأسراً حتى مزّقوهم[1].

ومضى سليمان مغلولاً حتى انتهى إلى حمص، فانضمّ إليه من أفلت ممّن كان معه، فعسكر بها[2]. فلما دنا منهم مروان اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: «حتى متى ننهزم من مروان؟ هلمّوا فلنتبايع[3] على الموت ولا نفترق بعد معاينته حتى نفنى عن آخر رجل منّا». فمضى على ذلك من فرسانهم من قد وطن [نفسه] على الموت نحو تسعمائة، وولّى سليمان على شطرهم معاوية السكسكي وعلى الشطر الثاني ثبيتاً البهراني، فتوجّهوا إليه مجتمعين على أن يبيتوه إن أصابوا منه غرّة. وبلغ مروان خبرهم وما كان من اتّفاقهم، فتحرّز وزحف إليهم في الخنادق على احتراس وتعبئة، فراموا تبييته فلم يقدروا فتهيّئوا له وكمنوا في زيتون ظهر على طريقه في قرية [تسمّى] تلّ منّس من جبال السّماق، فخرجوا عليه وهو يسير في تعبئة، فوضعوا السلاح فيمن معه. وانتبذ لهم ونادى خيوله فثابت إليه من المقدّمة والجناحين والساقة وقاتلوهم من لدن ارتفاع النهار إلى بعد العصر. والتقى السكسكي وفارس من [فرسان] بني سليم فاضطربا فصرعه السليمي عن فرسه [ونزل إليه] وأعانه عليه رجل من بني تميم فأتيا به (مروان) أسيراً. فقال: «الحمد لله الذي أمكن منك، فطالما بلغت منّا». فقال السكسكي: «استبقني إليك فإني فارس العرب».

---

(1) نفس المصدر، 5/618.

(2) أهمل المؤلّف بعض فقرات من رواية الطبري، 5/619.

(3) في الأصل «فلنتتابع»، والتصحيح من الطبري.

قال: «كذبت، الذي جاء بك أفرس منك»[1]. فأمر به فقُتِل في جملة من قُتِلوا ذلك اليوم لأنهم عُومِلوا معاملة الثوّار والمحاربين.

ولما أُخِذ السكسكي علم سليمان أنه لا طاقة له بعده بحرب مروان، فخلف أخاه سعيداً على حمص وانهزم إلى تدمر، فأقام بها. ونزل مروان على حمص فحاصرهم بها عشرة أشهر ونصب عليها نيفاً وثمانين منجنيقاً، وكان لا ينفكّ عن رجمها بالحجارة في اللّيل والنهار. وهم في ذلك يخرجون إليه كل يوم فيقاتلونه وربما بيتوا نواحي عسكره وأغاروا على الموضع الذي يطمعون في إصابة العورة والفرصة منه، (فلا ينالون منه لشدّة حذره وتيقّظه وتمرّنه على ممارسة الحروب)[2].

فلما تتابع عليهم البلاء ولزمهم الذلّ (ورأوا أنهم غير قادرين عليه)، سألوه أن يؤمّنهم ويمكّنوه من سعيد بن هشام [وابنيْه عثمان ومروان] وطائفة من قوّاده، فأجابهم إلى ذلك وقبله. وبعد أن استوثق من سعيد وابنَيْه سار متوجّهاً نحو الضحّاك، وقد سمّى المؤرّخون يوم الانتصار في هذه الواقعة بيوم خساف وألحقوه بالأيّام المشهورة [من أيّام العرب].

وحكى بعض المؤرخين[3] أنّ سليمان بن هشام بعد انهزامه من وقعة خساف أقبل هارباً حتى صار إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فخرج معه إلى الضحّاك فبايعه وسار تحت لوائه إلى قتال ابن عمّه مروان بن محمد وساعده بنفوذه وعلمه وتدابيره على

---

(1) المصدر المذكور، 5/619.

(2) (. . .) زيادة من المؤلف.

(3) الطبري، 5/620.

محو الملك الذي أقامه أسلافه، فارتكب بذلك زلّة غير قابلة للتكفير. ولو أتى مروان لوسعه عفوه وأحلّه من منازل كرامته ما لا تثريب فيه عليه.

[محاربة الحروريّة]:

عندما هدأت فتنة سليمان ووثق مروان من عود الناس إلى الطاعة انقلب إلى العراق لمعالجة فتنة الحروريّة. فاستعمل عليه يزيد بن عمر بن هبيرة وضمّ إليه أجناد الجزيرة. فلما بلغ ذلك عبد الله بن عمر أرسل إلى الضحّاك بخبره، فأقطع الضحاك كورة هيّان لعبد الله وأمره أن يتحوّل إليها ولا يفارقها، وقال له: «إنها تكفيكم حتى تنجلي هذه الغمرة وننظر ما يؤول إليه الحال». وارتحل الضحّاك بجموعه حتى لقي مروان بكَفَرْ تُوثا من أرض الجزيرة. ومضى النضر فنزل القادسيّة وبلغ نزوله عامل الضحّاك على الكوفة[1]، فخرج إليه في ثلّة من الحرورية فقتله النضر. فبلغ الضحّاك مقتل ملحان فاستعمل على الكوفة المثنّى بن عمران [من بني عائذة] ثم سار الضحّاك في ذي القعدة فأخذ الموصل. فكايده ابن هبيرة وانحطّ من نهر سعيد حتى نزل عين التمر، ففطن المثنّى [بن عمران العائذي] لهذه الحركةِ الفنيّة التي يقصد بها قطع الصلة بين جيوش الضحاك وفصله عن الكوفة. فسار إليه فيمن معه من الحرورية ومعه الداهية منصور بن جمهور، فالتقوا بعين التمر فاقتتلوا أيّاماً متوالية قتالاً شديداً حتى قُتِل المثنّى وغيره من رؤساء جند الضحّاك. فانهزمت الحروريّة وفرّ منصور بن جمهور

---

(1) وهو ملحان الشيباني، الطبري، 5/621.

ودخل الكوفة، فجمع مَن بها من اليمانية والحرورية والصفريّة ومَن تخلّف منهم عن الضحّاك ثم سار بهم حتى نزل الروحاء، فتلقّاهم ابن هبيرة حتى نزل الكوفة ونفى من كان بها من الخوارج[1]. وبلغ الضحّاك ما لقي أصحابه، فدعا عبيدة بن سوار التغلبي فوجّهه إليهم، وانحطّ ابن هبيرة إلى واسط، وكان عبد الله بن عمر في ناحية منها، فأقبل عبيدة بن سوار مغذاً في الخيل حتى نزل الصراة ولحق به منصور بن جمهور. وبلغ قدومهم ابن هبيرة فتلقّاهم بالصراة وواقعهم حتى كانت الهزيمة.

أما ما كان من أمر مروان[2] فإنه لما بلغه أن الضحّاك يروم الاستيلاء على الموصل وكُوَرِها لقطع المواصلات بين جيوشه، كتب إلى ابنه عبد الله [وهو خليفته بالجزيرة]، يأمره أن يسير في روابطه إلى مدينة نصيبين يشغل الضحّاك عن توسّط الجزيرة ويشغل الحروريّة عن إنجاد جيوشهم بالكوفة ويخلي الفضاء لعمليات ابن هبيرة. فشخص عبد الله إلى نصيبين فألفى الضحّاك مُحاصِراً لها، ومع الضحّاك مائة وعشرين ألف مقاتل، فأزاله عنها ومكثوا يتناوشون إلى أن وجّه الضحّاك مسلحة في خمسمائة[3] فارس إلى الرقّة. فلقيتم بها طلائع مروان فانقشعوا عنها منصرفين إلى معسكرهم، فتبعتهم الخيل فاستسقطوا من ساقتهم نيّفاً وثلاثين رجلاً، ثم تلاهم مروان بعامّة جنده صامداً إلى الضحّاك، فالتقيا بموقع [يقال له] الغزّ من أرض كَفَرْ تُوثا فتقاتلوا يومهم قتالاً

(1) في الأصل «الحروريّة»، والتصحيح من الطبري، المصدر المذكور.
(2) نفس المصدر، 6/15 وما بعدها.
(3) في الطبري، 6/16: «أربعة أو خمسة آلاف».

شديداً (لم يُعهَد له نظير في تاريخ الحروب الثوريّة، وذلك لتكافؤ الجيشين من جهة العدد والعدّة والمهارة الفنية ووجود قوّاد من الأمويّين في جيش الحروريّة)[1]. ولما جنّهم المساء انفصلوا عن القتال دون أن ينال أحدهما من الآخر غير ما وقع من القتلى بين الفريقين. وكان مَن أُصيب من جيش الضحّاك أضعاف ما أصاب جيش المروانيّين، بسبب تفوّق مروان في التدابير الحربية. فخاف الضحّاك الهزيمة فيما إذا تمادت الوقائع، فمال إلى الكياد والحيلة. فاختار تلك الليلة ستة آلاف من جنوده من المعروفين بالبسالة والثبات وكتم الأمر على عامّة قوّاده وجنده وسار بهم إلى معسكر مروان يبيته وكان غير خبير بدربة ويقظة مروان وحذره من مكائد الحروب. فلم يكد الضحّاك يتوسّط ساحة ما بين الجيشين حتى وقع في كمين أعدّه له مروان كأنه كان يقرأ صحيفة صدره وأحدقت بهم الجيوش من كلّ مكان. ولم تكن إلا ساعة حتى أبادوهم في الظلام ولم ينج منهم إلا القليل. ولم يعلم مروان ولا الحروريّة أن الضحّاك صُرِع مع المقتولين حين دارت الواقعة حتى افتقده قوّاده في وسط الليل وعاد المنهزمون وعزّوهم فيه وتعالى بينهم البكاء والنحيب. وأتت عيون مروان بالخبر، فأرسل طائفة من حرسه معهم الأضواء والشموع إلى موضع المعركة فقلبوا القتلى حتى استخرجوه فأتوا به مروان وفي وجهه وحده أكثر من عشرين ضربة بالسلاح. وفقدت الحروريّة بقتله أكبر بطل من أبطالها دون أن يفتّ فيهم. فلما أصبحوا بايعوا الخيبري وأسرعوا إلى القتال [وصافوه] وصافّهم وكان معه سليمان بن هشام. فأقامه

(1) (. . .) زيادة من المؤلّف.

في الميمنة من آل بيته ومواليه وكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، وتقدّم الخيبري في القلب في نحو أربعمائة فارس من أبطال الشراة [الخوارج]. فانهزم أمامه مروان فتبعه الخيبري حتى انتهى إلى مضاربه ودخل خيمته وجلس على سريره، وميمنة مروان ثابتة على حالها عليها ابنه عبد الله، وميسرته كذلك عليها إسحاق بن مسلم العقيلي. فلما رأى عبدان مروان أن الهزيمة ليست بكسره وأن الخيبري في قلّة طمعوا فيه فثاروا إليه بعُمَد الخيام فقتلوه وقتلوا جميع أصحابه. وبلغ الخبر مروان وكان جاز العسكر منهزماً بستة أميال[1]، فرجع إلى عسكره وردّ الخيل إلى مواقفها من القلب وبات ليلته (في أسعد حال وأهنأ بال)[2].

وقد كانت هذه الواقعة سبباً في تغيير قواعد الفنّ العسكري، فأُبْطِل قتال الصفوف وعُوِّض بقتال الكراديس في الحروب الإسلامية التي تلت هذه الواقعة.

حين علم الحروريّة قتل الخيبري انتخبوا لرئاستهم شيبان وبايعوه على القتال فعقد مجلساً دعا إليه أكابر القوّاد وأهل الرأي والنجدة للكلام والمشاورة في أمر الحرب، وكان ممّن حضر سليمان بن هشام. فتكلّموا في أمور كثيرة حتى انتقلوا إلى المداولة فيما يتعلّق بالتعبئة والهجوم. فتقدّم سليمان بن هشام، وكان محراباً خصيصاً بالفنون العسكريّة، فقال: «إن الذي أبديتموه من أمر القتال ليس برأي صحيح في قواعد الحروب، وليس في

(1) في الطبري، 6/ 17 والكامل، 5/ 350: «بخمسة أو ستة أميال».
(2) (. . .) زيادة من المؤلف.

الهجوم مع الاستقتال إلا فناء الجيش وغلبة العدوّ، إذا لم تكن التعبئة على نظام مطابق للفنّ. أراكم نظرتم فيما سلف من الوقائع عقم نتائج هذه الطريقة. فقد كنتم تهاجمون ثم تستقتلون فتُقتَلون بدون كبير فائدة حتى أفنيتم معظم الأبطال وأظهرتم عدوّكم عليكم».

فقال له شيبان: «ما الرأي إذن»؟.

قال سليمان: «الرأي أن ننصرف من هنا لأن موقعنا غير مساعد لنا كما هو مساعد للعدوّ وننزل الموصل فنجعلها ظهراً وملجأً وميرة ونتّخذ بها مكاناً حصيناً نخندق فيه ثم نسيّر إليهم، مسالحنا يقاتلونهم بالتعبئة والكراديس».

فنازعه ابن غوث من قوّاد الحرورية. فقال سليمان: «هو رأيي فإن أخذتم به انتصرتم وإلا فارقتكم وفزت بنفسي». فقبلوا رأيه وأمضوه وارتحلوا من مكانهم ليلاً. وأصبح مروان فأتبعهم، ليس يرحلون عن منزل إلا نزله حتى انتهوا إلى مدينة الموصل، فعسكروا على شرقي دجلة وخندقوا على أنفسهم وعقدوا جسوراً على النهر من معسكرهم إلى المدينة، فكانت ميرتهم ومرافقهم منها. وخندق مروان بإزائهم فأقام يقاتلهم ستة أشهر [بكرة وعشية]. ولولا تدابير سليمان لأبادهم في أيّام[1].

[قمع فتنة الحروريّة]:

ولمّا طالت المدّة على مروان وهو مقيم بالخنادق، أراد أن

---

(1) نقلاً عن الطبري، 6/18، بتصرّف.

يضرب محاربيه الضربة القاسية، فكتب إلى ابن هبيرة، بعد أن استخلص العراق، يأمره بتجهيز عامر بن ضبارة ومسيرة في الجند وَلْيَأْتِ من خلف الموصل، فوجّهه في ثمانية آلاف، وبلغ خبره شيبان، فبعث إليه أربعة آلاف يمنعونه من الدنوّ بقيادة ابن غوث والجون، فالتقوا بعامر بن ضبارة بالسنّ دون الموصل، فقاتلوه قتالاً شديداً، فهزمهم ابن ضبارة فارتدّ جلّهم إلى شيبان. فأشار عليه سليمان أن يسرع بالارتحال عن الموصل وأعلمه أنهم مأخوذون فنيّاً وأنهم إذا لم يركبوا ظهورهم أُخِذوا باليد، لأن ابن ضبارة صار من خلفهم ومروان من أمامهم، فارتحلوا من ساعتهم. فأخذوا على حلوان إلى الأهواز وفارس. وبعث مروان إلى ابن ضبارة ثلاثة من قوّاده في ثلاثين ألف، وهم مصعب بن الصحصح الأسدي وشقيق وعطيف، وأمره أن يتبعهم ولا يقلع عنهم حتى يبيدهم [ويستأصلهم]. فلم يزل يتبعهم حتى وردوا فارس وخرجوا منها وهو في ذلك يتسّقط من لحق بأخرياتهم فتفرّقوا على وجوههم. وسلك شيبان فيمن بقي معه من الحروريّة إلى ناحية البحرين فقُتِل بها. وركب سليمان فيمن معه من مواليه وآل بيته السفن إلى أرض السند، وانصرف مروان بعد قمعه لفتنة الحرورية إلى حرّان[1].

ظهور عبد الله بن معاوية الطالبي وتغلّبه على فارس[2]:

لم يكد مروان يفرغ من ترميم ما أنقض من فتنة الحرورية

---

(1) المصدر المذكور، 6/19 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، 5/599 باختصار، والكامل 5/324.

بالعراق ونار الدعوة العباسية تشتعل في خراسان حتى ثار عليه في فارس عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[1]. فإنه لما انهزم بالكوفة وكان مع الشراة في فتنة الحرورية، شخص إلى المدائن فأتاه بها قوم من أهل الكوفة فبايعوه. فخرج بهم الجبال فغلب عليها وعلى حُلوان وقومس وإصبهان والريّ، واتّخذ إصبهان داراً لملكه. ثم تحوّل عنها إلى اصطخر واستعمل أخاه الحسن على الجبال وأخاه يزيد على فارس، وأتاه بنو هاشم وغيرهم وجبى الخراج وبعث العمّال. فأرسل إليه ابن هبيرة نُبَاتة بن حنظلة الكلابي فاستأصل من لقيه ممّن كان يهوى هوى ابن معاوية بالأهواز ثم سرّح له جيشاً آخر بقيادة [عامر بن] ضبارة إلى اصطخر فكسّر أصحابه قنطرة الكوفة لمنع جواز الجند إلى اصطخر، فجدّدها ابن ضبارة وسار ابن معاوية في مسالحه إلى [مرو] الشاذان، فلقيه ابن معاوية فهزمه وأسر كثير من أصحابه فأرسلهم إلى ابن هبيرة. فقتل منهم حصين بن وعلة السّدُوسي وأطلق الباقين، وكانوا من نحو الألف، فقال له حصين لمّا قُدّم للقتل: «أقتلٌ من بين الأسرى»؟ قال: «نعم، ألست القائل: لو آمُرُ الشّمْسَ لَمْ تُشْرِقِ»؟ ومضى ابن معاوية من جهته إلى سجستان ثم إلى خراسان، ولم تقم له قائمة بعد[2].

---

(1) كان إظهار عبد الله بن معاوية الخلاف على عبد الله بن عمر في محرم سنة 127/أكتوبر 744، الطبري، المصدر المذكور.

(2) الطبري، 6/38 وما بعدها باختصار، والكامل، 5/370.

ظهور الحروريّة بمكّة وفتقهم في المدينة[1]:

لم يدر أهل مكّة في موسم حجّ سنة 129 [أغسطس 747] إلاّ وقد طلعت بعرفة أعلام سود في رؤوس الرماح في سبعمائة راجل عليهم أبو حمزة[2] قادمين من اليمن من قِبَل عبد الله بن يحيى صاحب حضرموت الملقّب بطالب الحقّ، محكماً ومظهراً الخلاف. ففزع الحجيج حين رأوهم وقالوا: «ما لكم وما حالكم»؟ فأخبروا بخلافهم لمروان وحكم آل مروان والتبرّيء منهم. فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان يومئذٍ عاملاً على مكّة لمروان، بالكفّ عن الشغب، فقالوا: «نحن بحجّنا أضنّ وبطاعتنا لربّنا أشحّ». فهادنهم إلى انقضاء الموسم، فوقفوا على حدة بعرفة. فلما كانوا بمنى قال بطانة عبد الواحد: «قد أخطأت فيهم، ولو حملت الحاجّ فيهم ما كانوا إلا أكلة رأس». فبعث إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان وعبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب[3]، في رجال من أمثالهم، فدخلوا عليه، فتقدّم إليه عبد الله بن الحسن ومحمد بن

---

(1) الطبري، 6/41 وما بعدها.

(2) هو المختار بن عوف الأزدي السليمي. كان أوّل أمره يوافي مكّة في كلّ سنة يدعو إلى خلاف مروان حتى وافى عبد الله بن يحيى سنة 128 [745م]، فقال له: «أسمعك تقول كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حقّ، فانطلق معي فإني رجل مُطاع في قومي». فخرج معه إلى حضرموت فبايعه على الخلافة، وخرج في السنة الموالية لحرب مروان (المؤلف).

(3) [وربيعة بن عبد الرحمان]، ساقطة من الأصل، الطبري، 6/41.

عبد الله، فنسبهما، فانتسبا له، فعبس في وجوههما وأظهر الكراهة لهما، ثم سأل عبد الرحمان وعبيد الله بن عمر، فانتسبا له، فهشّ إليهما وتبسّم في وجوههما. وقال: «والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أَبَوَيْكُما». فقال له عبد الله بن الحسن: «والله ما جئنا لتفضّل بين آبائنا، ولكنّنا بعثنا إليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يعلمك علمها. اقرأ يا ربيعة». فقرأ ما يتضمّن نقض العهد. فقال بلج وأبرهة، وكانا قائدَيْن لأبي حمزة: «الساعة! الساعة!». فأقبل عليهما أبو حمزة بوجهه فقال: «معاذ الله أن ننقض العهد أو نحبس. والله لا أفعل ولو قُطِعت رقبتي. ولكن تنقضي الهدنة ويفعل الله [بيننا وبينكم] ما يشاء».

ولما أبى أبو حمزة نقض العهد خرج المندوبون وأبلغوا عبد الواحد ما دار بينهم. فلما نفر الحجّاج من مكة نفر معهم عبد الواحد وخلّى مكة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال ولا حرب، ولحق عبد الواحد بالمدينة، فدعا بالديوان فضرب على الناس البعث[1] واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان. ثم ساروا حتى نزلوا قديد في محرم سنة 130 [سبتمبر 747] وهم مغترّون ليسوا بأصحاب حرب ولا قتال، فلم يرعهم إلا وقد ركبهم القوم وقتلوهم قتلاً ذريعاً. وزعم بعض المؤرخين أن خزاعة دلّت أبا حمزة على عورتهم وأدخلوا جنده عليهم فقتلوهم. وكانت المقتلة في مضر، إذ كانت لهم الدولة ولم يصيبوا غيرهم، ثم أعتقوا إلى المدينة.

---

(1) [وزادهم في العطاء عشرة عشرة]، ساقطة من الأصل.

وحكى الطبري[1] أنهم أتوا المدينة في أربعمائة فالتقوا بأهلها، وقد تهيّئوا لهم فأعذر لهم أبو حمزة وقال: «والله ما لنا والله حاجة بقتالكم، دعونا نمض إلى عدوّنا». فأبى أهل المدينة تركهم. فالتقوا يوم الخميس لسبع ليال خلون من صفر سنة 130، فلم يفلتوا ممّن صافّهم إلاّ الشريد، وقُتِل في الوقعة الأمير عبد العزيز بن عبد الله رحمه الله. ودخل الحروريّة المدينة.

(1) تاريخ الطبري، 6/57.

الحلقة الخامسة

مبادىء الحروريّة وتعاليمها[1]:

لمّا احتلّ أبو حمزة المدينة سنة 130/747م باسم الحروريّة انطلق إلى المسجد النبوي ورقى منبر الرسالة وقعد مقعد النبوءة وخطب الناس في الأمر الذي خرج يدعوهم إليه. وحيث كان من المفيد أن يقف أحرار عصرنا على رأي وأفكار أحرار الصّدر الأوّل من الإسلام في الحرية والأنظمة التي يطلبونها باسم الثورة، رأينا من الواجب نقل بعض خطبه برمّتها لتكون نموذجاً صالحاً من تاريخ فقه الفكر والانقلابات السياسية التي انفتقت عنها عقول المسلمين.

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه:

«أتعلمون يا أهل المدينة إنّنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشَراً ولا بَطَراً ولا عبثاً ولا لهواً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منّا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحقّ قد عُطِّلت وعُنِّف القائل بالحقّ وقُتِل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمان وحكم القرآن،

---

(1) الطبري 6/56 وما بعدها، والكامل 5/389 وما بعدها.

فأجبنا داعي الله ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾[1]. فأقبلنا من قبائل شتّى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيّدنا بنصره فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً.

ثم لقينا رجالكم بقُدَيْد فَدَعَوْنَاهم إلى طاعة الرحمان وحكم القرآن، فَدَعُونَا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان. فشتّان لعمر الله ما بين الغيّ والرشد. ثم أقبلوا يهرعون يزفون وقد ضرب فيهم الشيطان بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنّه. وأقبل أنصار الله عزّ وجلّ عصائب وكتائب بكل مهنّد ذي رَوْنق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب به المُبْطِلُون.

يا أهل المدينة، إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عزّ وجلّ بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[2]. يا أهل المدينة أوّلكم خَيْرُ أوّل وآخركم شرّ آخر! يا أهل المدينة، الناس منّا ونحن منهم إلا مشركاً عابد وثن، أو مشركاً من أهل الكتاب أو إماماً جائراً. يا أهل المدينة، من زعم أن الله عزّ وجلّ كلّف نفساً فوق طاقتها أو سألها ما لم يُؤْتِها، فهو لله عدوّ ولنا حرب. يا أهل المدينة، مررت بكم في زمن الأحول (يعني هشام بن عبد الملك 724 ـ 743) وقد أصابتكم عاهة بثماركم وكتبتم إليه تسألونه أن يضع عنكم خراجكم[3]. فكتب

(1) سورة الأحقاف، الآية 32.
(2) سورة التوبة، الآية 14.
(3) في الأصل «أخراصكم» نقلاً عن الطبري، 6/58، والتصحيح من الكامل، 5/389.

إليكم يضعها عنكم، فزاد الغنيّ غنًى وزاد الفقير فقراً، فقلتم له: جزاك الله خيراً، فلا جزاكم الله خيراً ولا جزاه خيراً! يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم[1] فرضها الله عزّ وجلّ في كتابه على القويّ والضعيف، فجاء تاسع ليس له فيها ولا سهم واحد، فأخذها جميعاً لنفسه مكابراً محارباً ربّه. ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله» (انتهى)[2].

وحكى علقمة قال: سمعت أبا حمزة يخطب مرّة على منبر رسول الله ﷺ وهو يقول:

«برح الخفاء أين ما بك يذهب؟ مَنْ زنى فهو كافر، ومن شكّ فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شكّ أنه كافر فهو كافر»[3].

وروى هارون عن جدّه قال: سمعت أبا حمزة يخطب بالمدينة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا أهل المدينة، ما لي رأيت رسم الدين فيكم باقياً وآثاره دارسة لا تقبلون عليه عظة ولا تفقهون من أهله حجّة، قد بَلِيَتْ فيكم جدّته وانطمست عنكم سنّته، ترون معروفه منكراً والمنكر من غيره معروفاً. وإذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النّذر

---

(1) أطلق أبو حمزة لفظة أسهم على المصارف الثمانية الواردة بنصّ الكتاب في آية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ للفقراء * والمساكين * والعاملين عليها * والمؤلّفة قلوبهم * وفي الرقاب * والغارمين * وفي سبيل الله * وابن السبيل * فريضة من الله﴾. [سورة التوبة، الآية 60] (تعليق المؤلف).

(2) الكامل، 5/389 ـ 390.

(3) الطبري، 6/59.

عميت عنها أبصاركم وصمّت عنها أسماعكم ساهين في غمرة، لاهين في غفلة. تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر وتنقبض عن الحقّ إذا ذُكِر، مستوحشة من العلم مستأنسة بالجهل، كلّما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحقّ نفوراً، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة. أو لم تلن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مِتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1]، الحجّة عليكم.

يا أهل المدينة، ما تغني عنكم صحّة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم؟ إن الله قد جعل لكلّ شيء غالباً يُقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبة على الأبدان. فإذا مالت القلوب ميلاً كانت الأبدان لها تبعاً، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحّتها ولا يصحّحها إلا المعرفة بالله وقوّة النيّة ونفاذ البصيرة. ولو استشعر تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم.

يا أهل المدينة، داركم دار للهجرة ومثوى رسول الله ﷺ لمّا نَبَت به داره وضاق به قراره وأذاه الأعداء وتجهّمت له، فنقله الله إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم متوازين مع الحقّ على الباطل ومختارين للآجل على العاجل، يصبرون للضرّاء رجاء ثوابها. فنصروا الله وجاهدوا في سبيله وآووا رسول الله ﷺ ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة. قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم. ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

---

(1) سورة الحشر، الآية 21، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنُ على جَبَلَ لَرَأَيْتَهَ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً من خشية الله﴾.

المُفْلِحُون﴾[1]. وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنّتهم. عُمْيُ القلوب، صُمُّ الآذان، اتّبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا ولا تعظكم فتعتبروا ولا توقظكم فتستيقظوا، لَبِئْسَ الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم ما سرتم بسيرتهم ولا حفظتم وصيّتهم ولا احتذيتم مثالهم. لو شُقَّت عليهم قبورهم فعُرِضَت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم».

[نماذج أخرى من خُطب أبي حمزة]:

وفي رواية ابن فضالة النحوي أنّ أبا حمزة خطب مرّة أخرى لمّا بلغه أن أهل المدينة ينتقصون رجاله لحداثة أسنانهم فقال:

«يا أهل المدينة، قد بلغتني مقالتكم في أصحابي ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلّة عقولكم لأحسنت آدابكم.

وَيْحَكُمْ إنّ رسول الله ﷺ أُنزِل عليه الكتاب وبُيِّن له فيه السُّنَن وشُرِع له فيه الشرائع وبُيِّن له فيه ما يأتي ويذر، فلم يكن يتقدّم إلا بأمر الله ولا يحجم إلا عن أمر الله حتى قبضه الله إليه ﷺ، وقد أدّى الذي عليه، لم يدعكم من أمركم في شبهة.

ثم قام من بعده أبو بكر [632 ـ 634]. فأخذ بسنّته وقاتل أهل الرّدة وشمّر في أمر الله حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون، رحمة الله عليه ومغفرته.

(1) سورة الحشر، الآية 9.

ثم ولي بعده عمر [634 ـ 644]. فأخذ بسنّة صاحبَيْه وجنّد الأجناد ومصّر الأمصار وجبى الفيء، فقسمه بين أهله وشمّر عن ساقه وحسر عن ذراعه وضرب في الخمر ثمانين وقام في شهر رمضان وغزا العدوّ في بلادهم وفتح المدائن والحصون حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته.

ثم ولي من بعده عثمان بن عفّان [644 ـ 656]. فعمل في ستّ سنين بسنّة صاحبَيْه، ثم أحدث أحداثاً أبطل آخر منها أوّلا، واضطرب حبل الدين بعدها، فطلبها كل امرىء لنفسه وأسرّ كلّ رجل منهم سريرة أبداها الله عنه حتى مضوا على ذلك.

ثم ولي علي بن أبي طالب [656 ـ 661]. فلم يبلغ من الحقّ قصداً ولم يرفع له ستاراً ومضى.

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان [661 ـ 680]. فسفك الدم الحرام واتخذ عباد الله خولاً ومال الله دُوَلا، وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله.

ثم ولي بعده يزيد [680 ـ 683]، يزيد الخمور... يزيد الصقور... يزيد الفهود... يزيد الصيود... يزيد القرود... فخالف القرآن واتّبع الكهّان ونادم القردة وعمل بما يشتهيه حتى مضى على ذلك.

ثم ولي مروان بن الحَكَم [684 ـ 685][1] طريد

(1) تولّى قبل مروان بن الحكم معاوية بن يزيد الأوّل، ولكنه لم يبق في الحكم سوى أربعين يوماً.

رسول الله ﷺ عبد بطنه وفرجه. تداولها بنوه بعده وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان. فأكلوا مال الله أكلاً ولعبوا بدين الله لعباً واتّخذوا عباد الله عبيداً، ويورث ذلك الأكبر منهم الأصغر. فيا لَها أمّة ما أَضْيَعَها وأَضْعَفَها! والحمد لله ربّ العالمين. ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى قد نبذوه وراء ظهورهم. وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز [717 ـ 720] فبلغ ولم يكد وعجز عن الذي أظهر حتى مضى لسبيله.

ثم ولي يزيد بن عبد الملك [720 ـ 724] غلام ضعيف، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشدّه ولم يؤانس رشده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾(1). فأمر أمّة محمّد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم من ذلك كلّه، وإن كان عند الله عظيماً. يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام. يلبس بردتَيْن قد حِيكَتا له وقُوِّمَتا على أهلها بألف دينار وأكثر وأقلّ، وقد أُخِذَت من غير حلّها وصُرِفَت في غير وجهها، بعد أن ضُرِبت فيها الأبشار وحُلِّقَت فيها الأشعار. واستحلّ ما لم يحلّ الله لعبدٍ صالح ولا لنبيٍّ مرسل. ثم وهو يُجلِس حبابة عن يمينه وسلاّمة عن شماله تغنّيانه بمزامير الشيطان ويشرب الخمر الصراح المحرّمة نصًّا بعينها، حتى إذا أخذت مأخذها فيه ومازجت روحه ولحمه ودمه وغلبت سورتها على عقله مزّق بردتَيْه ثم التفت إليهما فقال: «أتأذنان لي أن أطير»؟

---

(1) سورة النساء، الآية 6.

نعم! طر إلى النار، إلى لعنة الله حيث لا يردّك الله».

ثم ذكر من تلاه من بني أميّة وانتقد أعمالهم وسيرهم، فقال: «أصابوا إمرة ضائعة وقوماً طغاماً جهّالاً لا يقومون لله بحقّ ولا يفرّقون بين الضّلالة والهدى، ويرون أن بني أميّة أرباب لهم. فملكوا الأمر وتسلّطوا فيه تسلّط ربوبيّة بطشهم، بطش الجبابرة يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب ويأخذون بالظنّ ويعطّلون الحدود بالشفاعات ويؤمّنون الخَوَنة ويُقصون ذوي الأمانة ويأخذون الصدقة على غير فرضها ويضعونها في غير موضعها. فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله.

أمّا إخواننا من هذه الشيعة[1] فليسوا بإخواننا في الدين. لكن سمعت الله قال في كتابه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمح مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمح شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2]. شيعة ظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله، لا يرجعون إلى نظرٍ نافذ في القرآن، ولا عقلٍ بالغ في الفقه، ولا تفتيشٍ عن حقيقة الصواب. قد قلّدوا أمرهم أهواءهم وجعلوا دينهم عصبيّة لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم غيًّا كان أو رشداً أو ضلالة أو هدى. ينتظرون الدول في رجعة الموتى ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ويدّعون علم الغيب لمخلوق لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه أو يحويه جسمه. ينقمون المعاصي على أهلها ويعلمون إذا ظهروا بها ولا يعرفون المخرج منها. جُفَاة في الدين قليلة

---

(1) يقصد شيعة علي بن أبي طالب وذريّته.

(2) سورة الحجرات، الآية 13.

عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينهم وزعموا أن موالاتهم لهم تُغْنِيهم عن الأعمال الصالحة وتُنْجِيهم من عقاب الأعمال السيّئة، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

فأيّ هؤلاء الفرق تتّبعون؟ أو بأيّ مذاهبهم تقتدون؟ يا أهل المدينة، بلغتني مقالتكم في أصحابي وما عبتموه من حداثة أسنانهم. تقولون: شباب أحداث وأعراب حفاة!.

وَيْحَكُمْ! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلاّ شباباً أحداثاً وأعراباً حُفاة؟ هم والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، أنضاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن[2]. كلّما مرّ أحدهم بآية شوق من ذكر الله، شهق شوقاً إلى الجنّة. وكلّما مرّ بآية خوف، شهق خوفاً من عذاب الله، كان زفير جهنّم بين أذنيه. قد أكلت الأرض جباههم وركبهم ووصلوا كلال اللّيل بكلال النهار، مُصْفَرَّةٌ ألوانهم، ناحلةٌ أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، موفون بعهد الله، منتجزون لوعده، قد باعوا أنفساً تموت غدا بأنفس لا تموت أبداً. حتى إذا التقت الكتيبتان وأبرقت السيوف وفوّقت السهام وأشهرت الرماح ونزلت صواعق الموت، استخفّوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله، ولم يستخفّوا وعيد الله عنه وعيد الكتيبة. فلقوا نشب الأسنّة وشائك السهام وضبأة السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشابّ منهم حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه

---

(1) سورة التوبة، الآية 14.

(2) الطبري، 6/59، والكامل، 5/390.

بالدماء، وعفر جبينه بالثرى، وانحطّت الطير من السماء ومزّقته سباع الأرض. فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف اللّيل من خشية الله عزّ وجلّ. وكم من يد زالت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها في طاعة الله. وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فُلِق بعُمَد الحديد ابتغاءَ مرضاة الله. فطوبى لهم وحسن مآب. أقول قولي هذا واستغفر الله من تقصيرنا. وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أنيب» (انتهى).

[الصّراع بين الأمويّين والحروريّين][1]:

حكى الواقدي[2] أن الحروريّة حكموا المدينة ثلاثة أشهر، فأحسنوا السيرة. وروى أبو يحيى الزهري أن مروان بن محمد لما علم بخبرهم انتخب من عسكره أربعة آلاف استعمل عليهم قائده عبد الملك بن عطيّة السعدي وأمره أن يجدّ في السير لتخليص المدينة. وأعطى كلّ رجل منهم مائة دينار وفرساً لركوبه وبغلاً لأثقاله وأوصاه أن لا يقتصر على استنقاذ المدينة، بل يتبعهم إلى حضرموت ويقاتل عبد الله بن يحيى صاحب الحقّ، ويستأصل شافة مَنْ بها من الحرورية ويعيدها للأمويّين.

وذكر المدائني أن أبا حمزة لما بلغه مسير هذا الجيش لقتاله سيّر إليه بلج بن عقبة في ستمائة رجل. فلقيه بوادي القرى لأيّام خلت من جمادى الأولى سنة 130 [مارس 748]. فتواقفوا ودعاهم بلج إلى الكتاب والسنّة، وذكر بني أميّة وظلمهم. فشتمه

(1) الطبري، 6/60.
(2) الواقدي أحد المحدّثين، وُلِد بالمدينة المنوّرة سنة 130/747م وتوفّي في أواخر سنة 207/823م.

أهل الشام وقالوا: «أنتم أحقّ بهذا ممّن ذكرتم». فحمل عليهم بلج وأصحابه، فانكشفت طائفة من أهل الشام وثبت ابن عطيّة في الحفاظ وصاح فيهم: «ناضلوا عن دينكم وأميركم»! فكرّوا وصبروا صبراً حسناً وقاتلوا قتالاً شديداً. فقُتِل بلج وهلك أكثر جنده، وانحازت قطعة منه نحو المائة إلى مرتفع هناك اعتصموا به. فقاتلهم ابن عطيّة ثلاثة أيّام، فقُتِل منهم سبعون رجلاً ونجا ثلاثون. فرجعوا إلى أبـي حمزة مغتمّين. فأيقن أبو حمزة أن لا طاقة له بقتالهم، فدعا أهل المدينة وقال: «إنّا خارجون إلى قتال مروان. فإن أمكننا الله منه نعدل في أحكامكم ونحملكم على سُنَن نبيّكم ونقسم فيئكم بينكم، وإن يكن ما تتمنّون لنا ﴿فَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾[1].

ثم خرج إلى مكّة واستخلف على المدينة المفضّل. فخرج عليه عمر بن عبد الرحمان بن أُسَيْد ودعا الناس إلى قتال الحروريّة. فلبّاه الناس وأشاعوا القتل فيهم، فقُتِل المفضّل وعامّة أصحابه، وهرب الباقون، فلم يبق بالمدينة منهم أحد، فدخلها ابن عطيّة في يوم مشهود، وتلقّاه أهل المدينة بقضّهم وقضيضهم، وأقام بها شهراً ثم تحوّل إلى مكّة لمناجزة أبـي حمزة.

[القضاء على الحروريّة في المشرق]:

ولما بلغ أبا حمزة مقدم ابن عطيّة ومهلك أصحابه بالمدينة هاله الأمر. فقال له علي بن حصين العنبري، وكان من خاصّته: «كنت أشرت عليك يوم قُدَيْد وقبله بقتل الأسرى كلّهم، فلم

(1) سورة الشعراء، الآية 227 ﴿وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا...﴾.

تفعل، وعرّفتك أنهم سيغدرون بنا، فلم تقبل حتى قتلوا المفضّل عاملك وغيره من أصحابنا المقيمين بالمدينة. وأنا أشير عليك اليوم أن تضع السيف في أهل مكّة فإنهم فجرة، ولو قدم ابن عطيّة لكانوا أشدّ عليك منه».

فقال أبو حمزة: «لا أرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة وأقرّوا بالحكم ووجب لهم حقّ الولاية».

- قال: «إنهم سيغدرون».
- قال أبو حمزة: «أبعدهم الله من نكث. ﴿ومَنْ نَكَثَ فَإِنّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ﴾[1].

ثم قدم عبد الملك بن عطية مكّة وجعل جنده فرقتين ولقي الحرورية من وجهين، صيّر فرقة بالأبطح وصار هو بالفرقة الأخرى بإزاء أبي حمزة. فصار أبو حمزة أسفل مكّة وصيّر قائده أبرهة بن الصباح بالأبطح في ثمانين فارساً. فقاتلهم أبرهة فانهزم جند الشام إلى عقبة منى، فوقفوا عليها، ثم كرّوا وقاتلهم حتى قُتِل عند بئر ميمون. وتفرّق الحروريّون، وتبعتهم أجناد الشام يقتلونهم حتى دخلوا المسجد. والتقى أبو حمزة وابن عطيّة بأسفل مكّة، فخرج المكيّون مع ابن عطيّة، وقُتِل أبو حمزة على فم الشعب، وتفرّق أصحابه. وأتى جدّ أبي حمزة إلى عبد الله بن يحيى بصنعاء، فأقبل في أصحابه يريد قتال ابن عطيّة ثأراً لأبي حمزة. وبلغ ابن عطيّة خبره، فشخص إليه، فالتقوا بكسة. فأثخن الجند الشامي القتل فيهم وتشاغلوا بالنهب. فركب عبد الله بن

(1) سورة الفتح الآية 10.

يحيى فكشفهم وقتل منهم نحو مائة فارس فيهم قائد يقال له يزيد بن حمل القشري. فأعاد ابن عطيّة الكرّة عليهم في أجمة، فترجّل له عبد الله بن يحيى في ألف فارس فقاتلوا حتى قُتلوا جميعاً عن آخرهم.

ولما وافت مروان أخبار الفتح كتب إلى ابن عطيّة يأمره بالمسير إلى صنعاء ليقاتل من بها من الحروريّين. فاستخلف ابنه محمد بن عبد الملك على مكّة وجعل على المدينة الوليد بن عروة بن عطيّة وتوجّه إلى صنعاء. فلما دنا منها هرب عامل عبد الله بن يحيى عنها، فأخذ أثقاله وتتبّع أصحابه في كلّ موضع. ثم خرج عليه يحيى بن كرب الحميري بساحل البحر، وانضمّت إليه شذاذ الحروريّة. فبعث إليه أبا أميّة الكندي في فريق الوضّاحية. فالتقوا بالساحل، فهربت الحروريّة إلى حضرموت، وبها عامل لعبد الله بن يحيى يقال له عبد الله بن معبد الجرمي. فسار في جيش كثير واستفحل أمره، وبلغ ابن عطيّة الخبر، فاستخلف ابن أخيه عبد الرحمان بن يزيد بن عطيّة على صنعاء وشخص إلى حضرموت. وبلغ عبد الله بن معبد مسير عبد الملك إليهم، فجمعوا الطعام وكلّ ما يحتاجون إليه في مدينة سنام وهي حصين حضرموت مخافة الحصار. ثم عزموا على لقاء ابن عطية في الفلاة، فخرجوا حتى نزلوا على أربع مراحل من حضرموت وأتاهم ابن عطيّة فقاتلهم يومه كلّه، فلما أمسى وقد بلغه ما جمعوا في سنام حدر عسكره في بطن حضرموت إلى سنام ليلاً، ثم أصبح فقاتلهم حتى انتصف النهار، ثم تحافزوا فلما أمسوا تبع عسكره وأصبح الحروريّون فلم يروا للقوم أثراً. فتبعوهم وقد سبقوهم إلى

الحصن فأخذوا جميع ما فيه وملكوه. ونصب ابن عطيّة عليهم المسالح وقطع عنهم المادّة والميرة حتى كاد يستأصلهم. ثم ورد على ابن عطيّة [كتاب] يأمره بالرجوع إلى مكّة. فصالح أهل حضرموت وردّ عليهم ما عرفوا من أموالهم. وكان ذلك آخر العهد بظهور حركات الحروريّة في المشرق.

الحلقة السادسة
إجمال الأحوال في خراسان

ثورة الكرماني:

هو جُدَيْع بن [علي بن] شبيب بن براري بن صنيم المَعْنّيّ، أصله من اليمن وأبوه من الأجناد. عُرِف بالكرماني لولادته بكَرمان وقد فُطِر على البسالة والمضاء، شأن الجندي الصميم، وهو شيخ خراسان ورأس اليمانيّة، وكانت له رئاسة الجيوش على عهد الولاة السابقين. ولمّا ولي نصر بن سيّار خراسان صرفه عنها فراراً من استبداده وصيّرها لحرب بن عامر بن أيثم[1] الواشجي فما زجرت، فنحّاه وأعاد الكرماني. فأتت المضريّة نصراً وقالوا: «إن الكرماني يفسد عليك ويتعصّب على الله بتفضّله على مضر ويقول إني أخدع بني مروان بالطاعة حتى تقلّدني السيوف فأطلب بثأر بني المهلّب».

- وقال عنه عصمة [بن عبد الله الأسدي]: «إن بقاءه في خراسان فتنة وأرى من السياسة أن يتجنّى عليه الأمير فاحشة ويظهر أنه مخالف ويضرب عنقه، ويتبع به سِباع بن النعمان الأزدي

(1) في الأصل بن أثيم، والتصحيح من الطبري.

والفَرَافِصَة بن ظهير البكري».
- فقال نصر: «ليس من السياسة ما تذكرون. ولكن لي أولاد ذكور وإناث، فأزوّج بنيّ من بناته وبنيه من بناتي وأحكم لحمته بآصرتي».
- وقال آخر: «إبْعَثْ إليه بمائة ألف درهم، فإنه بخيل ولا يعطي رجال عصبته شيئاً ويعلمون بها فينفرونه ويتفرّقون عنه».
- فقال رجل من مضر: «لا، هذا قوّة له».
- فقال نصر: «أحسن شيء تركه على حاله يَتَّقِينا ونَتَّقِيه».
- فقال أصرم بن قبيصة: «لو أن جديعاً لم يقدر على السلطان [والملك] إلاّ بالنصرانيّة واليهوديّة لتنصّر وتهوّد. وإنك لو أقلته لا يقيلك»(1).

وأخيراً أُقِرَّ رأي المضريّة على أن يرسل خلفه فيحبسه. فلم يَسَعْ نصراً إلاّ أن ينفّذ قرار المضريّة، فأمر عُبَيْد الله بن بسّام وكان على شرطته أن يدعوه، فلما حضر أمر بحبسه، فحُبِس لثلاثٍ بقين من شهر رمضان سنة 126 [يونيو 744]، وأولى رئاسة الجند جميل بن النّعمان. فكلّمت الأزد نصراً فيه فقال: «حلفت أن أحبسه ولا ينداه منّي سوء». فلبث في حبس القهندز تسعة وعشرين يوماً، وكانت الأزد أرادت تخليصه بالقوّة. فناشدهم الله أن لا يفعلوا وانصرف إلى محبسه. فاجتمع عقب منصرفه جماعة من وجوه الأزد، [وهم]: عبد الملك بن حرملة اليَحْمَدِي والمغيرة بن شعبة وعبد الجبّار بن شعيب بن عيّاد. وانضمّ إليهم عبد العزيز بن عباد بن جابر بن همام بن حنظلة اليحمدي في مائة ومحمد بن المثنّى وداود بن شعيب. فباتوا بنوش، فلما أصبحوا

(1) نقلاً عن الطبري بتصرّف، 5/585 وما بعدها.

أتوا حوزان وأحرقوا منزل عزّة أمّ ولد الأمير نصر بن سيّار وأقاموا ثلاثة أيام. فأقبل عليهم رجل من أهل نَسَف[1] فقال لجعفر غلام الكرماني: «ما تجعلون لي إن أخرجته»؟ قال: «لك ما سألت». فأتى مجرى الماء من القهندز فوسّعه وأتى ولد الكرماني وقال لهم: «اكتبوا إلى أبيكم يستعدّ الليلة للخروج». فكتبوا إليه وأدخلوا الكتب في الطعام. وبعد العشاء دخل الكرماني السرب فأخذوا بعضده فانطوت على بطنه حيّة فلم تضرّه. فقال بعض الأزد: «كانت الحيّة أزديّة». فانتهى إلى موضع ضيّق فسحبوه، فسُجِع منكبه وجنبه. فلما خرج ركب فرسه البشير[2] والقَيْدُ في رجلَيْه، فأتوا به قرية تسمّى غلطان فأُطلِق عنه، فتوافت إليه على مرج نوش ثلاثة آلاف من اليمانيّة ومعهم أهل السقادم، فسار بهم إلى حوازن. ولما بلغ نصر هرب الكرماني أصبح معسكراً بباب مرو الرُّوذ[3] فمكث [يوماً أو] يومين وتحوّل إلى القناطر [الخمس بباب مرو الروذ]، وخطب الناس فنال من الكرماني، فقال: «وُلِد بكرمان فكان كرمانيّاً، وسقط إلى هراة فكان هرويّاً، والساقط بين الفراشَيْن لا أصل ثابت ولا فرع نابت»[4]. ثم تعرّض للأزد فقال: «إن يستوثقوا فأذلّ قوم، وإن يخافوا فضفادع تدلّ بنقيقها»[5]. وكان

(1) في الأصل «نسا» والتصحيح من الطبري 5/587 والكامل، 5/305.
(2) في الأصل «ركب بغلته دوّامة».
(3) في الأصل «باب مرج».
(4) الطبري، 5/588.
(5) هكذا في الأصل، وفي الطبري والكامل:
«إن يستوثقوا فأذلّ قوم، وإن يأبوا فهم كما قال الأخطل [طويل]:
ظَلْمَـــاء لَيْـلٍ تَجَـاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ البَحْرِ

مع نصر جند كثير، فدخل الناس بينه وبين الكرماني، وسألوا نصراً أن يؤمّنه ولا يحبسه وتضمنه قومه أن لا يظهر عصياناً». فأمره أن يلزم بيته، ولما عُزِل منصور بن جمهور عن العراق، بلغ الكرماني أن نصراً نال منه. فغضب لابن عمّه، فألّب الرجال واتّخذ السلاح وأعلن الخلاف. فأرسل إليه نصر رئيس شرطته سلم بن أحوز، فلم يقبله. ثم عاد وبعث إليه عصمة بن عبد الله الأسدي، فقال له: «يا أبا علي إني أخاف عليك عاقبة ما شرعت فيه في دينك ودنياك، ونحن نعرض عليك خصالاً فانطَلِقْ إلى أميرك يعرضها عليك». فقال الكرماني: «إني أعلم أن نصراً لم يقل لك هذا، ولكنّك أردت أن تبلغه عنّي لتحظى لديه. والله لا تسمع منّي حرفاً بعد هذا حتى تنصرف إلى منزلك فيرسل من أحبّ غيرك». فرجع عصمة وقال: «ما رأيت علجاً أعدى لطوره من الكرماني. ولكن أعجب من يحيى بن حصين فإنه أشدّ تعظيماً له من أصحابه وهو صميم مضر».

فقال سلم بن أحوز: «أيها الأمير إني أخاف فساد هذا الثغر، [والناس] فأَرْسِلْ إليه قديد بن منيع». فقال نصر [لقديد]: «اِنْطَلِقْ إليه]. فأتاه فقال: «يا أبا علي لقد لججت وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الأعاجم وهم يتربّصون بنا». فقال الكرماني: «حسبك يا قديد إني لا أتّهمك، وقد جاء قبلك من لا أثق بنصر معه. وقد قال النبي ﷺ: البكري أخوك ولا تثق به». فقال قديد: «أمّا إذا وقع هذا بنفسك فَأَعْطِهِ رهناً». قال الكرماني: «مَنْ»؟ قال: «أَعْطِهِ ابنَيْك عليًّا وعثمان». ـ قال: «فمن يُعْطِنِي ولا خير فيه»؟ قال قديد: «يا أبا علي أنشدك الله أن

يكون هلاك العرب وزوال ملكهم على يدك»[1]. ثم انقلب إلى نصر.

فدعا نصر بعقيل بن معقل اللّيثي، فقال له: «ما أَخْوَفَنِي أن يحدث بلاءً بهذا الثغر! قُمْ كَلِّمْ ابن عمّك». فقال عقيل: «أنشدك الله أيها الأمير أن تشأم عشيرتك، إنّ مروان بالشام منهوك بقتال الخارجين عليه، والأزد أخفّاء في الفتنة ثُقَلاء عن الطاعة، وهم جيرانك وأنصارك». قال: «فما أصنع؟ إن علمت أمراً يصلح الناس، فدونك، فإن صاحبك اعتزم أن لا يثق بي».

فأتى عقيل الكرماني، فقال: «يا أبا علي أراك قد سَنَنْتَ سُنّة تطلب بعدك من الأمراء. إني أبصر أمراً أخاف أن تضلّ فيه العقول». قال الكرماني: «إنّ نصراً يريد أن آتيه ولا آمنه على نفسي. ونريد أن يعتزل ونعتزل ونختار رجلاً من بكر بن وائل نرضاه جميعاً يلي أمرنا حتى يأتي أمرٌ من الخليفة، وهو يأبى هذا». فقال: «يا أبا علي إني أخاف أن يهلك أهل هذا الثغر[2]، فَأْتِ أميرك وقل ما شئت فإنك تُجاب إليه ولا تُطمع سفهاء قومك فيما دخلوا فيه». فقال الكرماني: «إني لا أتّهمك في نصيحة ولا عقل، ولكنّي لا أثق بنصر، فليحمل من مال خراسان ما شاء ويذهب حيث أراد». ـ قال: «فهل لك في أمرٍ، يجمع الله بينكما تتزوّج إليه ويتزوّج إليك». ـ قال: «لا آمنه على حال، وقد جرّبته وبلوته». ـ قال: «ما بعد هذا خير وإني خائف عليك أن تهلك غداً

(1) هكذا في الأصل، وفي الطبري «أنشدك الله أن يكون خراب هذه البلدة على يديك» (5/590).

(2) في الأصل «أن يهلك العرب»، والتصحيح من الطبري.

بمضيعة». فقال الكرماني: «لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم». فقال له عقيل: «ترى أعود إليك»؟ قال: «لا، ولكن أَبْلِغْه عنّي وقل له لا آمن أن يحملك قومٌ على غير ما تريد، فتركب منّا ما لا بقيّة بعده. فإن شئت خرجتُ عنك لا عن هيبة لك، ولكن أكره أن أشأم أهل هذه البلدة وأسفك الدماء المحرّمة». ثم تهيّأ وخرج من يومه إلى جرجان.

رجوع الصفري المخطر الحارث بن سُرَيْح[1]:

لم يخلص نصر من جديع الكرماني حتى نزل به الثائر الحَرِد الحارث بن سريح قادماً من بلاد الترك إلى مروان بأمان يزيد بن الوليد. فبعث نصر بن سيّار خاصّة من رجاله لتلقّيه بكُشْمَاهِن[2]، عليهم سلم بن أحوز صاحب شرطته. وكان وصوله لثلاث بقين من جمادى الأخيرة 127 [مارس 745]. فقال له محمد بن الفضيل بن عطيّة العبسي مُحَيِّياً على لسان الأمير نصر: «الحمد لله الذي أقرّ عيننا بقدومك وردّك إلى فئة الإسلام وإلى الجماعة». فأجابه الحارث دون أن يفوته فهم المغزى من التحيّة الرسميّة: «يا بُنَيّ أما علمت أنّ الكثير إذا كانوا على معصية الله كانوا قليلاً، وأن القليل إذا كانوا على طاعة الله كانوا كثيراً. وما قرّت عيني منذ خرجت إلى يومي هذا، وما قرّة عيني إلا أن يُطاع الله»...

ولما دخل مرو قال: «اللهمّ إنّي لم أَنْوِ قطّ في شيء ممّا بيني وبينهم إلا الوفاء، فإن أرادوا الغدر فانْصُرْني عليهم». وتلقّاه

---

(1) الطبري، 5/605 وما بعدها والكامل 5/327 وما بعدها.

(2) هكذا في الأصل نقلاً عن الطبري، وفي الكامل «كشمهين».

نصر على الطريق إظهاراً للحفاوة به وأنزله بقصر بخاراخذاه وأجرى عليه نزلاً خمسين درهماً في كل يوم، فكان يقتصر على لون واحد. وأطلق له نصر من كان محبوساً عنده من أهله. وهم ولده محمد والألوف وأمّ بكر. فلما دخل عليه ابنه محمد قال: «اللهمّ اجعله بارّاً تقيّاً». وبعثت إليه المرزبانة [بنت قُدَيد] زوجة نصر بجرز سمّور لها[1] مع جاريتها، فقالت: «مولاتي قالت اقرئي ابن عمّي السلام وقولي له: اليوم بارد فاستدفئي بهذا الجرز، والحمد لله الذي أقدمك صالحاً». فقال للجارية: «أقرئي ابنت عمّي السلام وقولي لها: أهذا الجرز عاريّة أم هديّة»؟ فقالت الجارية: «بعثته لك مولاتي هديّة». فباعه بأربعة آلاف دينار وقسّمها في أصحابه. وبعث إليه نصر بفرش كثيرة وفرس من العتاق الجياد، فباع ذلك كلّه وقسّمه في أصحابه بالسويّة.

وكان يجلس على برذعة وتُثْنَى له وسادة غليظة. وعرض عليه نصر أن يوليه ويعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل وأرسل إليه: «إنّي لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذّات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء. وإنما أسأل كتاب الله عزّ وجلّ والعمل بالسنّة واستعمال أهل الخير والفضل، فإن فعلت ساعدتك على عدوّك. فقد خرجتُ من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور وأنت تريدني عليه»!.

وكتب الحارث للكرماني: «إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل الخير والفضل عضدته وقمت

---

(1) السمور حيوان يتّخذ من جلده فرو ثمين.

بأمر الله. وإن لم يفعل استعنت بأمر الله وأعنتك إن ضمنت لي ما أريد من القيام بالعدل والسنّة». وكان كلّما أقبل عليه بنو تميم دعاهم إلى نفسه حتى انضمّ إليه ثلاثة آلاف وبات يرقب الفرص للثورة على نصر. حتى كانت ولاية مروان بن محمد ونصبه لابن هبيرة على العراق، فزعم أنه لا يجيز له أمان يزيد، فجنح لإظهار العصيان. فبعث إليه نصر رجالاً من بطانته وهم: سلم بن أحوز وخالد بن هريم وقطن بن محمد وعبّاد بن الأبرد وحمّاد بن عامر، يردّونه ويعتبون عليه. فكلموه وقالوا: «ألم يصيّر الأمير نصر سلطانه وولايته في أيدي قومك؟ أَلَمْ يُخْرِجك من أرض الترك ومن حكم خاقان؟ وإنما أتى بك لئلا يجترىء عليك عدوّك، فخالفته وفارقت سلطان عشيرتك وقومك فأطمعت عدوّهم. فنذكّرك الله أن تفرّق جماعتنا». فأغلظ عليهم ولم يجبهم بما أرادوا. وخرج بمن معه إلى حائط لحمزة بن أبي صالح السلمي بإزاء قصر بخاراخذاه فعسكر هناك. وكتب إلى نصر: «اِجْعَل الأمر شورى». فأبى نصر، فخرج الحارث. فلما كان يوم الجمعة ذهب للقتال وأمر جموعه بهدم المنازل التي كانت حول معسكره ليتّسع لهم المجال.

فالتفت يومئذٍ نصر إلى الكرماني وبعث إليه كاتم أسراره محمد بن قطن: «إنك لست مثل هذا الدبوسي الثائر، فاتّق الله ولا تشرع في الفتنة». فأعرض عنه ولم يجبه وأقبل منجداً إلى الحارث.

فوجّه نصر ابنه تميماً في مسلحة من شاكريته لحفظ الأمن، فرماهم جند الكرماني من السطوح ونذروا بهم، فدارت بسبب ذلك الحرب.

حرب الثوّار بمرو:

دارت رحى حرب الثورة المهولة حول أسوار مَرْو[1] بين جموع الحارث والكرماني من جهة وجنود الإمارة من جهة أخرى. فرمت الجموع سرادق نصر بعرّادة إيذاناً بإعلان الحرب، فأصابت السرادق دون أن يتحوّل عنه نصر. فنهد إليهم سلم بن أحوز في الجنود، فقاتلهم ثلاثة أيام متوالية[2]، فكان الظفر في آخر اليوم الثالث لجند الإمارة. فلما رأى الكرماني ذلك مال إلى الكيد، فأمر مناديه أن ينادي في أواسط العساكر: «يا معشر ربيعة واليمن دخل الحارث بن سريح المدينة وقتل ابن الأقطع ـ يعني نصر ـ في أعضاد المضريّة وأنزل فيهم الفشل». ولما أثّرت هذه الفرية تقدّم الكرماني فيمن معه وهجم على موقع كارابكل واخترق الجنود حتى خرج على الرزيق وثبت له تميم بن نصر على القناطر حتى أصيب ببضع عشر طعنة وآل الأمر في النهاية إلى هزيمة الجنود. . .

ولما انهزمت المضريّة بكيد اليمانيّة أرسل الحارث بن سريح إلى نصر: «إنّ اليمانية يعيرونني بانهزامك وإني كافٍ لك، فدونك وإيّاهم، وحوّل حُمَاتك إلى الكرماني». فبعث إليه نصر يستوثق منه بما عرض من الكفّ. وكان السبب الحقيقي في كفّ الحارث أن قوّاد نصر الذين ضاموه نقموا عليه عونه الكرماني وقتاله نصراً مع اليمانيّة. وكان نصر يقول قبل ذلك: «لا تجتمع لي مُضر ما

---

(1) مَرْو، قاعدة خراسان وأشهر مدنها كانت تُعْرَف باسم «مرو الشاهجان»، ياقوت، معجم البلدان.

(2) الطبري، 6/8.

كان الحارث والكرماني لا يتّفقان على أمر. فالرأي مطاولتهما فانّهما ما اتّفقا يختلفان». ومضى نصر إلى خرق فأقام بها أربعة أيّام وأوصى نساءه فقال: «إن قُتِلت فإن الحارث سيخلفني فيكنّ ويحميكنّ». فلما دنا من نَيْسابور[1] خرج إليه وجوهها وقالوا: «ما أقدمك علينا وقد أظهرت من أمر العصبيّة ما أطفأه الله»؟ فأخرج إليهم سلم بن أحوز يكلّمهم، فتراجعوا إلى أنفسهم وتلقّوا نصراً بالمواكب وقدّموا له الجواري والهدايا. ثم صار إلى أبرشهر، فقدم عليه بها من مكّة عبد الحكيم بن سعيد العَوْذي في جماعة من ذوات مضر. فقال له نصر: «أما ترى ما صنع سفهاء قومك»؟ فقال عبد الحكيم وكان حكيماً: «بل سفهاء قومك طالت ولايتها في ولايتك وصيّرت الولاية لقومك دون ربيعة واليمن فبَطِروا. وفي ربيعة واليمن علماء وسفهاء، وبتعصّبك غلب السفهاءُ العلماء». فقال له عبّاد: «أتستقبل الأمير بهذا الكلام»؟ قال نصر: «دَعْه فلقد صدق». فتقدّم إليه أبو جعفر عيسى بن جزر[2] وكان من أهل قرية على نهر مرو فقال: «أيها الأمير، حسبك من هذه الأمور والولاية. فقد أطلّ عليك أمر عظيم، سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد[3] ويدعو إلى دولة تكون فيغلب على الأمر وأنتم تضطربون وتنظرون»!.

فقال نصر: «ما أشبه أن يكون ما تقول! فقد قلّ الوفاء واستجرح الناس وساءت ذات البين. وجّهتُ إلى الحارث وهو

(1) مدينة من مدن خراسان بينها وبين مرو 70 فرسخاً، ياقوت.
(2) في الأصل جرموز، والتصحيح من الطبري.
(3) السواد هولون العباسيّين.

بأرض الترك، فعرضتُ عليه الولاية والأموال فأبى وشعث وظاهر عليّ». فقال له أبو جعفر عيسى: «لا تهتمّ أيها الأمير، فكأنّك بالحارث مقتول مصلوب وما الكرماني منه ببعيد»، [فوصله نصر][1].

اختلاف كلمة الثوّار:

قدم الكرماني إلى مرو بعد خروج نصر وقال للحارث يخادعه: «إنما أريد كتاب الله». فقال له مقاتل بن حيّان: «أفي كتاب الله هدم الدور وانتهاب الأموال وقتل الأنفس وهتك المحارم»؟ فحبسه الكرماني في خيمته ساعة ثم أطلقه. وأنكر الحارث الهدم والنهب فهمّ الكرماني به ثم أمسك عنه. فأقام أيّاماً ثم أتى بشر بن جرموز الضبّي الحارث، وكان من أفضل قوّاده وقال: «إنما قاتلت معك طلباً للعدل. فأمّا إذا كنت مع الكرماني فقد علمت أنك إنما تقاتل للرياء حتى يقال عنك: ذهب الحارث وأتى الحارث وغلب الحارث. واليمانيّة يقاتلون للعصبيّة فلست أقاتل معك أو تعتزلهم». فأعرض عنه الحارث، فاعتزله بشر في خمسة آلاف وخمسمائة وقال: «نحن الفئة العادلة ندعو إلى الحقّ ولا نقاتل إلا من يقاتلنا». فخافه الحارث وأتى مسجد عياض، فأرسل إلى الكرماني يدعوه إلى أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرماني.

وكتب أصحاب الحارث إلى أصحاب الكرماني: «نوصيكم بتقوى الله وطاعته وإيثار أيمّة الهدى وتحريم ما حرّم الله من

(1) الطبري، 6/9.

الدماء. فإن الله جعل اجتماعنا إلى الحارث ابتغاء الوسيلة لله والنصح لعباده. فعرضنا أنفسنا للحرب ودماءنا للسّفك وأموالنا للتّلف، وصغر ذلك كلّه عندنا في جنب ما نرجو من ثواب الله. ونحن وأنتم إخوان في الدين وأنصار على العدوّ، فاتّقوا الله وراجعوا الحقّ، فإنّا لا نريد سفك الدماء بغير حلّها». فأمسك أصحاب الكرماني عن إجابتهم، بل عمد الكرماني إلى اصطفاء أموال مَنْ خرج مع نصر، وخرج بعسكره من مرو وعسكر إزاء الحارث. وعسكر بشر منها على بعد فرسخين. فتقدم إليه الكرماني يريد قتاله وأمر الحارث أن يتقدّم معه. فأبى الحارث وندم على ما كان منه من اتّباع الكرماني. فقال للكرماني: «لا تعجل إلى قتالهم، فإني أردّهم إليك». فخرج من العسكر في عشرة فوارس حتى عسكر بشر بقرية الدّرْزيجان، فأقام معهم وقال: «ما كنت لأقاتلكم مع اليمانيّة». وجعل المضريّة من عسكر الكرماني ينسلّون إلى الحارث حتى لم يبق مع الكرماني مضري [غير سلمة بن أبي عبد الله مولى بني سليم والمهلّب بن إياس](1) فنشبت الحرب بينهم وبين الكرماني، فكانوا يتقاتلون ويعودون إلى خنادقهم، فمرّة لهؤلاء ومرّة لهؤلاء، ومكثوا بذلك أيّاماً. ثمّ ارتحل الحارث ليلاً فأتى سور مرو، فنقب فيه باباً ودخل المدينة. فقالت المضريّة: «قد تركنا الخنادق فهو يومنا، وقد فررت غير مرّة». فترجّل فقال: «أنا لكم فارساً خير منّي لكم راجلاً». قالوا: «لا نرضى إلاّ أن تترجّل». فترجّل فانبرى الكرماني في أثره ودخل المدينة من باب سَرَخْس، فحاذى الحارث، فاشتدّ بينهم القتال،

(1) ساقطة من الأصل، والزيادة من الطبري، 6/12.

فانهزم أصحاب الحارث. وركب الحارث فرساً في قلّة من رجاله، فاتّبعه الكرماني بثلّة من جنوده. فقُتِل عند شجرة هناك، وقُتِل معه أخوه سوادة وبشر بن جرموز وقطن بن المغيرة بن عجرد. ثم أمر الكرماني بالكفّ عنهم، وقد قُتِل من أصحابه مائة ومن أصحابه الحارث مثلهم.

وقد كان مقتل الحارث يوم الأحد لستّ بقين لرجب من سنة 128 [أبريل 746]، وذلك بعد خروج نصر من مرو بثلاثين يوماً. وصفت مرو أشهراً لليمانيّة، فهدّموا دور المضريّة ومحوا آثارهم.

وقال نصر بن سيّار لما بلغه مقتل الحارث [سريع]:

يا مُدخِلَ الذلِّ على قَوْمِهِ   بُعْداً وسُحْقاً لك مِنْ هَالِكِ
شُـؤْمُـك أَرْدَى مضـراً كلَّهـا   وغضَّ من قَوْمِكِ بالحارِكِ
مَا كانت الأَزْدُ وأشيَاعُهَا   تَطْمَعُ في عَمْرٍو ولا مَالِكِ
ولا بَنِـي سَعْـدٍ إذا أَلْجَمُـوا   كُـلَّ طِمِـرٍّ لَـوْنَـهُ حَـالِـكِ

وبعد انقشاع هذه الفتنة عاد نصر بجنوده وافتكّ مرو عنوة من اليمانيّة واستعمل عليها بشر بن جعفر السعدي إلى أن قتله جند أبـي مسلم الخراساني بعد ظهوره.

الحلقة السابعة

حكم التاريخ:

هذا مجمل ما أردنا عرضه من صحف الوقائع والحوادث التي تعاقبت على الأمويّين في دور الانحلال - وبعبارة ثانية أحكم وأسلس - في طور النحول الثاني للإسلام، وإفهام الباحثين أسباب انحلال دولة آل مروان. هل كان بتأثير قوّة الإجماع من الأمّة أم بتأثير عمل منفرد يُنسَب لحزب من الأحزاب؟

أمّا نظر التاريخ فإنه لا يسند ذلك إلى حزب واحد لاستحالة انفراده بقراع الأمويّين مهما أُوتِيَ من تبسّط الكلمة ونفوذ الأعوان دون أن يتبعثر بين المهالك والفتكات. إذ كانت الأمويّة بعصبة مضر أقوى الأحزاب وبين يدها ومن خلفها المنعة والأجناد، وفخاخ السياسة وشباك الدهاء والأصفاد. وبرهان ذلك ما شوهد من حريق الثورة التي استعرت في إفريقية والعراق واليمن والشام والحجاز وفارس وخراسان. وهي إثر ما تجمّع من ألب الأحزاب المختلفة القائمة على رؤوس الثوّار، مع تباينها في منازع السياسة وأصباغ الأفكار. وهي ثمرة جهاد عقلي عام نضج في دماغ الإسلام لمصارعة العدوّ القرني للأمم «الاستبداد».

وممّا ساعد على ذلك دبيب التّراخي والانحلال الذي دبّ إلى قوّة تماسك الأمويّين كما وضح من فعل كثيرين من الأمراء والقوّاد. فمنهم من انشقّ من نفسه عن الأمر، ومنهم من ضام عدوّه واتّخذ الدولة عرضاً للهلاك. فتكالب عليها العادون وتمكّن منها الانحلال إلى أن أدّوا بها إلى الاضمحلال كما يؤدّي المصابون بالسّلال. «والمسؤوليّة في ذلك عائدة على من خذلها من العصبة بلا خلاف».

وما كان انطواء المروانيّة في هذا الدور المحزن يتوقّف على أمر كبير غير توثّب حزب جديد لم ينهكه الصّراع والجلاد يسطو بانتقام على الذماء التي خرجت به من حرب الثوّار مهشّمة القوى مضطرمة الأفكار، مع ما في الأمّة من الركون إلى جانب السلم بعد أن أجهدها القراع وبلغت النكباء حيث لم يبق في الأمويّين قوّة للدّفع ولا في الأمّة فضل للاختيار. فاغتنم حزب العبّاسيّين الفرصة التي سنحت لهم بعد خلاء الجوّ من الطرفين وأقاموا الدولة لبني العبّاس. ولم يكبر التاريخ أقدار الرّجال الذين قاموا بها أو ينوّه بذكرهم إلا بما أبدوه من الجلد والثبات والمقدرة على انتهاز الفرص، حتى تغلّبوا على أعراض الفشل التي جعلها الله حرباً عَوَاناً على مساعي الأفراد والجماعات ليبلو اصطبارهم ولكي لا يسود العالم غير القويّ المتين. وتوفّقوا في ذلك لما يتوفّق إليه سلفهم من دُهاة الساسة وقادة الأفكار فرجحوا بهم.

والخلاصة أن رأس مال الرجال الذين قاموا بتمثيل الدور

العباسي بأخلاقهم، ورأسها العزيمة والإرادة والصبر والثبات والتكتّم.

ظهور أبـي مسلم وقيام الدعوة للعبّاسيّين[1]:

تركنا أبا مسلم يخلو بأمر الدعوة وترتيب سيرتها إلى أن وافاه كتاب الإمام[2] أوائل سنة 129 [746م] يأذنه بالقدوم إلى الحُمَيْمَة ليلقّنه أوامر تختصّ بالدعوة لا يريد كتابتها خشية الإفشاء. وأمر أن يحمل إليه الأموال المجتمعة في الصناديق السريّة في مراكز الدعوة، وقد بلغت يومئذ 360.000 درهم. فصدع بأمر الإمام[3] وأذن بجلب المال. واشترى بنصيب منها عروضاً وصيّر الباقي سبائك ذهب وفضّة وصيّرها في الأقبية المحشوّة واشترى البغال وخرج في النصف من جمادى الآخرة للسنة [يناير 747م] مع سبعين رجلاً من الشيعة فيهم عدد من النقباء منهم يزيد بن شبيب المعروف بقحطبة والقاسم بن مجاشع وطلحة بن زريق. وحمل أثقاله على البغال وأركب على كلّ بغل رجلاً من الشيعة بسلاحه. وخرج من قرى خزاعة وسلك المفازة.

فلما صار بالدّنْدَانقان من أرض خراسان عرض له كامل أو أبو كامل عامل نصر بن سيّار فسأله: «أين تريد»؟ ـ قال: «الحجّ». وكان نصر بن سيّار حجر الانتقال في ولايته بدون رخصة لمراقبة سير الثوّار، فمنع أبا مسلم ومن معه. فلما خلا به أفهمه مراده، فأجابه إليه ثم سرّحه. ومضى أبو مسلم إلى أبيوَرْد فأقام بها أيّاماً

---

(1) الطبري، 6/22 وما بعدها والكامل 5/356 وما بعدها.

(2) انظر الحلقة الثانية ص 58.

(3) الإمام إبراهيم بن محمّد بن عبّاس.

وكتب إلى الداعية عثمان بن نهيك أن يوافيه بمم معه من النقباء والدُّعَاة والأتباع، وكان منه على بعد خمسة فراسخ، فقدم عليه في خمسين رجلاً. فتحوّل بهم إلى نَسا وكان عليها عاصم بن قيس السُّلَمِي عاملاً لنصر. فلما دنا منها أرسل الداعية الفضل بن سليمان الطوسي إلى النقيب أُسَيْد بن عبد الله الخزاعي يعلمه بقدومه. فمضى الفضل فدخل قرية يقال لها فاقس من قُرى نَسا، فلقي رجلاً يعرفه من الشيعة، فسأله عن النقيب أسيد فنهره. فقال: «يا عبد الله ما أنكرت من مسألتي عن رجل منّا»؟ قال: «إنه حصل في هذه القرية بشرّ. سعى إلى العامل برجلين قيل عنهما إنهما داعيان لجمعيّة سريّة» فأخذهما وأُخِذ بجريرتهما الأحجم بن عبد الله وغيلان بن فضالة وغالب بن سعيد والمهاجر بن عثمان.

فانصرف الفضل من ساعته إلى أبـي مسلم وأخبره بما تلقّاه، فتنكّب الطريق وأخذ في أسفل القرى. وأرسل طرخان الجمّال[1] إلى أسيد فقال: «ادعه لي ومن قدرت عليه من الشيعة، وإيّاك أن تكلّم أحداً لم تعرفه». فأتى طرخان أُسَيْدا، فدعاه وأعلمه بمكان أبـي مسلم، فسأله عن الأخبار. قال: «نعم، قدم الأزهر بن شعيب وعبد الملك بن سعيد بكتب إليك من إبراهيم الإمام، فخلّفا الكتب عندي وخرجا فأُخِذا، فلا أدري من سعى بهما. فسيّرت العيون يتسقّطون الأخبار، فوردوا عليّ بأن العامل بعث بهما إلى عاصم بن قيس فضرب المهاجر بن عثمان وناساً من الشيعة إكراهاً لهم على أن يبوحوا له بشيء من الأمر، فأبوا إلّا إصراراً على الكتمان». فسأله أبو مسلم: «أين الكتب»؟ قال: «هي

(1) هكذا في الأصل، نقلاً عن الطبري، وفي الكامل «الحمّال».

عندي في مخبئها». قال: «الحقني وأْتِني بها». وسار أبو مسلم بمن معه حتى أتى قومس وعليها بَيْهس بن بُدَيْل العِجْلي، فأرسل خلفهم بيهس فقال: «أين تريدون»؟ قالوا: «الحجّ»، فأمسك عنهم. ولما أقام بقومس أتاه الكتابان المرسلان من الإمام، وكان أحدهما له والآخر إلى سليمان بن كثير.

[وجاء] في كتاب الإمام إلى أبي مسلم: «إني قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث ألفاك كتابي ووجّه إليّ بالنقيب قحطبة بما معك يوافني في الموسم». فانصرف أبو مسلم إلى خراسان، فلما بلغ في عودته إلى نسا عرض له صاحب مسلحة في قرية من قراها، فسألهم عن حالهم. فقالوا: «حجّاج بلغنا عن الطريق شيء خفناه فعدنا». فحملهم إلى عاصم بن قيس، فبعث رئيس شرطته يستفسره عن أحواله وسيره. فأخبره أنه حاجّ من تجّار خراسان خرج مع أصحابه بقصد الحجّ فخاف الطريق فعاد، وسأله أن يخلي سبيل من احتُبِس من أصحابه الذين تقدّم ذكرهم، حتى يصدر عن بلاده ويلحق بمرو. فوعد عاصم أبا مسلم بإطلاق أصحابه، بشرط أن يصرف ما معه من العبيد والدوابّ والسلاح. فأجابه أبو مسلم إلى ذلك وخلّى عاصم سبيل المسجونين.

وقرأ أبو مسلم على من حضر من الشيعة كتاب الإمام وأَمْرَه إيّاهم بإظهار الدعوة. ثم أذن من معه من النقباء بالانصراف إلى مراكزهم والاجتهاد في تجنيد مَنْ بطرفهم من الشيعة. واستخلف لنفسه أبا مالك أسيد بن عبد الله الخزاعي وزريق بن شوذب ومَنْ قدم عليه من أبيورد. وسيّر النقيب قحطبة بن شبيب فيمن بقي من

رجال الشيعة، ودفع إليه المال والأحمال بما فيها ليقدم بها على إبراهيم الإمام بن محمد. وسار أبو مسلم حتى انتهى إلى أبيورد، ثم دخل مرو متنكّراً في أوّل يوم من شهر رمضان سنة 129 [أبريل 747م][1]. ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، وكان مثل كتاب أبـي مسلم يتضمّن الأمر بإعلان الدعوة. فاجتمعت الشيعة حول أبـي مسلم ونصبوه إماماً وقالوا عنه إنه رجل من آل البيت. وأرسل النقباء إلى من قَرُبَ ومن بَعُدَ منهم من الفروع أن يتوافوا جميعاً إلى مرو يوم عيد الفطر. وسيّر أبو داود دهاة الدهاة إلى الجهات، فوجّه عمرو بن أعين إلى طخارستـان، والنّضر بن صُبَيْح إلى آمد وبخارى ومعه شريك بن عيسى، وموسى بن كعب إلى أبيورد ونسا، وخازم بن خزيمة إلى مروروذ.

ولما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان عقد أبو مسلم اللواء الذي يُدعَى الظلّ والراية التي تُدعَى السحاب اللّذَيْن بعث بهما الإمام ولبس السواد. وسوّد معه سليمان بن كثير وإخواته ومواليه وكلّ من أجاب الدعوة من أهالي مدينة سَفِيذَنْج. وفسّر أبو مسلم للشيعة عَلَناً معنى الرّمز بالسّحاب والظلّ المتّخذَيْن شعاراً في رايات بني العبّاس. وذلك أن الظلّ إشارة إلى أن الأرض لا تخلو منه وكذلك لا تخلو من خليفة عبّاسي أبد الدهر. والسحاب أنه يطبق الأرض وكذلك الدعوة العباسيّة.

---

(1) هكذا في الأصل، وفي الطبري (6/31):
«وسار أبو مسلم بمن معه حتى انتهى إلى نسا. ثم ارتحل منها إلى أبيورد حتى قدمها ثم سار حتى أتى مرو، فنزل قرية تُدْعَى فنين من قرى خزاعة لسبع ليالٍ بقين من شهر رمضان».

ثم أقبل إليه الدعاة بجنود الشيعة من كلّ مكان. وأوّل من قدم عليه أهل السقادم[1] مع أبـي الوضّاح الهرمزي[2] في (تسعمائة راجل وأربعه فرسان)، وطائفة أخرى من السقادم أيضاً مع أبـي القاسم محرز بن إبراهيم الجوباني (في ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارساً)، منهم الداعية أبو العباس المرْوَزي وخذام بن عمار وحمزة بن زُنيم. ومن هرمز فرّة سليمان بن حسّان وأخوه يزدان بن حسّان والهيثم بن يزيد بن كيسان. ودخلت هذه الجنود معسكر أبـي مسلم بسفيذنج يوم السبت بعد ظهور أبـي مسلم وتسويده بيومَيْن. وأمر أبو مسلم بترميم حصن سفيذنج وتحصينه وتدريب المقاتلين.

ولما حضر العيد يوم الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلّي به وبالشيعة في مصلّى آل قنبر بقرية أبـي داود خالد بن إبراهيم وكانت وسط المعسكر.

مذهب العبّاسيّين الديني:

أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يظهر مذهبهم[3] ويجهر به في صلاة العيد، وذلك أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. وكانت بنو أميّة تبدأ بالخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة على نحو إقامة الجمعة ويخطبون على المنابر جلوساً في الجُمَع والأعياد. وأمره أن يكبّر لستّ تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع

(1) في الكامل، 5/359 «التقادم».
(2) هكذا في الأصل وفي الطبري «هُرْمُزْ فرّي، نسبة إلى هرمز فرّة».
(3) الطبري، 6/26 والكامل، 5/359.

بالسابعة ويكبّر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن[1]. وكانت بنو أميّة تكبّر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات. فلما قُضِيَت الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة إلى طعام أُعِدّ لهم فطعموا مستبشرين.

ثم أقبل الناس يهرعون إلى أبي مسلم من ولاية مرو، ونصر بن سيّار لا يعرض لهم ولا يمنعهم[2]. وقد ملأ ذكر أبي مسلم أقاليم خراسان وتغلغل الناقلون بحديثه، يقولون عنه: «ظهر رجل من بني هاشم بقرية آلين، له حلم ووقار وسكينة ليس له حرس ولا حجّاب». فعظم شأنه وهابوه.

فانطلق فتية من أهل مرو ونسّاك منقطعون للعلم حتى أتوا أبا مسلم يمتحنونه فسألوه عن نسبه، فقال: «خبري خير لكم من نسبي». وسألوه عن مسائل من الفقه لما بلغهم عنه أنه انتحل مذهباً جديداً. فقال: «أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا. ونحن إلى عونكم أَحْوَج منّا إلى مسألتكم»؟

فقالوا: «والله ما نعرف لك نسباً ولا نظنّك تبقى قليلاً حتى

---

(1) هذا هو المعمول به بالنسبة إلى صلاة العيد في المذهب المالكي. قال ابن أبي زيد القيرواني في «الرسالة»:

«وصلاة العيد سنّة واجبة ليس فيها أذان ولا إقامة. فيصلّي بهم الإمام ركعتين ويكبّر في الأولى سبعاً قبل القراءة، يعدّ فيها تكبيرة الإحرام، وفي الثانية خمس تكبيرات لا يعدّ فيها تكبيرة القيام».

(2) الطبري، 6/32.

تُقتَل وما بينك وبين ذلك إلاّ أن يتفرّغ أحدُ هذين»[1] فقال: «بل أنا الذي أقتلهما إن شاء الله». ففارقوه ثم أتوا نصر بن سيّار فخبروه الحديث، فشكر لهم سعيهم وقال: «أنتم أوّل من نفقّد هذا وعرفه».

والسبب في انصراف نصر عن أمر أبي مسلم انهماكه في تلافي أمر ثوّار العرب بخراسان كما تقدّم، لأنهم كانوا شجّا في الحلقوم واحتقر في جانبهم أبا مسلم واستسهله، خصوصاً بعدما قام شيبان الحروري واشتدّ به ساعد اليمانيّة وأقبل إليه من كان يمتنع عن الكرماني من ربيعة.

وكان الكرماني وشيبان لا يريان في قيام أبي مسلم من بأس عليهما، وربما كان أمرٌ مسرّا لهما، لأنه أطمعهما بظهوره في انصراف الناس إلى هواهما في خلع المروانيّين وتحويل الأعاجم عن الولاء لنصر، فيعلوانه ويديلان منه الولاية.

بداية الخلاف بين نصر وأبي مسلم:

لمّا قويت شوكة أبي مسلم واشتدّ ظهره بكثرة الأنصار والحُماة كتب إلى نصر بن سيّار ينذره بكتاب تجافى فيه عن آداب الكتابة المتعارفة في ذلك العصر، وكان مقصوداً، بدأ بنفسه في طالعة الكتاب ولم يدعه بالأمير كما كان الشأن. فاشتدّ ذلك على نصر واجتهد في استئصال شافة أبي مسلم. فكان اجتهاده وبالاً عليه وعلى دولة بني مروان.

---

(1) الزيادة من الطبري وساقطة في الأصل.

كتاب أبي مسلم إلى نصر بن سيّار[1]

«من أبـي مسلم داعية الرّضى من آل محمّد إلى نصر بن سيّار. أمّا بعد فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر أقواماً في القرآن فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾»[2]. فتعاظم نصر الكتاب وقال: «هذا كتاب ينبغي له جواب». فكتب إلى الثائر شيبان يدعوه إلى كفّ القتال حتى يتفرّغ لحرب أبـي مسلم[3]. وقال له: «جامعني على حربه حتى نقتله أو ننفيه من ديارنا ثم نعود إلى ما كنّا عليه». فهمّ شيبان بذلك وظهر همّه في عسكره فأتت جواسيس الشيعة بخبره. فسأل سليمان بن كثير أبا مسلم: «هل تكلّمت عند أحد بشيء من أسرارنا وأظهرت أحداً على أمرنا»؟ فأخبره أبو مسلم بحديثه السالف مع الفتية والنسّاك وما بعث به من الكتاب إلى نصر. فقال سليمان: «إذن هذا لذاك تبع، جاء وقت الجدّ». وأشار على أبـي مسلم بإحضار النقباء والدعاة والقوّاد، فأحضرهم وعرض الأمر عليهم. فأجمعوا على حرب نصر وسلخ مرو عن حكم الأمويّين

---

(1) الطبري، 6/26 والكامل، 5/359 ـ 360.

(2) سورة فاطر، الآيتان 42 ـ 43.

(3) الطبري، 6/32.

ثم يشرعون في طردهم من بقيّة ولايات خراسان، ولاية ولاية. وأناطوا تنفيذ قرارهم بأبـي مسلم[1]. فانتدب يومه القائد محرز بن إبراهيم، وكان تحت قيادته ألف جندي. فأمر أبو مسلم أبا صالح كامل بن مظفّر أن يوجّه رجلاً إلى [خندق] محرز لعرض مَنْ فيه وإحصائهم وترتيبهم في دفتر بأسمائهم وأسماء آبائهم وكُوَرِهم. فوجّه أبو صالح لذلك حميد الأزرق وكان كاتباً بصيراً بأمور الجند، فأحصى ورتّب جند محرز.

وكتب أبو مسلم بعد ما تهيّأ إلى جُدَيْع الكرماني يحرّضه على نصر ويعده بالإمداد والإنجاد، فمال إليه جديع. ولما بلغ ذلك نصراً اشتدّ عليه، فكتب إلى الكرماني: «ويلك! لا تغترّ، فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه. فهلمّ إلى الموادعة، فندخل مرو، فنكتب بيننا كتاباً في الصلح»[2]. وقَصْدُه بذلك أن يفرّق بين الكرماني وبين أبـي مسلم. فدخل الكرماني مرو، وكان مغرّراً ووقف في الرحبة في مائة فارس. ثم أرسل إلى نصر «اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب». فأبصر نصر منه غرّة، فوجّه إليه حاتم بن الحارث بن سريح في ثلاثمائة فارس وكان أوتره كما أسلفنا بقتل أبيه. فلقيه بالرحبة. فاقتتلوا بها طويلاً، فطعن الكرماني في خاصرته، فخـرّ عن دابّته، ثم لحقه نصر فيما لا قِبَل لمن معه بهم. فأجهز على الكرماني وأمر بصلبه. وأقبل علي بن الكرماني على أبـي مسلم وسلّم عليه بالإمارة وأشعره بالانضمام إليه. وقال: «مُرْني أيها الأمير فإني لك مطيع». فأمره أبو مسلم

(1) المصدر المذكور، 6/26.
(2) نفس المصدر، 6/32.

أن ينقلب إلى معسكر أبيه حتى يرى رأيه فيه. وكان على عِلم ممّا صدر من أبيه من ممالاة نصر عليه، والحظوظ إذا أقبلت تبطل كلّ تدبير. فانتهز نصر فرصة هذا الشقاق وإغضاب اليمانيّة بمقتل جُدَيْع، فبعث النّضر بن نعيم الضبّي إلى هراة، وكان عليها عيسى بن عقيل الليثي عاملاً لنصر بن سيّار، فطرده عنها. فقدم عيسى على نصر منهزماً واستولى النّضر على هراة. فشقّ ذلك على شيبان قبل نصر، فجمع إليه وجوه اليمانيّة وعرض عليهم أمر أبي مسلم. فقال يحيى بن نعيم بن هبيرة، وكان داهية ومترئساً في قومه: «اختاروا إمّا أن تهلكوا أنتم معشر اليمانيّة قبل مضر، أو مضر قبلكم؟ إني أرى أن الرجل ليبغي عليكم جميعاً». قالوا: «كيف عرفت ذلك»؟ ـ قال: «إن هذا الرجل إنما ظهر أمره منذ شهر وقد صار في عسكر مثل عسكركم». قالوا: «فما الرأي»؟ ـ قال: «تُصَالِحوا نصراً، فإنكم إن صالحتموه قاتلوا نصراً وتركوكم لأن الأمر في مضر» وإن لم تصالحو نصراً صالحوه وقاتلوكم ثم عادوا عليكم» ـ قالوا: «فما الرأي»؟ ـ قال: «قدّموهم قبلكم ولو ساعة فتقرّ أعينكم بقتل مضر»!

فأرسل شيبان إلى نصر يدعوه إلى الموادعة، فأجابه. فأوفد إلى شيبان سلم بن أحوز، فألفى معه علي بن جديع الكرماني ويحيى بن نعيم. فعارضهم ابن الكرماني وكان تحالف مع شيبان. فقال له سلم: «ما أخلقك أن يكون هلاك مضر على يديك! اتّق الله في قومك». وما زال لهم يحرّضهم ويحرّضونه على قبول الموادعة والصلح حتى توادعوا سنة، وكتب سلم صكّ الهدنة بخطّه فبلغ خبر الصلح أبا مسلم، فأرسل إلى شيبان: «إنّا

نوادعك أشهراً فما رأيك»؟ فوادعه على ثلاثة أشهر ثم كتب أبو مسلم ذلك إلى علي بن الكرماني. فكتب إليه علي: «ما صالحتُ نصراً وإنما صالحه شيبان وأنا لذلك كاره»[1].

وروى الطبري غير هذا فيما يتعلّق بأمر الصلح مع علي بن جديع. قال إن سليمان بن كثير كان مع علي بن الكرماني حين تعاقد هو ونصر على حرب أبي مسلم. فقال له سليمان بن كثير[2]: «أَمَا تأنف من مصالحة نصر بن سيار وقد قتل بالأمس أباك وصلبه. ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيّار في مسجد تصلّيان فيه». فأدرك علي بن الكرماني الحفيظة فرجع عن رأيه وانتقض صلح العرب.

فوز أبي مسلم في تفريق العرب[3]:

لمّا انتقض [علي بن الكرماني] صلح العرب بعث نصر بن سيّار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل في حلف مضر. وبعثت إليه ربيعة وقحطان يمثل ذلك، فتراسلوا أيّاماً. فأمر أبو مسلم أن يقدم عليه وفد من الفريقين (اليمانيّة ومضر)، حتى يختار الانضمام إلى أحدهما، فقبلوا ذلك. وأوعز أبو مسلم إلى النقباء أن يختاروا ربيعة وقحطان. وقال لهم: «إن السلطان في مضر وهم عمّال مروان الجعدي وهم قتلة يحيى بن زيد»[4] فقدم عليه الوفدان. فكان وفد مضر مؤلّفاً من عقيل بن معقل الليثي

(1) الطبري، 6/32 ـ 33، حسب رواية ابن الخطّاب.
(2) [يقول لك أبو مسلم]، ساقطة من الأصل.
(3) الطبري، 6/43 ـ 44.
(4) في الأصل «وهم قتلة آل البيت» والتصحيح من الطبري.

وعبيد الله بن عبد ربّه الليثي والخطّاب بن محمد السّلمي في رجال آخرين منهم. ووفد قحطان مؤلّف من عثمان بن جُدَيْع الكرماني ومحمد بن المثنّى وسورة بن محمد بن عزيز الكندي في رجال آخرين منهم.

فأمر أبو مسلم بإنزال اليمانيّة ببستان المحتفز[1]، وقد بسط لهم فيه الفرش والنمارق. وجلس لمضر في بيت في دار المحتفز. وأذن لهم فدخلوا عليه وكان جالساً مع أبي مسلم من وجوه النقباء والقوّاد سبعون رجلاً. ولما قعد الناس أذن أبو مسلم القاسم بن مجاشع التميمي أن يقرأ كتاباً حرّره بنفسه في موضوع الاجتماع. وبعد أن تمّ تلاوته، قام سليمان بن كثير وكان خطيباً مفوّهاً، فتكلّم في الموضوع ما أسهب وأعجب، فاختار حلف القحطانيين. وقام بعده أبو منصور طلحة بن زُرَيق النقيب، وكان فصيحاً متكلّما فقال مثل مقالة سليمان بن كثير. ثم تلاهما مزيد بن شقيق السلمي، وكان داهية داريا فقال:

«كيف نختار مضر وهم قَتَلَة آل النبي ﷺ وأعوان بني أميّة وشيعة مروان الجعدي، ودماؤنا تجري في أعناقهم وأموالنا في أيديهم والتباعات قبلهم ونصر بن سيّار عامل مروان على خراسان ينفّذ أمره ويدعو له على المنابر ويسمّيه أمير المؤمنين، ونحن من ذلك إلى الله برآء، وأن يكون مروان أمير المؤمنين وأن يكون نصر على هدى وصواب. وقد اخترنا علي بن الكرماني وأصحابه من قحطان وربيعة».

---

(1) هو المحتفز بن عثمان بن بشر المزني.

فأجمع السبعون الذين جمعوا في البيت على قول مزيد بن شقيق. فنهض وفد مضر عليهم الذلّة والكآبة، ووجّه معهم أبو مسلم القاسم بن مجاشع في خيل لحراستهم حتى بلغوا مأمنهم. ورجع وفد علي بن الكرماني مسرورين منصورين[1].

وأقام أبو مسلم بآلين تسعة وعشرين يوماً ثم انصرف إلى الماخوان وأمر جند الشيعة أن يبتنوا المساكن ويستعدّوا للشتاء بعد أن ظفروا بتفريق كلمة العرب. ثم تحوّل إلى الماخوان منصرفاً من آلين يوم الخميس للنصف من صفر سنة 130 [ديسمير 747م].

---

(1) الطبري، 6/44.

الحلقة الثامنة

تشكيلات أبي مسلم[1]:

لمّا كثرت جنود أبي مسلم وتمكّن من تشتيت كلمة العرب وتمزيق شملهم ضاقت به سفيذنج، فارتاد معسكراً فسيحاً فأصاب حاجته بالماخوان قرية النقيب العلاء بن حريث وأبي إسحاق خالد بن عثمان. فاحتفر بها خندقاً وجعل له بابين فعسكر فيه ووكل بحراسة أحد البابين مصعب بن قيس الحنفي وبهدل بن إياس الضبّي. ووكل بالباب الآخر أبا شراحيل وأبا عمرو الأعجمي. واستعمل على شرطته أبا نصر مالك بن الهيثم وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان وعلى ديوان الجند أبا صالح كامل بن مظفّر وعلى ديوان الرسائل أسلم بن صُبَيْح، والقاسم بن مجاشع النقيب التميمي على القضاء.

ثم نزل أبو مسلم خندق الماخوان مع عساكره كرجل منهم في هيئته حتى أتاه عبد الله بن بسطام بالأروقة والفساطيط والمطابخ والمعالف للدوابّ وحياض الأدم للماء الخ ممّا يصلح لإقامة الإمارة. وبعد أيّام من إقامته بالخندق علم أن الموالي يُضامون في

(1) الطبري، 6/33 وما بعدها.

خندقه من العرب، فاحتفر لهم خندقاً ثانياً في قرية شوال وأولى قيادتهم داود بن كراز، فبلغت عدّتهم سبعة آلاف رجل، فأجرى عليهم ثلاثة دراهم لكلّ رجل، ثم أجرى عليهم كامل أبو صالح أربعة. ولما انتظم أمرهم وتمرّنوا على القتال سيّرهم إلى موسى بن كعب بأبيورد.

ولما تمّت تشكيلات أبـي مسلم وفشت أخبارها بين العرب توجّسوا منها خيفة. فأجمع رؤساء مضر وربيعة وقحطان وتوادعوا على وضع الحرب بينهم وعلى أن تجتمع كلمتهم على محاربة أبـي مسلم حتى ينفوه عن مرو، فكتبوا على أنفسهم بذلك كتاباً وثيقاً. وبلغ أبا مسلم الخبر فأقطعه ذلك وأعظمه، فأخذ يفكّر في وجوه الحِيَل. فرأى أن موقعه من الماخوان لا يساعده على الدفاع لانخفاضه عن سيل الماء. وتخوّف أن يحاربه نصر بالحصار وقطع الماء، فتحوّل إلى آلين قرية أبـي منصور طلحة بن زريق النقيب فخندق بآلين خندقاً أمام القرية فيما بينها وبين بلاش جِرْد، فصارت القرية من خلف الخندق. وجعل وجه دار المحتفز بن عثمان بن بشر المزني داخل الخندق، وأجرى لأهل آلين فرعاً من نهر يُدْعى الخرقان لا يمكن لنصر قطعه عن آلين. فسار نصر في أثره وعسكر على نهر عياض. ثم وضع عاصم بن عمرو بموضع بلاش جِرْد، ووضع أبا الذيال يزيد الأسلمي بطوسان ووضع بشر بن أنيف اليربوعي بجلفر، ووضع حاتم بن الحارث بن سُرَيْح بخرق، وهو يلتمس بذلك مناجزة أبـي مسلم.

فآذت جنود أبـي الذيال أهل طوسان وعسفوهم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام وكلّفوهم العلف والطعام، وكانوا مشايعين

لأبـي مسلـم، فشكوه ضرّهـم[1]. فوجّه إليهم أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي ومعه مصعب بن قيس في مائتين، فلقيهم أبو الذيال بقرية آلين في مسلحة، فدعاهم مالك إلى بيعة الرّضى من آل الرسول. فاستكبروا على ذلك وعتوا، فصافّهم مالك من أوّل النهـار إلى العصر[2]. وقدم في ذلك اليوم على أبـي مسلم صالح بن سليمان الضّبّـي وإبراهيم بن يزيد وزياد بن عيسى في مسلحة، فوجّههم إلى نجدة مالك بن الهيثم، فقدموا عليه مع العصر، فقوي بهم ساعده بعد أن كان مشرفاً على الهلاك. فقال أبو الذيال[3] لجنوده: «إن تركنا هؤلاء الليلة أتتهم الأمداد، فاحملوا عليهم حملة واحدة فتبيدونهم». ففعلوا وترجّل مالك وقال لأصحابه: «إني لأرجو أن يقطع الله من الكافرين[4] طرفاً، فاجتلدوا جلاداً صادقاً». وصبر الفريقان لبعضهم حتى قُتِل من جند المروانيّين أربعة وثلاثون رجلاً وأُسِر منهم ثمانية نفر. وحمل مالك على أبـي الذيال فأسره[5] وانهزم بقيّة جنده. فوجّه مالك عبد الله الطائي بأسيره في رجال من الشيعة معهم الأسرى إلى

---

(1) [فوجّه معهم خيلاً، فلقوا أبا الذيّال فهزموه]، زيادة من الطبري ساقطة من الأصل.

(2) لقد اشتبهت الحوادث على المؤلف وخلط بين يزيد الأسلمي المعروف بأبـي الذيال ويزيد مولى نصر بن السيّار. ذلك أن أبا مسلم لم يوجّه مالك بن الهيثم ضدّ أهل طوسان الذين كانوا موالين له، بل وجّهه ضدّ الجيش الذي سيّره نصر بن سيّار بقيادة مولًى له يقال له يزيد لمحاربة أبـي مسلم، انظر الطبري، 6/27.

(3) الصحيح كما أسلفنا يزيد مولى نصر بن سيّار وليس أبو الذيال.

(4) في الأصل «من أعدائنا»، والتصحيح من الطبري.

(5) هكذا في الأصل، والصحيح: «وحمل عبد الله الطائي على يزيد مولى نصر».

أبـي مسلم، وأقام مالك في معسكره ينتظر أوامر أبـي مسلم.

مهارة أبـي مسلم في اصطناع الرجال:

وافت الأسرى أبا مسلم، فدفع [يزيداً مولى نصر] إلى النقيب أبـي إسحاق خالد بن عثمان وأمره أن يعالجه من جراحاته ويحسن تعاهده. وكتب إلى مالك بالقدوم عليه.

فلما اندمل يزيد[1] مولى نصر من جراحاته دعاه أبو مسلم وقال: «إن شئت أن تقيم معنا وتدخل دعوتنا فقد أرشدك الله. وإن كرهت فارجع إلى مولاك سالماً، وأعطنا عهد الله أن لا تحاربنا ولا تكذب علينا وأن تقول فينا ما رأيت». فاختار الرجوع إلى مولاه، فخلى له الطريق.

فأنكر بعض النقباء على أبـي مسلم مبالغته في رعاية [يزيد]، فقال: «إن اليد التي أسديناها له ستكون لكم خير معوان على العرب، وهو سيقوم لكم مقام جيش يردّ عنكم أهل الورع والصلاح».

وقدم [يزيد] على مولاه نصر بن سيّار فقال: «لا مرحباً بك يا يزيد»! وأنكره. ثم قال: «والله ما [ظننت] استبقاك إلاّ ليتّخذك حجّة علينا، أغرب عنّي فلا أريد أن أراكْ». فقال [يزيد]: «فهو والله ما ظننتَه أيّها الأمير. وقد استحلفوني أن لا أكذب عليهم، وأنا أقول إنهم يصلّون الصلوات لمواقيتها بأذان وإقامة، ويتلون الكتاب، ويذكرون الله كثيراً، ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ، وما أحسب أمرهم إلاّ سيعلو أمرك. ولولا أنك مولاي [أعتقتني

(1) في الأصل أبو الذيال والتصحيح من الطبري، 6/ 28.

من الرقّ] ما رجعت إليك ولأقمتُ معهم». فسقط في يد نصر وسكت واجماً ممّا دهاه.

وبعد ذلك كتب أبو مسلم إلى حليفة علي بن جُدَيع الكرماني يغريه بمناجزة نصر وأوفد إليه شبل بن طهمان يثيره. فقال علي: «أحبّ أن يلقاني أبو مسلم». فعاد شبل وأبلغه ذلك فأقام أبو مسلم أربعة عشر يوماً ثم سار للقاء ابن الكرماني. ولما بلغ قدومه عليًّا سيّر أخاه عثمان للقائه على مسافة من الطريق في خيل وسار معه حتى دخل المعسكر وأتى لحجرة علي، فوقف فأنزله فدخل، فسلّم على عليّ الإمارة. وقد اتّخذ له عليٌّ قصراً في قصرٍ لمخلد بن الحسن الأزدي، فأقام يومين يتداولان في المسائل ثم عاد إلى معسكره، وبمجرّد رجوع أبي مسلم إلى [الماخوان] ظهرت نتائج هذه الزيارة.

فقد هاجمت جنود ابن الكرماني جنود نصر بن سيّار على مدينة مرو وحصلت بين الجندين معركة عنيفة قُتِل فيها من جنود نصر 700 رجل وقُتِل من أصحاب ابن الكرماني 300، ثم انتهت باندحار جند الإمارة.

براعة أبي مسلم في الحيل السياسية وتلاعبه بالعرب:

عندما اشتبكت الحرب بين مضر والقحطانيّين على مرو وتيقّن أبو مسلم أنّ كلا الفريقَيْن أثخن صاحبه وانقطع عنهما المدد، عمد إلى طرق أبواب الختل والخداع. فكتب إلى شيبان يوهم أنه يراسله وأوعز إلى رُسُله أن يجعلوا طريقهم على مناطق جند مضر (أي جند نصر)، وهو يتوقّع بذلك أنهم يتعرّضون لهم

ويأخذون الكتب من أيديهم. فكانوا يأخذونها ويقرؤون ما فيها فيجدون: «إني رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم، وأوصيك أن لا تثق بهم ولا تركن إليهم، فإني أرجو أن يريك الله ما تحبّ. ولئن بقيت لا أدع لهم شعراً ولا ظفراً».

ويرسل رُسُلاً آخرين يوهم بهم أنه يراسل المضريّة يسيّرهم على مناطق اليمانيّة ينال فيها من المضريّة ويطري اليمانيّة في مثل هذا المعنى، فيأخذونها فيجدون هواه معهم. وهكذا صنع إلى أن استمال الفريقين وهو يخدهما. وكان يكتب إلى نصر وإلى ابن الكرماني: «إنّ الإمام قد أوصاني بكما ولست أعدو رأيه فيكما فهلمّا إليّ فإنّي بارّ بكما».

ثم كتب منشوراً عامّاً إلى جمعيّات النقباء بتجنيد الشيعة من أهل الكُوَر. فأجابه مقاتل بن حكيم العكّي وابن غزوان في أهل نسا وأهل أبيورد وأهل مرووذ وقرى مرو. وأقبلوا عليه مسوّدين في السلاح.

ولما أكمل التعبئة برز بجنوده ونزل على مرو عاصمة الأمويّين بخراسان وعسكر بين خنادق نصر وخنادق علي بن جُدَيْع الكرماني، وهابه الفريقان ووجل منه نصر.

عجز الدولة الأمويّة عن دفع أبـي مسلم:

لما عظم شأن أبـي مسلم بخراسان واستفحل أمره كتب نصر بن سيّار عامل خراسان إلى أمير المؤمنين مروان بن محمد الجعدي يعلمه حاله وخروج أبـي مسلم عن الطاعة وكثرة من معه ومن تابعه من الخراسانيّين وأخلاط العرب، وأنه يدعو إلى خلافة

إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس، وأنه إذا لم يبادر لإخماده يضيع من يده إقليم خراسان. وممّا ضمّنه في هذا الكتاب شعره المشهور نقطتف منه الأبيات التالية [وافر]:

أرَى بَيْنَ[1] الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ[2] فَـأَخْشَـى أن يكُـونَ لَـهُ ضِـرَامُ
فَـإِنَّ النّـارَ بِـالعُـودَيْـنِ تُـذْكَـى وإنَّ الحَـرْبَ مَبْـدَؤُهَـا كَـلاَمُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَأَيْقَـاظٌ أُمَيَّـةُ أَمْ نِيَـامُ

وكتب أيضاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والي المشرق، وكان على العراق يستنجده ويستمدّه، وأردف كتابه بالأبيات التالية [بسيط]:

أَبْلِغْ يَزِيدَ وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ وَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَلاَّ خَيْرَ فِي الكَذِبِ
إنّ خُرَاسَانَ أَرْضٌ قد رَأَيْتُ بِهَا بَيْضاً لوِ ٱفرَخَ قد حُدِّثْتَ بِالعَجَبِ
فِـرَاخُ عَـامَيْـنِ إلاّ أَنَّهـا كَبُـرَتْ لَمَّا يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ
فإنْ يَطِرْنَ وَلَمْ يُحْتَلْ لَهُنَّ بِهَا يُلْهِبْنَ نِيرَانَ حَرْبٍ أَيَّمَا لَهَبِ[3]

فردّ إليه مروان بن محمد: «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب. وأرى أن تحسم الثؤلول قبل أن يغلظ أمره ويعسر عليك».

وكتب إليه ابن هبيرة: «لا غَلَبَة إلا بكثرة، وقد أنهكتنا الحرب وليس عندي رجل أمدّك به». فيئس نصر وبقي ينتظر تقلّب الحوادث عسى أن يطلّ منها الفرج وسلّم الأمر إلى الله.

---

(1) كذا في الطبري والكامل وفي الأصل «خلل».
(2) كذا في الأصل نقلاً عن الطبري، وفي الكامل «وميض نارٍ». الطبري: 6/36 والكامل: 5/365.
(3) الطبري، 6/37 والكامل، 5/366.

ٱستيلاء أبـي مسلم على مرو[1]:

ذكرنا أن أبا مسلم برز بعسكره وعسكر على مرو فراسله علي بن الكرماني: «أن ٱدْخُلْ المدينة من قِبَلك وأدخل أنا وعشيرتي من قِبَلي فنغلب عليها». فأرسل إليه أبو مسلم: «لست آمنك أن تجمع يدك ويد نصر على حربـي. ولكن ٱدخل أنت وأنشب الحرب وأنا أتبعك». فدخل ابن الكرماني وأنشب الحرب. وبعث أبو مسلم أبا علي شبل بن طهمان النقيب في جند فاجتاز سور المدينة ونزل قصر بخاراخذاه. فبعث إلى أبـي مسلم أن ٱدخل المدينة من خندق الماخوان. فدخلها وكان على مقدّمته أُسَيْد بن عبد الله الخزاعي وعلى ميمنته مالك بن الهيثم وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع التميمي. وكان الفريقان يقتتلان فأمرهما بالكفّ، وهو يتلو قوله تعالى:

﴿وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[2].

ومضى سائراً في موكبه حتى نزل قصر الإمارة بمرو لتسع خلون من جمادى الأولى سنة 130 [مارس 748م]، وهرب نصر بن سيّار عن مرو الغد.

ولما استقرّ أبو مسلم بقصر الإمارة أمر شيخ الدعاة أبا منصور طلحة بن زُرَيْق بأخذ البيعة، فأخذها على مَنْ بها من

---

(1) الطبري، 6/44 وما بعدها.

(2) سورة القصص، الآية 15.

الهاشميّة. فاستحكمت البيعة لأبي مسلم، فأولى على حرسه خالد بن عثمان، وعلى شرطته مالك بن الهيثم. وأقرّ على القضاء القاسم بن مجاشع وعلى ديوان الرسائل أبا صالح كامل بن مظفّر، وأجرى على كلّ رجل منهم أربعة آلاف درهم مشاهرة.

يأس نصر وتسليمه:

لما ملك أبو مسلم مرو وانهزم عنها نصر قال نصر للخاصّة حين اجتمعوا عليه: «أرى أن هذا الداهية قد توثّق أمره وسارع إليه الناس وسيتمّ له ما يريد فأسرعوا بنا من هذا وخلّوه». فأجابه البعض وامتنع الأكثرون.

فقال [نصر] للممتنعين: «إنكم ستذكرون قولي». وأوصى الخاصّة من مضر أن ينطلقوا إليه ويأخذوا بحظّهم، وحقّق لهم يأسه من الأمويّة. ولحق بنيسابور وخلا الجوّ لأبي مسلم.

تحرّش أبي مسلم وفتكه بزعماء العرب[1]:

لما آلت الدولة لأبي مسلم وصفت له مرو، خرج في جماعة من النقباء حتى دخل معسكر علي بن الكرماني وشيبان بن سلمة الحروري. فدخل على عليّ وهنّأه بالظفر وأظهر له الرضا وأمّنه على نفسه وأصحابه وخرجا معاً إلى مجرّة شيبان، وكان يومئذٍ تسلّم عليه اليمانيّة بالخلافة. فأمر أبو مسلم عليّاً بالجلوس إلى جنب شيبان ونهى شيبان أن يسلّم عليه الخلافة.

وأراد أبو مسلم أن يقري بينهما بتقليد علي رتبة الإمارة

---

(1) الطبري، 6/51 وما بعدها.

وعدم تقليدها لشيبان. فقال كلاماً في المعنى أوهم شيبان أنه يريده، فقام وتقدّم إليه، فنحّاه أبو مسلم وقال: «لست أريدك وإنما أريد عليًّا». ثم قلّد علياً وخرج، فاضطغنها شيبان وتنحّى عن مرو مصرًّا على الخلاف.

فبعث إليه أبو مسلم يدعوه إلى البيعة، فردّ عليه شيبان: «مَنْ أنت حتى أبايعك؟ بل أنا الذي أدعوك إلى بيعتي». فأرسل إليه أبو مسلم: «إما أن تبايعني وإما أن ترحل من خراسان، وإلاّ ناجزتك». فبعث شيبان إلى ابن الكرماني يستنصره، فأبى أن يجيبه. فارتحل شيبان حانقاً إلى سَرَخْس واجتمع إليه بها خلق كثير من بكر بن وائل. فأرسل إليه أبو مسلم تسعة رهط من الأزد عليهم الداعية المنتجع ابن الزبير يدعوه إلى البيعة ويأمره أن يكفّ عن الشغب، فأخذ شيبان رسل أبي مسلم فسجنهم. فكتب أبو مسلم إلى بسّام بن إبراهيم مولى بني ليث عامله على أبيورد يأمره بالمسير إلى شيبان فيقاتله. فسار إليه بسّام فهزمه واتّبعه حتى دخل المدينة وقتل شيبان ورجالاً كثيراً من بكر بن وائل.

ثم سيّر أبو مسلم موسى بن كعب إلى أبيورد وأبا داود إلى بلخ والترمذ وغيرهما من كُوَر طخارستان. ولما دنا منها أبو داود انصرف العرب إلى الترمذ ودخل أبو داود مدينة بلخ. فتحرّكت بسبب ذلك نعرة الحسد في أمراء العرب، فاتّحدت مضر واليمانيّة وربيعة، وضمّوا إليهم أمراء الأعاجم الذين على طخارستان وما وراء النهر وتحالفوا جميعاً على قتال أبي مسلم وإجلائه عن أقاليم خراسان. وقلّد الحلفاء رئاستهم لمقاتل بن حيّان النبطي، كراهية تقليدها لمن له عصبيّة. فسيّر لهم أبو مسلم جيشاً بقيادة

أبـي داود النقيـب، فـأقبـل عليهـم وهـم معسكـرون علـى نهـر السرجنان، وكانوا أرسلوا جنداً بقيادة أبـي سعيد القرشي إلى ما بين قرية العود وبين قرية أمديان لئلاّ يأتيهم أصحاب أبـي داود من خلفهم، وكانت أعلام أبـي سعيد سوداً مثل أعلام أبـي مسلم. فلما التقى أبو داود بجيوش الحلفاء وتصافّوا للقتال، علم بذلك أبو سعيد القرشي، فأمر أصحابه أن يأتوا من خلف، فخرج وأتاهم من سكّة العود والقتال مُسْتَعِر بين الفريقين. فاشتبهت أعلامه على الحلفاء فظنّوها أعلاماً لأبـي داود دُفِعت إليهم من خلف، فاضطربوا في بعضهم وانهزمت جيوشهم وسقط أكثرهم في نهر السرجنان وقتل عامّتهم. ونزل أبو داود معسكرهم واحتوى عليه وأبـى أن يتبع المنهزمين واستقامت بلخ لأبـي مسلم، فكتب إليه أبو مسلم بالقدوم. ووجّه النّضر بن صُبَيْح المرّي والياً على بلخ.

ثم اجتمع رأي أبـي مسلم على أن يفرّق بين الأخوَيْن علي وعثمان ابنيْ جُدَيْع الكرماني. فعيّن عثمان عاملاً على بلخ، فصار إليها واستخلف الفرافصة بن ظهير العبسي، وسار إلى مرورود لقضاء حاجة هناك. فأقبلت المضريّة في مغيبه من ترمذ عليهم مسلم بن عبد الرحمان الباهلي. فتلقّتهم جنود عثمان بين البروقان وبين الدستجرد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم جند عثمان وغلب المضريّة على مدينة بلخ وأخرجوا الفرافصة منها. فبلغ الخبر عثمان، فأسرع إلى بلخ ومعه النّضر بن صبيح. فبلغ قدومه أصحاب مسلم بن عبد الرحمان، فهربوا من تحت ليلتهم، وعتب النّضر في طلبهم رجاء أن لا يفوتوه، ولقيهم عثمان فقاتلهم فانهزم أمامهم وأثخنوا في أصحابه، وانصرفت المضريّة إلى معسكرها.

فعاد أبو داود من مرو إلى بلخ بعد أن اتّفق مع أبـي مسلم على قتل علي وعثمان ابنيّ جُدَيْع في يوم واحد: أبو مسلم يقتل عليّاً وأبو داود يقتل عثمان. وسار أبو مسلم مع علي يريدان نيسابور.

فلما قدم أبو داود بلخ بعث عثمان عاملاً على أرض الختل فيمن معه من يمانيّة أهل مرو وبلخ وربيعتهم. فلما خرجوا من بلخ خرج أبو داود في أثرهم ولحقهم بأرض الختل، فوثب على عثمان وأصحابه فحبسهم جميعاً ثم ضرب أعناقهم. وقتل أبو مسلم ذلك اليوم علي بن الكرماني[1]، وكان أمره أبو مسلم أن يسمّي له خاصّته ليوليهم ويأمرهم بجوائز وكِسَى فسمّاهم له، فقتلهم جميعاً. فانكسرت بمقتل الأخوَيْن شوكة اليمانيّة وصفت لأبـي مسلم أقاليم خراسان لا ينازعه فيها منازع، وبعث عمّاله وقوّاده إلى سائر الجهات. فاستعمل سباع بن النّعمان الأزدي على سَمَرْقَند وأبا داود على طخارستان ومحمد بن الأشعث على الطَّبَسَيْن وفارس والقاسم بن مجاشع على نيسابور.

رجوع قحطبة بن شبيب من مكّة وتقلّده القيادة العامّة على الجنود:

عاد النّقيب قحطبة إلى خراسان منصرفاً من مكّة بعد أن لقي إبراهيم الإمام وسلّم له الهديّة والأموال التي بعثها معه أبو مسلم، ومعه اللّواء الذي عقده له الإمام. فعيّنه أبو مسلم قائداً عامّاً للجنود وفوّض له التولية والعزل وأمر الجنود أن يسمعوا له

---

(1) الطبري، 52/6 والكامل 384/5.

ويطيعوا، وأوكل إليه أن يضمّ إلى جيوشه من يرضى من القوّاد وأن يجعل فاتحة أعماله فتح طوس. فانتخب من القوّاد أبا عون بن عبد الملك بن يزيد ومقاتل بن حكيم العكّي وخالد بن برمك وخازم بن خزيمة والمنذر بن عبد الرحمان وعثمان بن نهيك وجهور بن مرار العجلي وأبا العباس الطوسي وعبد الله بن عثمان الطائي وسلمة بن محمد وأبا غانم عبد الحميد بن ربعي[1] وأبا حميد وعامر بن إسماعيل ومحرز بن إبراهيم. وقلّد أبا الجهم الكتابة العامة على الجند والنظر فيما يصلح لهم من الأسلحة والأرزاق والمؤن.

فحطّ بعد خروجه من مرو على طوس وناشب من بها من بقايا أجناد الأمويّين، فانهزموا للحملة الأولى حتى كان من مات منهم في الزّحام أكثر ممّن قُتِل في الحرب. وذكر الطبري[2] والعهدة عليه أن عدد القتلى بلغ بضعة عشر ألفاً، والله أعلم.

ثم تلقّى الأوامر وهو على طوس من أبي مسلم بالمسير إلى السوذقان لقتال تميم بن نصر والنّابي بن سُوَيْد ومن ضامّهما من عرب خراسان، وأن يصرف إليه موسى بن كعب من أبيورد. فلما قدم قحطبة إلى أبيورد صرف موسى بن كعب إلى أبي مسلم. وبعث أبو مسلم عشرة آلاف مقاتل نجدةً لقحطبة عليهم عليّ بن معقل لمناجزة مَنْ بالسوذقان.

---

(1) في الأصل «بن ربيع» والتصحيح من الطبري.

(2) الطبري، 6/53.

الرجـال العباقـرة[1]:

من المسائل العويصة التي لم يقف على كنهها الحكماء: هل الحوادث تكوّن الرجال أم الرجال يكوّنون الحوادث؟ لذلك لا نستطيع هنا أن نبتّ في أمر قَحْطَبَة بن شبيب والحوادث التي جرت على يديه. فإن كان هو مُوجِدها فهو أعظم قائد عسكري على الإطلاق. وإن كانت هي التي أظهرته فأمرها جدير بالعجب والاستغراب! كلاهما مُدْهِش وكلاهما مُبْهِر يحار في فهم كنههما الرَّكِن[2] الأريب.

مَنْ كان يظنّ أن ذلك النقيب الذي لا يُؤْبَه له الناشىء في قرى خزاعة سيصير من أكبر قوّاد العالم ويخلّد أسمى مفخرة في تاريخ الانقلابات [أي الثورات] الكبيرة ويكون اسمه مُدَوَّناً بإزاء حنّبعل ودارا[3] والإسكندر وسعد بن أبـي وقّاص وخالد بن الوليد وحسّان بن النعمان وطارق بن زياد وأسد بن الفرات ومحمد الفاتح، في صحيفة واحدة.

نحن نترك الحكم في هذه المسألة العويصة لمن سيأتي بعدنا من الباحثين فيما تُرِك لهم من المباحث المتعلقة بأسرار هذا الكون العجيب. وحسبنا الآن الاكتفاء بتتبّع سيرة الرجل واستقصاء مآثره والنظر في برامج وقائعه الحربيّة. وأنا أكفل للقرّاء أنهم سيجدون خلالها صحائف ذهبيّة من صحف النبوغ التي يقيم غير المسلمين

---

(1) في الأصل «العبقريّون».

(2) الرَّكِن: هو الصّادق في فراسته وحدسه.

(3) دارا هو داريوس الأول (522 ـ 486ق.م) ملك الفرس.

لما دونها من أعمال رجالهم النّصب والتماثيل.

العمليّات الحربية:

كان تميم بن نصر والنّابي بن سويد مُعَسْكَرَيْن بالسّوذقان في ثلاثين ألف، فأقبلت عليهما طليعة قحطبة عليها أسيد بن عبد الله الخزاعي. فلما أبصرهم كتب إلى قحطبة يصف له حالة الأعداء وكثرة ما معهم من الجنود. فبعث إليه قحطبة مقاتل بن حكيم العكّي في ألف، وخالد بن برمك في ألف. فقدما على أسيد وبلغ قدومهما تميماً والنّابي فكسرهما. ثم وافاهما قحطبة ببقيّة الجنود وتعبّأ لقتالهما. فجعل على ميمنته مقاتل بن حكيم العكّي وأبا عون بن عبد الملك وخالد بن برمك، وعلى ميسرته أسيد بن عبد الله الخزاعي والحسن بن قحطبة والمسيّب بن زهير وعبد الجبار بن عبد الرحمان، وصار هو في القلب ثم زحف إليهم. وقبل مناجزتهم دعاهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وبيعة الرضا من آل محمد، فلم يجيبوه. فأمر الجناحَيْن بالتقدّم، فتصاولوا ساعة من النهار واقتتلوا قتالاً شديداً، فصُرِع تميم بن نصر في المعركة ووقع تلف كثير في جنده وفرّ النابي فيمن بقي من العساكر، فتحصّن في المدينة. فأحاطت به الجيوش من كلّ مكان ونقبوا الأسوار بآلات الهدم ودخلوها عنوة. فقتلوا النابي ومن معه وفرّ عاصم بن عمير السمرقندي وسالم بن راوية والتحقا بنصر بن سيّار بنيسابور. فأخبراه بمقتل ابنه تميم والنابي ومن كان معهما من القوّاد والأجناد.

ولمّا أحرز قحطبة هذا الفتح أمر خالد بن برمك بضبط وإحصاء ما وُجِد بمعسكر تميم وأسرع إلى نيسابور وجعل

مقاتل بن حكيم العكّي على المقدّمة. فبلغ نصراً قدومه فارتحل لاجئاً إلى قومس، وتفرّق عنه من بقي معه من الخاصّة والأتباع، ثم تحوّل إلى جرجان ونزل على ابن نباتة قائد ابن هبيرة. فاتّبعه قحطبة إلى نيسابور، ثم لحقه إلى جرجان في ذي القعدة سنة 130 [سبتمبر 748م].

إثارة العاطفة الوطنيّة الفارسيّة ضدّ العرب[1]:

قبل أن يتحرّك قحطبة إلى جرجان جمع جنوده ووجوه نيسابور وارتجل لهم خطاباً سياسيّاً دوّت له أقاليم خراسان وفارس يغري فيه الأعاجم بالعرب، قال:

«أتدرون يا أهل خراسان إلى من تسيرون ومن تقاتلون؟ إنما تقاتلون بقيّة قوم حرقوا بيت الله عزّ وجلّ، وتستردّون منهم بلاداً كانت لآبائكم الأوّلين الذين كانوا يُنصَرون على عدوّهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدّلوا وظلموا فسخط الله عزّ وجلّ عليهم فانتزع سلطانهم. وسلّط عليهم أذلّ أمّة كانت في الأرض عندهم!!! فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واسترقّوا أولادهم. فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم. ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البرّ والتقوّى من عترة رسول الله ﷺ فسلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشدّ عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر...

وقد عهد إليّ الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدّة

(1) الطبري، 6/55.

فينصركم الله عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم. فاصدقوا للقائهم واثبتوا لهم عند الحملة، فإن العاقبة لكم عليهم إن شاء الله».

عواقب الغفلة حرب المقادير:

لما بلغ نصر مقتل ابنه تميم وانكسار جنوده بالسوذقان، وكان مقيماً بقرية بذش[1] يرقب نتيجة المعركة الحاسمة إمّا له وإما عليه. فكتب إلى ابن هبيرة مرة أخرى يستغيثه ويستمدّه مع وجوه من أهل خراسان ممّن هم مع المروانيين يعظم عليه الأمر. فلما قدموا على ابن هبيرة سجنهم بدل أن يكرمهم ويوسع صدره للقائهم. ولو أنه خفّ لإنجادهم ولم يستشفه الغرور لقضى على برنامج أعمال قحطبة وقطع أطماع أبي مسلم. ولكن سوء نيّة ابن هبيرة وشدّة حسده لنصر بن سيّار على ولاية خراسان مكّن قحطبة من التوغّل في البلاد حتى أناخ على العراق وحفر المصرع الذي هوت فيه المروانيّة.

لما بلغ نصر ما فعله ابن هبيرة برُسُله كتب إلى مروان بن محمد: «إني وجّهت إلى ابن هبيرة قوماً من وجوه أهل خراسان يعلمونه أمر النّاس من قِبَلنا وسألته المدد والوفاء فاحتبس رُسُلي وأمسك عن مددي. وإنما أنا بمنزلة مَنْ أُخرِج من بيته إلى حُجْرته. ثم أُخرِج من حُجْرته إلى داره ثم أُخرِج من داره إلى فنائه. فإن أدركه مَن يُعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له. وإن أُخرج من داره إلى الطريق فلا دَارَ له ولا فناء».

فكتب مروان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمدّ نصراً وكتب إلى

(1) بذش قرية من قرى قومس، الطبري، 6/ 63.

نصر يخبره بذلك. فكتب نصر إلى ابن هبيرة يشحته، وممّا قاله في كتابه:

«إني قد كذبت أهل خراسان حتى ما رجلٌ منهم يصدّق لي قولي، فأمدّني بعشرة آلاف قبل أن تمدّني بمائة ألف ثم لا تغني شيئاً».

فأعرض عنه ابن هبيرة حتى يئس نصر وارتحل من بـذش ودخل خوار، وكان عاملها أبو بكر العقيلي. فوجّه قحطبة ابنه الحسن إلى قومس في المحرّم سنة 131 [سبتمبر 748م]. ثم ألحق به سبعمائة فارس من القوّاد والأجناد من خراسان عليهم أبو كامل. فلما تدانوا من خوار انحاز أبو كامل في ثلّة من رجاله وتجنّب عساكر الحسن بن قحطبة وانضمّ إلى نصر بن سيّار لما ساءه من خطاب قحطبة المتقدم، ثم أعلمه بموقع الجيش الذي خلّفه. فبعث إليهم جنده فأتوهم فحاصروهم. فاحتال جميل بن مهران وجنوده حتى فكّوا الحصار وفرّوا أدبارهم وخلّفوا شيئاً كثيراً من متاعهم غنيمة لأعدائهم.

ثم تحوّل نصر إلى الريّ وأقام به يومَيْن ثم مرض فكان يُحمَل حملاً، حتى إذا كان بساوة قريباً من همذان مات بها. فلما مات دخل أصحابه همذان.

وكانت وفاة نصر بن سيّار لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 131 [أكتوبر 749م] عن خمس وثمانين سنة[1].

---

(1) الطبري 46/6: «وقيل إنّ نصراً لما شخص من خوار متوجّهاً نحو الريّ، لم يدخل الريّ ولكنه أخذ المفازة التي بين الريّ وهمذان فمات بها».

وهو من أعظم رجال الدولة الأموية خطراً وأجلّهم قدراً وأسماهم مذهباً وأبعدهم ذكراً وأعلاهم صيتاً، رحمه الله.

ولمّا اتّصل بقحطبة موت نصر أقبل من جرجان إلى الريّ، وكتب بذلك إلى أبي مسلم. فتحوّل أبو مسلم من مرو إلى نَيْسابور حتى يكون قريباً من الجيش.

الحلقة التاسعة

«الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن»[1]:

عندما اتّصل ابن هُبَيْرة بموت نصر بن سيّار ومسير قحطبة إلى الريّ كتب إلى عامر بن ضُبَارة عامله على ولاية كرمان بالمسير إلى لقاء قحطبة. فنهد إليه في خمسين ألفاً، فنزل مدينة جيّ من ولاية إصبهان وكانوا يبالغون في وصف عسكر ابن ضبارة فيقولون عنه عسكر العساكر[2] لاحتوائه على أمهر القوّاد وأشجع الجنود وأفضل أنواع السلاح والعدّة. ويذكرون له خصالاً غالية في حروب الثورات. وقد سلف ذكر طرف منها في العراق وفارس.

ولما بلغ مسيره إلى قحطبة نهد إليه قسماً عظيماً من جيشه مؤلّفاً من فرق القوّاد: عمر أبي حفص المهلّبي وأبي حمّاد المروزي وموسى بن عقيل وأسلم بن حسّان وذُؤَيْب بن الأشعث وكلثوم بن شبيب ومالك بن طريف والمخارق بن عقال والهيثم بن زياد. وأمّر عليهم جميعاً العكّي[3]. فسار إلى أن نزل قمّ. وبلغ

---

(1) «الصَّيْفَ ضَيَّعْتَ اللَّبَن»: مَثَل يُضرَب لمن يطلب شيئاً قد فوّته على نفسه.

(2) الطبري، 6/65.

(3) هو مقاتل بن حكيم العكّي، الكامل، 5/398.

ابن ضُبارة نزول الحسن بن قحطبة في فرقة على نهاوند، فأراد المسير لحربه، وبلغ الخبر العكّي، فبعث إلى قحطبة يعلمه بذلك فأنجده بجيش إلى قاشان عليه زهير بن محمد. وخرج العكّي من قمّ وخلف بها طريف بن غيلان. فكتب إليه قحطبة يأمره بالمقام، ثم أقبل مسرعاً من الريّ ودنت منه طلائع ابن ضُبارة وكان بينهما مسافة فرسخ، فأقام أياماً ثم تعبّأ إليهم. وجعل جند العكّي على ميمنته ومجموع من معه من الجنود لا يزيدون عن عشرين ألف، وبلغت جيوش ابن ضبارة بعد التحشيد مائة ألف. وفي رواية للطبري مائة وخمسين ألف[1]. فأمر قحطبة بمصحف نُصِبَ على رمح، ثم نادى مناديه: «يا أهل الشام، إنا ندعوكم إلى ما في هذا الكتاب»، فشتموه وأفحشوا في القول. ولما سمع ذلك قحطبة أمر جنوده بالحملة وقال: «لن يفلحوا إذن أبداً».

وحمل العكّي وتهايج العسكران، فلم يكن بينهما كثير قتال حتى أدبر جند الشام وحصلت فيه مقتلة ذريعة وجُرِح ابن ضُبارة وأُخِذ معسكره فأصيب به ما لا يُدرَى عدده من الأسلحة والمتاع والكراع والرقيق. ويُحكَى عن قحطبة أنه قال: «ما لقيت جنداً أجمع مثل ما كان لعسكر الأمويّين بأصبهان من الخيل والسلاح والرقيق والملابس والتحف والفرش كأننا افتتحنا مدينة عظيمة، وأصبنا معهم من البرابط والطنابير والمزامير وآلات الطرب ما لا يحصى ويقل بيت أو خباء ندخله إلا أصبنا فيه زكرة وزقّاً من خمر»! . . .

---

(1) الطبري، 6/66.

وبعد أن أوتي قحطبة هذا النصر الهائل صدر إلى أصبهان، فمكث بها عشرين يوماً ثم لحق بابنه الحسن وكان محاصِراً لنهاوند أشهراً. فضيّق عليها بعد أن دعا [أهلها] إلى الطاعة ونصب عليهم المجانيق والعرّادات وأضرّ بهم كثيراً. ثم عاد وبعث إلى مَنْ بها من الخراسانيّين يدعوهم إلى الخروج وبذل لهم الأمان، فأبوا ذلك وأصرّوا مع الحامية على القتال. فعدل عنهم وأرسل الحامية بالأمان فقبلوا منه ذلك بعد أن أنهكهم الحصار ثلاثة أشهر: شعبان ورمضان وشوال، والتمسوا من قحطبة أن يشغل عنهم أهل المدينة حتى يفتحوا الباب دون أن يشعروا بهم. فشغلهم قحطبة بالقتال، فأسرع الجند إلى فتح الباب الذي كان من قِبَلهم. فلما رآهم الخراسانيّون يخرجون بغير قتال سألوهم عن ذلك، فقالوا: «إننا أخذنا الأمان لنا ولكم». فصدّقهم الخراسانيون وخرجوا معهم فأمر قحطبة جنوده بالقبض على الخراسانيّين ثم أمر مناديه فنادى: «مَنْ كان في يده أسير خراساني فليضرب عنقه». فقُتِلوا جميعاً ما خلا [أهل الشام][1]، فإنه خلّى سبيلهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق أن لا يمالئوا عليه عدوّاً وملك نهاوند.

العمليّـات الفنيّـة:

إن من يفتح مصوّر الجغرافيا لفارس والعراق ويتتبّع سير العمليّات العسكرية الدقيقة التي أبدع فيها الجيشان المتحاربان في وقائع هذه الحرب يجزم أنها كانت حرباً فنيّة محض، لا فحسب من حيث التعبئة والنقل والمواصلات والتموين، بل كذلك من

---

(1) في الأصل «ما خلا حامية الأمويّين»، الطبري، 6/ 67 ـ 68.

حيث قواعد الهجوم والتقدّم والتأخّر ونصب الجيوش واختيار الموقع ومعرفة الطرق والخبرة بالمسالك ومآخذ الأعداء وحرق المصافّ والإحداق والطيّ والنشر ومأتى الفصل بين الجنود إلى غير ذلك مما شوهد في هذه الحرب. وهو يدلّ على أن الحرب في ذلك العهد كانت مُنظَّمَة مُسَيَّرة بخرائط مرسومة على أبدع الأشكال الهندسية التي يجري عليها العصريّون، وإلّا فالذكاء وحده مهما تسامر لا يستقيم في الأعمال مقام الفنون والرسوم. وليس فقدها من أيدينا بدليل على عدم كونها، والآثار ناطقة به وهي شاهد غير مريب.

تعبئة قحطبة بن شبيب للجيش:

قسّم قحطبة جيشه إلى فرقتين: فرقة لإشغال جند مروان بن محمد بولاية الموصل، والفرقة الثانية لمناجزة قوّات ابن هبيرة التي على العراق. وكانت الفرقة الأولى مؤلفة من أربعة آلاف عليها أبو عَوْن بن عبد الملك ومالك بن طريف الخراسانيَّيْن، والثانية [تضمّ] ستة عشر ألفاً، تقلّد إمارتها قحطبة نفسه. وأمر أبا عون أن يسير من نهاوند إلى مضايق شهرزور ويعسكر هناك ويشغل مقدّمة عساكر مروان بن محمد حتى يعبر هو وجيشه دجلة إلى العراق ويقطع خطوط الاتّصال بين جند ابن هبيرة وجند مروان، عند ذلك يتقدم أبو عون إلى احتلال مدينة شهرزور ويأخذ المخانق على مروان.

فخرج أبو عون إلى الموصل وسار قحطبة إلى العراق، وكانت مسالح الجيشين السائرة في المقدمة تملأ البطاح والآكام.

عمليّات أبي عَوْن:

سار أبو عون في تعبئته إلى أن بلغ النقطة المعيّنة له من طرف القيادة العامة وهي واقعة على بعد فرسخين من شهرزور فعسكر هناك. وكان على المدينة عثمان بن سفيان قائد مقدمة عبد الله بن مروان بن محمد، فأقام مكانه يومين. وفي اليوم الثالث اتّصل بعبور قحطبة إلى العراق. فقصد المدينة موفى عشرين ذي الحجة سنة 131 [أغسطس 749م][1] فدخلها عنوة بعد أن قتل عثمان وانهزمت عنه الجنود. وبعث أبو عون إسماعيل بن المتوكّل الخراساني ببشارة الفتح إلى القائد العام، وسرّح مسالحه للاستيلاء على المخانق والمضايق الحاكمة في طرق المواصلات. ولما علم مروان بن محمد ما كان من أمر أبي عون ارتحل من حرّان بجنود الشام والجزيرة والموصل واحتشد في جيوشه شبان الأمويّين وأبناء الأمراء والقوّاد وأقبل مسرعاً إلى مدينة الموصل وجعلها مركزاً لجيشه العام، ثم شرع في حفر الخنادق وأنتقل من خندق إلى خندق حتى نزل الزاب الأكبر وبادر من ساعته لإنجاد ابن هُبَيْرة بعشرين ألفاً عليهم قائده النبيل حوثرة بن سهيل [الباهلي] قبل انقطاع المواصلات مع العراق.

وأقام أبو عون بشهرزور بَقيّة ذي الحجة [131/أغسطس 749م] والمحرّم من سنة 132 [سبتمبر 749م]، ينتظر الأوامر التي تصدر إليه من القائد العام للجيوش الخراسانيّة.

---

(1) في الأصل «سنة 130»، والتصحيح من الطبري، 6/69.

خروج ابن هبيرة لقتال قحطبة:

لما علم يزيد بن عمر بن هبيرة الوالي العام للعراق عواقب تهاونه بإنجاد نصر بن سيّار إثر انكسار جند ابن ضبارة وانهزام ابنه في واقعة حلوان، استعدّ وخرج في جيوش لا تحصى وكان معه القائد حوثرة بن سهيل الباهلي في جنوده، وجعل على ساقته زياد بن سهل الغطفاني وسار في تعبئته من الكوفة حتى نزل جلّولاء فأصلح الخندق الذي كانت العجم احتفرته أيّام وقعة جلولاء الشهيرة. وأقام به يراقب سير حركات قحطبة، وهو في زعمه أنه سيعطيه ضربة حاسمة.

مناورات قحطبة الفنية:

قدم قحطبة منصرفة من نهاوند إلى قرماسين ثم دخل حُلْوَان وأجلى عنها يزيد بن هبيرة، ثم تحوّل إلى خانقين، ثم ارتحل فجأة من خانقين. فخاف ابن هبيرة أن يأتيه من خلف فارتدّ عن جلولاء إلى الدسكرة وحاز قحطبة موقع دجلة ومضى حتى نزل دمما دون الأنبار. فأسرع ابن هبيرة مبادراً إلى الكوفة، فنزل في الفرات على شرقي مسير جيوش قحطبة، وسرّح حوثرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة. وسار قحطبة حتى قطع الفرات من دممّا غربي جيوش ابن هبيرة جادّاً نحو الكوفة حتى يحدق بجيوش حوثرة.

ولما انتهى إلى نقطة مسامية لابن هبيرة سرّح ابنه الحسن في طليعة لاكتشاف مراكز وحركات العدوّ فوجده آخذاً في الرجوع إلى خنادقه بجلولاء فأسرع بالخبر لأبيه وأعلمه بمكان ابن هبيرة.

فدعا قحطبة قوّاده وعقد مجلساً عسكريّاً للنظر في التدابير التي

تمكّنه من الاستيلاء على جيش العدوّ وتمزيقه. فقرّروا أنه ينبغي لذلك سلوك طريق تخرجهم للكوفة لا تمرّ بمواقع ابن هبيرة. فرسم لهم خلف بن المورع الهمذاني، وكان عالماً بالمساحة والفنون الهندسية، طريقاً يبتدىء من نقطة «وشقباذ»[1] ثم يعبر تامراً ويلازم الجادّة إلى بُزُرْج سابور وعكبراء فتقرّر سلوكه.

وقبل قيام الجيش أمر قحطبة خازم بن خزيمة بعبور دجلة والمسير بين دجلة ودُجَيْل حتى ينزل كوثباً وينتظر هناك إلى أن توافيه أوامره. ولما وافاها وردت إليه الأوامر بالمسير إلى الأنبار وأن يحدر إليه السفن ويوافيه، فصدع بذلك ووافاه بالسفن إلى دِمِمّا وعبر الفرات في المحرم سنة 132 [أغسطس 749م] وبعث أثقاله في البريّة وسيّر الفرسان معه في مجنبته على شاطىء الفرات.

وكان ابن هُبَيْرة معسكراً على فم الفرات من أرض الفلوجة العليا على رأس ثلاث وعشرين فرسخاً من الكوفة، وقد اجتمع إليه فلّ ابن ضُبارة وجيش حوثرة وكانوا نحو ثلاثين ألفاً.

ولما سار قحطبة صوب الكوفة وأعرض عن تتبّع ابن هبيرة، قال حوثرة وخاصّة أجناد الشاميّين: «دع أيها الأمير قحطبة يمضي إلى الكوفة واقصد أنت خراسان ودَعْه ومروان فإنك تكسره (وتستأصل أمر أبي مسلم) وبالحريّ أن يتبعك». فقال: «ما هذا برأي ـ وكان معجباً برأيه ـ ما كان (قحطبة) ليتبعني ويدع الكوفة. ولكن الرأي أن أبادره إلى الكوفة». فوافقوه على كره وكان في

---

(1) كذا في الأصل، وفي الطبري، 6/71، «روستقباذ».

ذلك عطبهم. فتحوّل ابن هبيرة بعسكره عن الفلّوجة واستعمل على مقدّمته حوثرة بن سهيل وأمره أن يسرع نحو الكوفة. فكان الفريقان يسيران على شاطىء الفرات: ابن هبيرة يسير بين الفرات وسور وقحطبة في غربيّه ممّا يلي البرّ.

وبينما كان قحطبة يسير إذ عبر إليه أعرابي في زورق فسلّم عليه فقال: «ممّن أنت»؟ ـ قال له قحطبة: «من طيّء». ـ فقال الأعرابي: «اشرب يا أخا طيّء من هذا الماء واسقني سؤرك». فغرف قحطبة في إناء فشرب وسقاه. فقال الأعرابي: «الحمد لله الذي نسأ أجلي حتى رأيت هذا الجيش (المبارك) يشرب من هذا الماء». ـ قال قحطبة: «ألك علم بأمرنا»؟ ـ قال: «نعم»! ـ قال: «فمن أنت»؟ ـ قال: «من بني نبهان». ـ فقال قحطبة: «يا أخا نبهان هل هنا مخاضة»؟ ـ قال: «نعم! وأدلّك على خبير بها وهو السندي بن عاصم». فأرسل إليه قحطبة فجاء ودلّه على المخاضة[1].

الواقعة الهائلة ومقتل قحطبة:

لم يُمْسِ يوم الثلاثاء السابع من المحرم سنة 132 [25 أغسطس 749م] حتى توافت مقدّمة الجيشين على المخاضة: مقدمة ابن هبيرة في عشرين ألفاً عليها حَوْثَرة، ومقدمة الخراسانيين في نحو أربعمائة من الصيد يقودهم قحطبة. فاقتحمها الجيشان ولم يحجر بينهما اللّيل حتى ارتدّت عساكر ابن هبيرة واجتازتها العساكر الخراسانية. ولما أصبح الخراسانيون فقدوا

(1) نقلاً عن الطبري، 6/71 ـ 72، بتصرّف.

قائدهم الكبير العبقري قحطبة، وأخذوا يتساءلون عنه بلهف حتى نعاه إليهم الناعون وقالوا: «ذهب شهيد الواجب»!.

حكى عنه خيران أو يسار[1] مولاه قال: «قال لنا مولاي لما وقف على المخاضة، وقد دنت الشمس من الغروب ليلة الأربعاء من المحرم أن الإمام أخبره أن نصره في هذا المكان. فأمر في تلك الساعة بتفريق العطاء على الجند واقتحمها في عدد قليل من صناديده، فقاتلوا جنود حوثرة حتى نحوّهم عن الشريعة وهزموهم وفرّ حوثرة إلى قصر ابن عبيرة ونحن فقدنا قحطبة».

وحكى أبو الذيال قال: «عثر أبو الجهم على قحطبة مجندلاً في المخاضة فدفنه». وذكر بعض من حضر مقتل قحطبة أن معن بن زائدة الإيادي المشهور ضربه بسيفه على حبل عاتقه فأسرع فيه السيف ـ وقد كان يسرع إلى استئصال الجنود ـ فسقط في الماء، فأجرناه، فقال: «شدّوا يدي»، فشددناها بعمامته، فقال: «إن متّ فألقوني في الماء لئلا يعلم الجند بقتلي فينهزمون». وقال قبل أن يلفظ النفس الأخير: «إذا قدمتم الكوفة فعليكم بوزير الإمام أبي سلمة الخلال، فسلّموا هذا الأمر إليه واسمعوا له وأطيعوا».

ولما علم الجند بموت قحطبة قام رجل منهم فقال: «مَنْ كان عنده عهد من قحطبة فليعلنه». فقال كبير القوّاد مقاتل العكّي: «سمعت قحطبة يقول: «إن حدث لي حدث فالحسن ابني أميركم». فتقدّم إليه أبو الجهم وأعطاه خاتم أبيه، فبايعه الجند.

(1) في الأصل «أوسار»، والتصحيح من الطبري، 6/72.

فقال الحسن للجند: «إن كان قحطبة قد مات فأنا ابن قحطبة وأنا كافيكم».

وحكى المؤرخون أن ابن هبيرة انهزم في هذه الواقعة انهزاماً شنيعاً بهزيمة حوثرة حتى ترك معسكره بما فيه من الأموال والأسلحة والمؤن والآلة والزينة. ومضت به الهزيمة هو وعسكره حتى قطعوا جسر الصراة وساروا ليلتهم حتى أصبحوا بفم النيل[1].

ولما أُسنِدت قيادة الجيش الخراساني إلى الحسن بن قحطبة وهو لم يكن دون أبيه كفاءة وشجاعة وعلماً ومضاء، أمر بإحصاء الغنائم التي خلّفها ابن هبيرة ووكل بها أبا النصر الخراساني وضمّ إليه مائتي فارس وأمره بحملها في السفن إلى الكوفة. ثم ارتحل الحسن بالجنود إلى أن وافى كربلاء، ثم ارتحل فنزل سوراً[2]، ثم نزل بعدها دير الأعور، ثم تحوّل إلى العبّاسيّة زاحفاً إلى الكوفة.

قيام الدعوة بالكوفة وظهور أبـي سلمة الخلّال[3]:

كان أبو سلمة الخلّال منذ تقلّد أمر آل محمد رابضاً في مخبئه من بني سلمة بالكوفة يدبّر الأمر في خفاء ويسيّر الرجال والبعوث إلى النواحي والأقطار، حتى أقبل قحطبة بالجنود إلى العراق، فكان ينتظر حدوث واقعة فاصلة على الفرات ليثب على الأمر ويجهز على بقايا الأمويّين. غير أن الأحداث التي تطفو خلال الانقلابات ليس لها حدّ من المنطق ولا نظام مسنون، لأنها

(1) المصدر المذكور، 6/ 74.
(2) في الأصل «ثم سار إلى سوار» والتصحيح من الطبري.
(3) هو أبو سَلَمَة حفص بن سليمان مولى السبيع المعروف بالخلّال، الطبري، 6/ 79.

تابعة لناموس خفيّ يأتي بالغثّ والسمين إلى أن يتمخّض الزبد عن صرح.

كانت الكوفة محشوّة بشرطة الأمويّين وجواسيسهم لا تغفو لهم عين من شدّة التيقّظ والانتباه، وهي عاصمة الأحزاب والاضطرابات السياسية، وكان عليها لابن هبيرة زياد بن صالح الحارثي، وهو معروف بالصرامة والعزم. وكان يلي شرطته عبد الرحمان بن بشير العجلي، وهو رجل الشرطة الصميم. لكن إذا نزل القضاء لم يفد الحذر ولا تغني النّذر ولا الصرامة. فقد باغتهم وهم أيقاظ محمد بن خالد القسري الموتور على الأمويّين بقتل أبيـه فجر ليلة عاشوراء من محرم سنة 132 [27 أغسطس 749م] في إحدى عشر رجلاً من مواليه وخاصّته وسار إلى قصر الحكومة. ولم تكن بلغت الكوفة ليلتئذٍ أخبار هزيمة ابن هبيرة ولا غيرها، ففرق منه الوالي ورئيس الشرطة وغيرهما من المأمورين، فركنوا إلى الفرار تحت جنح الليل. وأصبحت الكوفة يوم عاشوراء في قبضة الثائر الجسور. فقام ودعا الناس إلى بيعة الرضا من آل محمد.

وفي صبيحة اليوم الثاني من مقتل قحطبة بلغ الناس نزول حَوْثَرة ومن معه من الجنود مدينة ابن هبيرة لقتال محمد بن خالد. فتخلّف عنه من بايعه من الناس إلاّ مواليه وفرسانه من اليمانيّة كانوا هربوا من مروان. وبلغ ذلك أبا سلمة الخلّال فأمعضه. وكتب إليه يأمره بالخروج من القصر واللّحاق بأسهل الفرات خوفاً عليه أن يفتك به حَوْثَرة، وكان لم يتّصل بأحدهما خبر مهلك قحطبة. فأبـى محمد بن خالد أن يمتثل إلى أمر أبـي سلمة وأصرّ على المقاومة والثبات. ولما تعالى النهار وأشرفت طلائع حوثرة

على الكوفة، وجّه إليهم محمد بن خالد مسلحة من مواليه، فالتزموا باب دار عمر بن سعد، فطلعت عليهم رايات الأمويّين، فتهيّأوا لقتالهم فنادى من تحتها الجند: «نحن من بجيلة وفينا مليح بن خالد البجيلي جئنا لندخل في طاعة الأمير محمد»، فدخلوا. ثم أردفتها خيل أعظم منها مع قائد من آل بحدل فانضمّت أيضاً إلى محمد. فلما رأى حوثرة انتكاث جنوده انقلب بمن معه نحو واسط، وخلا الجوّ لمحمد بن خالد القسري. فكتب من ليلته إلى قحطبة يعلمه أنه ضبط الكوفة وعجّل به مع فارس، فقدم به على الحسن بن قحطبة. فلما دفع إليه الكتاب قرأه على الجند ثم شرع في السير نحو الكوفة. ومكث محمد بن خالد ينتظر أوامر قحطبة، يوم الجمعة والسبت والأحد. فصبحه الحسن يوم الاثنين، فأتوا أبا سلمة الخلّال وزير آل محمد وكان مختفياً يبيع المخلّلات والطعام (طبّاخ) تقيّةً، ويرد عليه النقباء والدعاة لتلقّي أوامره في هيئة مستطعمين، وبذلك غلب عليه لقب الخلّال ولم يكن يُعْرَف به من قبل. فأخرجوه من مخبئه وقدّموا له دابّة من دوابّ قحطبة، فركبها وجاء حتى وقف في ساحة السبيع[1] وبايع له جند خراسان ولُقّب يومئذٍ بالأمير. فأقرّ محمد بن خالد بن عبد الله القسري على الكوفة، وكانت عليها ولاية آبائه من قبل، اعترافاً ببلائه وعزمه وحزمه ونشاطه. وقسّم جيش خراسان إلى فرقتين أناط قيادتهما بابنيْ قحطبة الحسن وحميد. فسيّر فريق الحسن إلى واسط لقتال ابن هبيرة، وضمّ إليه من القوّاد خازم بن خزيمة ومقاتل بن حكيم العكّي وخفاف بن منصور وسعيد بن عمر

(1) كذا في الأصل، وفي الطبري، 6/76، «جبّانة السبيع».

وزياد بن مشكان والفضل بن سليمان وعبد الكريم بن سلم وعثمان بن نهيك وزهير بن محمد والهيثم بن زياد وأبا خالد المروزي وغيرهم وكانوا ستّة عشر قائداً. ووجّه حميد بن قحطبة إلى المدائن وأمره أن يصحب معه من القوّاد عبد الرحمان بن تميم ومسعود بن علاج مع جنودهما. وسيّر المسيّب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى، والمهلّب وشراحيل إلى عين التمر، وبسّام بن إبراهيم بن بسّام إلى الأهواز، فصدعا بأمره. وخرج الأمير أبو سلمة فعسكر عند حمّام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة[1].

فالتحق عمّا أبـي سلمة بالولايات وسار بسّام إلى الأهواز وكان عليها للأمويّين عبد الواحد بن هبيرة أخو يزيد، فخرج منها إلى البصرة.

وكتب أبو سلمة إلى سفيان بن معاوية[2] بعهده على البصرة وأمره بإظهار الدعوة للقائم من آل محمد. . . وبقي سلم بن قتيبة عاملها. فكتب سفيان إلى سلم بالتحوّل عن دار الإمارة ويخبره بما أتاه من أمر أبـي سلمة، فأبـى ذلك سلم فحشد بسّام مع سفيان جميع اليمانيّة وحلفاءهم من ربيعة وغيرهم، وانضمّ إليهم قائد من قوّاد ابن هبيرة وكان بعثه مدداً لسلم في ألفَيْ رجل من كلب. فأجمع سلم على قتالهم وحشد معه من قدر عليه من قيس وأحياء مضر وسارع إليه مَنْ بها من بني أميّة ومواليهم.

فقدم سفيان في صفر [132/ سبتمبر 749م] فأتى سلم المربد فوقف منه عند سوق الإبل ووجّه الخيل في سكك المربد

---

(1) نفس المصدر.

(2) هو سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب، الطبري، 6/76.

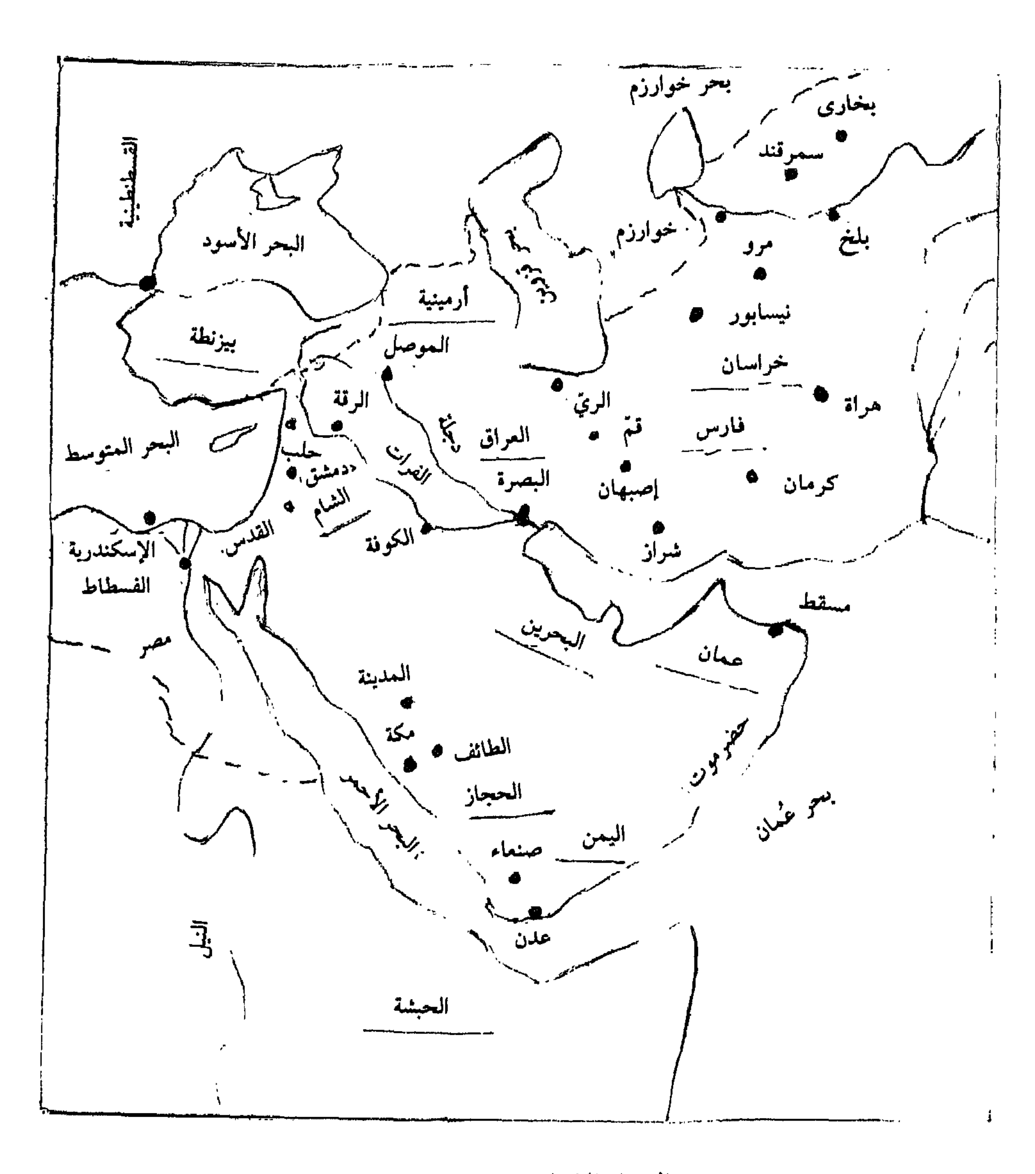
والبصرة ونادى: «من جاء برأس فله خمسمائة درهم ومن جاء بأسير فله ألف». ومضى معاوية بن سفيان بن معاوية في ربيعة خاصّة، فلقيه رجل من تميم في سكّة بني عامر التي تأخذ للمربد، فشرع رمحه فطعن به فرس معاوية فشبّ به فصرعه، فنزل إليه رجل من بني ضبّة يقال له عياض فقتله وحمل رأسه إلى سلم بن قتيبة فأعطاه ألف درهم فانكسرت همّة سفيان لقتل ابنه، فانهزم بمن معه وخرج من فوره هو وأهل بيته حتى نزلوا القصر الأبيض ثم ارتحلوا منه إلى كسكر[1].

وقدم على سلم بعد غلبته على البصرة جابر بن توبة الكلابي والوليد بن عتبة الفراسي في أربعة آلاف أمدّه بهم ابن هبيرة وهو مقيم بالأهواز. فغدا جابر بمن معه على دور المهلّب وسائر الأزد، فأغاروا عليهم. فقاتلهم مَنْ بقي من الأزد قتالاً شديداً حتى فشت القتلى فيهم فانهزموا. فسبى جابر ومن معه من النساء وقتلوا الأطفال وهدّموا الدور وانتهبوها واستمرّ ذلك ثلاثة أيّام.

وبقي سلم عاملاً على البصرة حتى قُتِل يزيد بن هبيرة، فشخص عنها، فاجتمع مَنْ بها من ولد الحارث بن عبد المطلب إلى محمد بن جعفر فولّوه أمرهم، فوليهم أيّاماً حتى قدم البصرة أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي من قِبَل أبي سلمة الخلّال فوليها خمسة أيام.

ولما بويع أبو العبّاس عبد الله السفّاح أعاد إليها سفيان بن معاوية تلطيفاً لما كان أصابه بها من النكبة في ابنه معاوية.

(1) المصدر المذكور، 6/ 77.



الشرق الإسلامي عند سقوط

الدولة الأمويّة (750م)

الحلقة العاشرة

نكبة إبراهيم الإمام وظهور الخلفاء العباسيّين:

قدّمنا أن الدعوة لم تكن لرجل معيّن وإنما كانت للرّضى من آل محمد، وليس أحد يعلم مَنْ هو غير النقباء ومن لفّ لفّهم من خاصّة الرجال.

وأوّل من ظهر على أمره وكشفه للناس الأمير نصر بن سيّار عامل المروانيّين على خراسان، وقد أشرنا إلى ما كتبه عنه إلى أمير المؤمنين مروان بن محمد. فبعث مروان إلى عمّاله في الآفاق، فأخذ الطرق على المسافرين ومراقبة حال المجهولين والمشتبه في أمرهم عساه يجد ما يؤاخذ به إبراهيم الإمام[1] وغيره من النازعين إلى العمّال على سكك العراق على رسول يحمل كتاباً بخطّ إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يجيب به على كتاب سيّره إليه يستشيره في أمر العرب بخراسان، وقد أمره فيه بقتل كلّ من يتكلّم بالعربية في خراسان، وأن لا يبقي فيها على أحد منهم، فسيّر الكتاب إلى مروان. ولما وقف عليه لم يشكّ أنه خطّ إبراهيم الإمام، فأمر أن يُكتَب إلى عامل البلقاء أن يسيّر إلى الحُمَيْمَة مَنْ

(1) هو إبراهيم بن محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس، الطبري، 6/78.

يأخذ إبراهيم الإمام ويوجّهه إلى حرّان. ولما أُخِذَ إبراهيم بن محمد نعى نفسه إلى آل بيته وأمر قرابته بالمسير مع أخيه أبي العبّاس إلى العراق واللّحاق ببيعة عبدالله السفّاح، وأمر له بالسمع والطاعة وجعله الخليفة بعده. بعد ذلك شخص أبو العبّاس ومعه من أهل بيته: أبو جعفر عبدالله بن محمد وداود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبدالله وعبد الصمد بنو علي ويحيى بن محمد وعيسى بن موسى بن محمد وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم وموسى بن داود ويحيى بن جعفر. وسار حتى قدم الكوفة في صفر سنة 132 [سبتمبر 749] وأنزلهم أبو سلمة الخلّال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود وكتم أمرهم على الناس نحواً من أربعين ليلة ولم يُعلِم بخبرهم أحداً من النقباء والدعاة ولا القوّاد. وسيق إبراهيم الإمام إلى مروان وهو بحرّان فأمر به إلى المطبق (السجن تحت الأرض) حتى يتفرغ لأمره.

ونُقِل عن عبد الحميد الكاتب بن يحيى[1] المشهور وزير مروان قال: «قلت لمروان بن محمد أتتّهمني [يا أمير المؤمنين في ولائي لـك وبلائي في خدمتك والنصح لك»؟][2] ـ قال: «لا». ـ قلت: «أفَيَحُطك صهره»؟ ـ قال: «لا». ـ قلت: «فإني أرى أمره ينبغ عليك، فأنكحه وأنكح إليه، فإن ظهر كنت قد أعلقتَ بينك

---

(1) هو أبو غالب عبد الحميد المعروف بالكاتب. اتّصل بمروان بن محمد عامل أرمينية فكتب له. ولما بويع مروان بالخلافة سنة 126/745 نقله معه فأصبح كتاب الخلافة.
وعندما اندلعت الثورة بخراسان وقُتِل مروان بن محمد، قُبِض على كاتبه عبد الحميد وقُتِل سنة 132/750.

(2) زيادة من الطبري ساقطة من الأصل.

وبينه سبباً لا ترتبك معه، وإن كفيته لم يشنك صهره» ـ قال: «ويحك لو علمته صاحب ذاك لسبقتُ إليه، ولكن ليس بصاحب ذلك»[1].

وتركه في المطبق إلى أن مات، ويقولون إنه مات مسموماً بكأس من لبن أُسقِيَه بأمر مروان. ويقول آخرون إنه مات بالطاعون في جملة من مات به في السجن. والذي يغلب على الظنّ أنه مات قتيلاً والله أعلم بالحقيقة.

تردّد أبي سلمة في البيعة لبني العبّاس:

علم أبو سلمة بموت إبراهيم الإمام في سجن مروان فكتمه كما كتم وصول خليفته وقرابته إلى الكوفة. ويذهب المؤرخون في تعليل ذلك بما بدا له في أولاد العبّاس وأنه أضمر الدعاء لغيرهم من نسل الزهراء وهم أدنى قرابة من الرسول من أبناء الأعمام. ويقولون إنه كان هواهم فيه، وإنما يكتمه عن الناس وهو أكتم مَنْ عُرِف للسرّ. حتى كان إذا سُئِل عن الإمام يقول: «لا تعجلوا»! وسأله مرّة أبو الجهم: «ما فعل الإمام»؟ ـ قال: «لم يقدم بعد». فألحّ عليه يسأله، فقال: «قد أكثرت وليس هذا وقت خروجه، وإيّاك أن تعود لمسألتي».

ظهور أبي العبّاس السفّاح وبيعته بالخلافة:

كان أبو سلمة يريد أن يخفيه فأظهره الله. ويذكرون في سبب ظهوره صدفة غريبةً. ذلك أن النقيب أبو حميد[2] خرج يوماً من حمّام أعين يريد الكناسة، فلقي خادماً لإبراهيم الإمام يقال له

---

(1) المصدر المذكور، 6/80.

(2) في الأصل «أبو أُسَيْد»، والتصحيح من الطبري، 6/81.

سابق الخوارزمي فعرفة وكانت له به سابقة، فقال: «يا سابق أين الإمام إبراهيم»؟ فأخبره أن مروان بن محمد قتله غيلة وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبـي العبّاس واستخلفه من بعده وأنه قدم الكوفة ومعه عامّة أهل بيته وأن أبا سلمة يأمرهم بالاختفاء وعدم الظهور للناس. فقال: «خذني معك إليه». فقال: «أستأذنه وأعود إليك»، وانصرف.

فجاء أبو حميد إلى أبـي الجهم فأخبر خبرهم فقال: «إن أتاك سابق فصيّره إليّ». فأتاه به فأذاع ما قاله لأبـي حميد النقيب، فسرّح معه أبا حميد حتى عرف منزلهم بالكوفة. ثم رجع وجاء معه إبراهيم بن سلمة رجل معهم، فأخبر أبا الجهم عن منزلهم ونزول الإمام بني أود وأنه حين قدم أرسل إلى أبـي سلمة يسأله مائة دينار يعطيها الجمّال كراء الجِمال التي قدم عليها، فلم يبعث بها إليه. فمشى أبو الجهم وأبو حميد ومعهما إبراهيم بن سلمة حتى دخلوا على موسى بن كعب، فقصّ عليه أبو الجهم الخبر، فقال موسى بن كعب: «عجّل إليه البعث بالدنانير وسرّحه». فانصرف أبو الجهم إليهم ودفع الدنانير إلى إبراهيم بن سلمة وحمله على بغل. وشاع يومئذ في العسكر أن مروان بن محمد قتل إبراهيم الإمام. فذكر أبو الجهم لأبـي سلمة الحديث على أنه من قبيل الإشاعات الدائرة على الألسن وأنه إذا صحّ مقتل الإمام كان أخوه أبو العبّاس الخليفة والإمام من بعده. وكان قصده أن ينفذ إلى أعماق سرّه، لكن هيهات أن يدرك أحد غَوْر رجل مثل أبـي سلمة أو ينال منه شيئاً. فكان جوابه لأبـي الجهم: «أكفف يا أبا الجهم أبا حميد عن دخول الكوفة فإنهم أهل أرجاف وفساد»،

وسكت. ففهم أبو الجهم أن وراء الأكمة سرّاً خفيّاً وأن أمره لمشبه.

فلما كانت الليلة الثانية أتى إبراهيم بن سلمة أبا الجهم وموسى بن كعب، فبلّغهما رسالة من أبـي العباس السفاح يدعو بها القوّاد للحضور إليه. واجتمع القوّاد والدعاة تلك الليلة في منزل موسى بن كعب، منهم عبد الحميد بن ربعي وسلمة بن محمد وعبد الله الطائي وإسحاق بن إبراهيم وشراحيل وعبد الله بن بسّام وغيرهم فأتمروا في الدخول إلى أبـي العباس خفية من أبـي سلمة ثم تسلّلوا من الغد، وزعيمهم موسى بن كعب وأبو الجهم وأبو حميد الحميري. فانتهوا إلى دار الوليد بن سعد، فدخلوا عليهم، فسألوا: «أيّكم أبو العباس»؟ فأشاروا إليه. فسلّموا عليه وعزّوه بالإمام إبراهيم وانصرفوا إلى المعسكر وخلّفوا عنده أبا حميد وأبا مقاتل وسليمان بن الأسود ومحمد بن الحسين ومحمد بن الحارث ونهار بن حصين ويوسف بن محمد وأبا هريرة محمد بن فروخ.

وبلغ أبا سلمة دخول أبـي الجهم الكوفة. فدعاه فقال: «أين كنت يا أبالجهم»؟ قال: «كنت أيّها الأمير عند إمامي»!.. وخرج.

ولما علم أبو سلمة بانتكاث أبـي الجهم دعا حاجبه[1] صدّان فبعثه إلى الكوفة، فقال: «ادخل على أبـي العبّاس وسلّم

---

(1) هكذا في الأصل وفي الطبري، 6/87:
«وخرج أبو الجهم فدعا حاجب بن صدّان فبعثه إلى الكوفة وقال له: ادخل فسلّم علي أبـي العباس بالخلافة. وبعث إلى أبـي حميد وأصحابه إن أتاكم أبو سلمة فلا يدخل إلا وحده. فإن دخل وبايع فسبيله ذلك وإلاّ فاضربوا عنقه».

عليه بالخلافة واعلمه بقدومي الغداة». فبعث أبو العباس السفاح إلى أبـي حميد ومَن بحضرته من القوّاد: «إذا أقبل أبو سلمة فدعوه يدخل عليّ منفرداً، فإن بايع فسبيله ذلك، وإلاّ فاضربوا عنقه».

فلما أقبل أبو سلمة تخلّوا عنه فدخل على أبـي العباس منفرداً فسلّم عليه بالخلافة. فأمره أبو العبّاس بالانصراف إلى عسكره فانصرف من ليلته، فأصبح الناس عليهم لباس الزينة والسلاح واصطفّت العساكر ورفعت الرايات والأعلام. وأوتي بالخيل لركوب أبـي العبّاس وخروجه إلى دار الإمارة، فركب برذونا أشهب وركب معه آل بيته وساروا إلى قصر الإمارة وذلك يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر [سنة 132/ 16 نوفمبر 749م]. ثم تحوّل من القصر ودخل إلى المسجد بعد أن بويع بالإمارة. فرقى المنبر وقام في أعلاه، وصعد عمّه داود بن علي فوقف دونه. وارتجل كلّ منهما خطاباً سياسياً عرضا فيهما السيرة والأماني التي سيقيمان عليها الدولة التيوقراطية[1]. ومن الأسف أن رواة تاريخنا لم يتركوا شيئاً لم ينقلوه إلاّ ما كان من أثر هذين الخطابين في عاصمة المذاهب والأحزاب والعلم والأفكار. ونحن وإن فاتنا الوقوف على ما كان من أثرهما في ذلك العهد فلا يفوتنا أثرهما في المعاصرين وحكم التاريخ واحد.

---

(1) دولة تيوقراطية (Théocratique) أي دولة دينية يشرف عليها رجال الدين.

خطـاب السفّـاح :

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة وتشرفة وعظمة واختاره لنا وأيّده بنا وجلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابّين عنه والنّاصرين له وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها وخصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأ من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقّنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عَنِتْنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً[1]، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتْلَى عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2] وقال: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾[3] وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[4] وقال: ﴿مَا أَفَاءَ آللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى وَاليَتَامَى﴾[5] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى﴾[6]. فَأَعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقّنا ومودّتنا وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا وفضلاً علينا

---

(1) تضميناً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾. سورة التوبة، الآية 128.

(2) سورة الأحزاب، الآية 33.

(3) سورة الشورى، الآية 23.

(4) سورة الشعراء، الآية 214.

(5) سورة الحشر، الآية 7.

(6) سورة الأنفال، الآية 41.

والله ذو الفضل العظيم. وزعمت السبائية الضلال أن غيرنا أحقّ بالرئاسة والخلافة منّا فشاهت وجوههم بِمَ ولِمَ أيّها الناس وبنا هَدَى الناس بعد ضلالتهم وبصّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحقّ وأدحض بنا الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيسة وتمّ بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم ودنياهم إخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منّة ومنحة لمحمد ﷺ. فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم فحوَوْا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خِمَاصاً منها. ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم جيناً حتى آسفوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقّنا وتدارك بنا أمّتنا وولّى نصرنا والقيام بأمرنا لِيَمُنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير. ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح. وما توفيقنا أهل البيت إلاّ بالله.

يا أهل الكوفة، أنتم محلّ محبّتنا ومنزل مودّتنا، أنتم الذين لم تتغيّروا عن ذلك ولم يُثْنِكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتي أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا. فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدّوا فأنا السفّاح المبيح والثائر المبير»[1].

(1) الطبري، 6/82 ـ 83.

ثم جلس وسكت دون أن يتمّ الخطبة، ويقول المؤرخون إنه كان موعوكاً فاشتدّ به الوعك فأمسك. ثم تلاه عمّه داود بن علي وكان كما ذكرنا واقفاً على المنبر دونه. فقام إثره وخطب، وكان من أدهى الناس وأكثرهم اطّلاعاً على الأمور وأنفذ نظراً وأبعد غايةً من السفّاح. ولذا كان خطابه أوضح من حيث تصوير وضعيّة وشكل الحكومة وأشبه بخطب رؤساء الحكومات من خطاب السفّاح.

خطاب دواد بن عليّ[1]:

«الحمد لله شكراً، شكراً، شكراً، الذي أهلك عدوّنا وأصار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمد ﷺ.

أيّها الناس، الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى منزعه ورجع الحقّ إلى نصابه في أهل بيت نبيّكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم.

أيها الناس، إنّا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لُجَيْناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً، وإنما أَخْرَجَنا الأَنَفة من ابتزازهم حقّنا والغَضَبُ لبني عمّنا وما كرَثنا من أموركم وبَهَظَنا من شؤونكم. ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فُرُشنا ويشتدّ علينا سوء سيرة بني أميّة فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفَيْئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم.

---

(1) نفس المصدر.

لكم ذمّة الله تبارك وتعالى وذمّة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم وذمّة العبّاس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامّة منكم والخاصّة بسيرة رسول الله ﷺ.

تبًّا تبًّا لبني حرب بن أميّة وبني مروان، آثروا في مدّتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسنّتهم في البلاد التي بها استلذّوا تسربُلَ الأوزار وتجلبب الآصار ومرحوا في أعنّة المعاصي وركضوا في ميادين الغيّ جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون[1]، فأصبحوا أحاديث ومُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ[2]، فَبُعْداً للقوم الظالمين. وأدالنا الله من مروان وقد غرّه بالله الغرور أرسل لعدوّ الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكائده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله بأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزّنا وردّ إلينا حقّنا وإرثنا.

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استمر فيه شدّة الوعك وَٱدْعُوا اللّهَ لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو

(1) تضميناً للآية 97 من سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

(2) تضميناً للآية 19 من سورة سبا: ﴿فَجَعلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمزَّقٍ﴾.

الرحمان (كذا) وخليفة الشيطان (كذا) المتّبع للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين (كذا) وانتهاك حريم المسلمين (كذا) الشاب المتكهّل المتمهّل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم ومناهج التقوى».

[فعجّ الناس له بالدعاء ثم قال][1]:

«يا أهل الكوفة، إنّا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقّنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقّنا وأفلج بهم حجّتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوّفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيّض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعزّ الإسلام ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصراً وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلاّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العبّاس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا [حتى نسلّمه إلى عيسى ابن مريم ﷺ][2] والحمد لله ربّ العالمين على ما أبلانا وأولانا».

ولما انتهت الخطبة نزل أبو العباس وداود بن علي أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور في المسجد ليأخذ البيعة العامّة على الناس إلى أن جنّه الليل. وخرج أبو

(1) زيادة من الطبري، 6/84 ساقطة من الأصل.
(2) هكذا في الطبري، المصدر المذكور، وفي الأصل «إلى يوم القيامة».

العباس يوم السبت من الكوفة وأقام معسكره في حمّام أعين مع الأمير أبـي سلمة وجعل يومئذ على حجابته عبد الله بن بسّام واختلف على الكوفة وأعمالها عمّه داود بن علي، وسيّر عمّه عبد الله بن علي ويزيد بن عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو بواسط مُحاصِراً ابن هبيرة. وبعث يحيـى بن جعفر بن تمام بن عباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن وقلّدهم الولاية العامة على الولايات والجيوش ليكون كلّ شيء بيد العبّاسيّين ولا يصدر أمر إلاّ عنهم. وأولى أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر على الأهواز. وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن طريف وأقام في المعسكر أشهراً تنكّر في خلالها لأبـي سلمة. ثم انتقل ونزل الهاشمـيّة بعد مقتل يزيد بن عمر بن هبيرة، وفرّ من كان معه من الجنود وخلص العراق للعبّاسيّين.

الحلقة الحادية عشر
انهزام مروان بن محمد وانقراض الدولة المروانيّة

الاستعداد لمناجزة مروان:

لمّا انعقدت البيعة في العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر لأبـي العباس عبد الله السفّاح ووافته الحظوظ، صرف همّه لمناجزه مروان بن محمد. وكان كما قدّمنا معسكراً بالموصل وجنوده زهاء ثلاثمائة ألف، وإنما حظوظه كانت مُدبَّرة وأيّامه متنكّرة، فلم تُغْنِ عنه كثرة الجنود ولا فراهة القوّاد ولا سعة السلطان.

أسلفنا أنّ قحطبة سيّر أبا عون في أربعة آلاف لإشغال مروان عن العراق وأنه نزل طرف الزاب وأخذ مخانقه. ولما أُسنِد الأمر لأبـي سلمة الخلاّل وقامت الدولة في العراق أنجده بثلاثة من القوّاد: المنهال بن فتّان[1] وعيينة بن موسى وإسحاق بن طلحة، كلّ واحد في ثلاثة آلاف. ولما استخلف أبو العبّاس عزّزه بسبعة آلاف مقاتل عليهم سلمة بن محمد وعبد الله الطائي وعبد الحميد بن ربعي [الطائي] ووداس بن حنظلة. وندب عمّه

(1) في الأصل، ابن فتيان، والتصحيح من الطبري.

عبد الله بن علي لحرب مروان وعقد له الإمامة العامّة على الجنود فتنحّى له أبو عون عنها وصار في خدمته مثل بقية القوّاد.

بداية المعركة[1]:

عبّأ عبد الله بن علي عيينة بن موسى في خمسة آلاف وأمره أن يعبر مخاضة الزاب للقاء مروان، فخرج من المضارب في أعالي الزاب في اليوم الثاني من جمادى الآخرة سنة 132 [يناير 750م]. فانتهى إلى مقدّمة مروان، فتقابلوا حتى حجز بينهم الليل ورجع عيينة فعبر المخاضة إلى معسكر عبد الله بن علي. ولما أصبح مروان أمر ببناء جسر على المخاضة وسرّح ابنه عبد الله لحفر الخنادق أسفل من معسكر عبد الله بن علي. فبلغ ذلك عبد الله فسيّر إليه المخارق بن غفار في أربعة آلاف، فأقبل حتى نزل على خمسة أميال من عسكر عبد الله بن مروان فرماه عبد الله بالوليد بن معاوية في الخيل فانهزم المخارق انهزاماً قبيحاً.

ولما وصل الخبر عبد الله بن علي أسرع إلى الخروج بالعساكر قبل وصول فلّ المنهزمين حتى لا تنكسر همّة الجنود، وكان [مع مروان ثلاثة آلاف من المحمّرة ومعه][2] الدوكانيّة والصحصحيّة والراشديّة. ولما التقى الجيشان أمر مروان جنوده أن يبدؤوهم، فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان وكان خَتَنه على ابنته، وحمل من جهته على جند العباسيّين، فغضب مروان وقاتل الوليد من ناحيته حتى أجلى أبا عون عن واجهته وارتدّ إلى موقف

---

(1) الطبري، 6/86.

(2) المصدر المذكور، 6/87.

عبد الله بن علي من خلف الجيوش، وكادت تلمّ الكسرة بالعباسيّين. فأشار موسى بن كعب، وكان من نبهاء القوّاد، على عبد الله بن علي أن يأمر الفرسان بالنزول، فنودي في الخيل: «الأرض! الأرض»! فترجّل الفرسان وأشرعوا الرماح وجثوا على الرُّكَب وصبروا للهاجمين حتى أَعْيَوهم فجعلوا يتأخّرون بانتظام كأنهم يدفعون. فنهض جيش العباسيّين يتبعهم وكان يسير قُدُماً إلى أن انهزم المروانيّون انهزاماً مقبوحاً وانقطع بهم الجسر، فكان مَنْ غرق أكثر ممّن قُتِل، فكانت الكسرة. فأمر عبد الله بمتابعتهم وعقد الجسر وإنقاذ الغرقى. فكان فيمن أُخرِج منهم جثّة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تقدّم خبر توليته الخلافة وتخلّيه عنها، رحمه الله[1].

أسباب الانكسار:

توجد في العالم أمور شتّى لا تقبل نظراً ولا تعليلاً، إمّا لخفاء أسبابها أو لخضوعها لناموس غير معلوم. وانكسار المروانيين في هذه الواقعة معدود من هذا القبيل. فقد كانوا منتصرين وجيشهم ضعف جيش العباسيين أربعة عشر مرّة، وفيه من القوّاد وأحلاس الحروب ما لا يوجد عند الآخرين، وله تاريخ معلوم ووقائع دوّخت الدنيا وأسقطت العروش، بينما الجيش المنتصر لم يزل وليداً لا يُعرَف له قدر ولم ينبغ له ذكر.

هنا حيرة العقل وارتباك الفكر، بحيث لا يسع الإنسان إلاّ

(1) توقّف المؤلف عن سرد الوقائع الحربية، محاولاً البحث عن أسباب هزيمة المروانيّين.

أن يقول هو القدر الذي عمي عن فهمه البشر ويكل علم ذلك إلى الله يلهمه من يشاء من عباده.

نعم! حكى في ذلك المؤرخون أسباباً كثيرة وهي في ذاتها غير مفهومة تحتاج للإيضاح والتعليل. قالوا إن مروان ضعف شأنه بظهور السفّاح وبيعته بالعراق حتى أنه كان يأمر عسكره فلا يطيعون. فقد أمر يوم الواقعة بعدم الهجوم فخالفوه وهجموا، وقال لفريق قضاعة: «انزلوا». فقالوا: «قل لبني سليم فلينزلوا». وأرسل إلى فريق السكاسك أن احملوا. فقالوا: «مُرْ بني عامر فليحملوا». وأرسل إلى جند السكونيّين: «تقدّموا»! فقالوا: «قل لغطفان أن يتقدموا».

ولكن فات المؤرخين أن يفسّروا لنا كيف استطاع ضعيف الأمر أن يجنّد ثلاثمائة ألف مقاتل يحشرهم إلى واجهة واحدة؟ وكيف يعصيه الجنود وهم عصبيّة الملك وقوّاده من بيت الإمارة وأبناء النعمة؟.

وذكروا أيضاً من الأسباب انعكاس التدبير، فإنه أمر بأموال عظيمة للعساكر وهم يقتتلون، فأُخرِجت لهم تحريضاً لهم. فقال لهم: «اصبروا وقاتلوا فإنها لكم». فجعل قسم من العساكر يتسلّلون من مصافّهم ويصيبون من ذلك المال. فأرسل إليه بعض القوّاد: «إن العساكر قد فتنهم المال فمالوا إليه وإنّا لا نأمنهم أن يذهبوا به». فأرسل إلى ابنه عبد الله أن سِرْ في فرقتك إلى مؤخّرة المعسكر وآمْنَعْهُم من أخذ المال. وإن عبد الله لما مال برايته خالوه منهزماً فتصايح العساكر: «الهزيمة! الهزيمة»! فانهزم الجنود

واختلّ نظامهم.

ولكنّهم لم يشرحوا لنا كيف يحدث ذلك في جند فُطِر على الطاعة وعُرِف بحمد النقيبة. اللهمّ إلاّ أن يقال إن الانكسار آتٍ من قِبَل الانقسامات السياسيّة الفاشية في الأمّة إذ ذاك، فَسَرَتْ إلى الجنود فأحدثت الفشل في الصفوف بدون نظر إلى العواقب الوخيمة التي جرّت إلى قلب الدولة وانحلال العصبيّة.

بعد الانكسار:

سار مروان بعد الهزيمة الشنعاء إلى حرّان وكان عليها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان فمكث بها نيفاً وعشرين يوماً. فلما دنا منها عبد الله بن علي حمل أهله وولده وعياله ومضى فارّاً وخلّف أبان على المدينة وتحته أم عثمان بنت مروان. وتقدّم عبد الله بن علي فتلقّاه أبان مسوّداً مبايعاً له، فبايعه ودخل في طاعته، فأمنه ومَنْ كان بحرّان والجزيرة. وتمادى مروان على فراره حتى مرّ بقنسرين وعبد الله في أثره، فمضى إلى حمص فتلقّاه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها ثلاثة أيام ثم شخص منها. فلما أبصروا قلّة من معه من الحامية طمعوا فيه وقالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال. فلما أدركته خيولهم أكمن لهم قائدَيْن من مواليه: يزيد ومخلد. فلما دنوا منه وجاوزوا الكمين ومضى الحريم والذراري، صافّهم فيمن معه وناشدهم الله فأبوا إلا قتاله، فصاولهم وثار الكمين من خلفهم فهزمهم بحِيَله حتى انتهوا إلى حمص ولقوا جزاء نكثهم ومكرهم.

فدخل مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان

وتحته أم الوليد ابنة مروان، فمضى وخلّفه بها حتى قدم عبد الله بن علي فحاصره وأحاط جنوده بالمدينة. فنزل عبد الله بن علي على باب شرقي وصالح بن علي على باب الجابية وأبو عون على باب كيسان وبسّام على باب الصغير. ولما اشتدّ الحصار على الدمشقيّين وأضناهم الجوع فتحوا الأبواب وفتكوا بالوليد بن معاوية... فدخل عبد الله بن علي المدينة يوم الأربعاء لعشر مضين من رمضان سنة 132 [أبريل 750م] وأقام بها خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى فلسطين يتعقّب مروان، فأتوه بالبيعة. ثم انقلب إلى الأردن فتلقّوه بالطاعة والتسويد، فتحوّل إلى مرج الروم ثم أتى نهر أبـي فُطْرُس[1] وقد فرّ عنه مروان، فمكث به إلى أن جاءه الأمر من أبـي العبّاس السفّاح بتسريح صالح بن علي في طلب مروان. فسيّر صالحاً في طلبه من نهر أبي فطرس في ذي القعدة سنة 132 [يونيو 750م]، وعلى مقدّمته أبو عون. فنزل الرّملة واشتطّ الساحل، فبلغه أن مروان معتصم بالفرماء. فحمل أثقاله وسار على الساحل حتى نزل العريش، فبلغ قدومه مروان فأحرق ما كان حوله من علف وطعام وفرّ على وجهه بعد أن دخل أرض مصر.

مقتل مروان بن محمّد وانقراض الدولة الأمويّة[2]:

لم يزل صالح بن علي مجدّاً في طلب مروان حتى أعياه الطلب. فقد سار باحثاً عنه من مصبّ النيل إلى الصّعيد، ولما عاد بلغه أن خيلاً لمروان بالساحل يحرقون الميرة والأعلاف، فسار إليه صالح، فهرب منه مروان وعبر النيل وقطع الجسر. ومضى

(1) في الأصل «أبـي بطرس» والتصحيح من الطبري، 6/95.
(2) نفس المصدر، 6/96.

صالح في أثره يتبعه حتى التقى بخيلٍ لمروان على ضفّة النيل مما يلي الدلتا، فهزمهم ثم أتى إلى خليج فصادف عليه خيلاً أخرى لمروان، فأصاب منهم طرفاً وانهزم بقيتهم. فعبر إلى خليج آخر فأبصر على بعد رهجاً فظنّه مروان فبعث طليعة عليها الفضل بن دينار ومالك بن قادم[1]، فلم يلقوا أحداً ينكرونه غير القرويّين في الغيطان، فرجعوا إلى صالح فارتحل. فنزل ذات الساحل، فأخرج أبا عون ومعه شعبة بن كثير المازني[2] يفتشون عنه في القرى. فلقيتهم خيل لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالاً، فسألوهم عن مروان، فأخبروهم أنه ينزل كنيسة في بوصير، فساروا إليه خبباً فوافوه بها آخر الليل. فهرب الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير، فأحاطوا به فقتلوه، وذلك في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة 132 [يوليو 750م]، وهو ابن اثنتين وستّين سنة. وكانت ولايته من حين بُويع إلى أن قُتِل خمس سنين وعشرة أشهر وستة وعشرين يوماً. وبمقتله خُتِمت أنفاس الدولة الأمويّة وانقرض ملكها والأمر لله وحده «يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين». [وقد دامت الخلافة الأمويّة 92 سنة حسب التقويم الهجري و 89 سنة حسب التقويم الميلادي].

مقتل أبـي سَلَمَة الخلّال وزير آل محمّد[3]:

لمّا صفت الأمور للسفّاح ودانت له الدنيا لم يكن له همّ غير التخلّص من أبـي سَلَمة. فقد جمع ذات ليلة رجالاً من خاصّة

---

(1) في الأصل «ابن فادح» والتصحيح من الطبري.

(2) في الأصل «المزني»، والتصحيح من الطبري.

(3) نفس المصدر، 6/102 ـ 103.

القوّاد والنقباء وأفراداً من آل العباس وذكر لهم صنيع أبـي سَلَمَة معه وما كان منطوياً عليه من صرف الأمر عن آل العبّاس إلى ولد فاطمة الزهراء. فقال واحد من الحاضرين: «ما يدريكم لعلّ ما صنع أبو سلمة كان على رأي أبـي مسلم»؟ فسكتوا جميعاً، فقال السفّاح: «لئن كان هذا عن رأي أبـي مسلم إنّا لَبِعرض بلاء، إلاّ أن يدفعه الله عنّا». ثم صرف الحاضرين وأظهر تنكّره لأبـي سلمة، فتحوّل عن معسكره بالنخيلة إلى المدينة الهاشمية فنزل بها قصر الإمارة وأشهر تنكّره لأبـي سلمة بين الناس. وكتب إلى أبـي مسلم الخراساني يعلمه ما بدا من أبـي سلمة وما كان همّ به من الغشّ وما يتخوّف منه. فكتب إليه أبو مسلم: «إن كان أمير المؤمنين على بيّنة ممّا ذكر فليقتله». فدعا العبّاس آله وخاصّته وأقرأهم كتاب أبـي مسلم، فقال داود بن علي: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها مكيدة نصبها إليك أبو مسلم، ثم يحتجّ بها عليك مع الخراسانيين وحاله فيهم حاله. ولكن أَرْسِلْ إليه وقل له إذا أظهر لك أنه مستحقّ للقتل فابعث له من يقتله عن أمرك». فالتفت السفّاح إلى أخيه أبـي جعفر المنصور فقال: «ما ترى يا عبد الله»؟ فقال: «الرأي رأيك يا أمير المؤمنين». فقال السفّاح: «ليس منّا أحد أخصّ بأبـي مسلم منك، فاخرج إليه حتى تعلم رأيه فليس يخفي عليك. فإن كان ما فعل أبو سلمة عن رأيه أخذنا لأنفسنا، وإن لم يكن عن رأيه فقد طاب لنا الأمر وسهل علينا أخذ أبـي سلمة والتخلّص منه. فقُمْ فتَجَهَّزْ وسِرْ على بركة الله إلى خراسان».

وحكى أبو جعفر قال:

خرجتُ على وجَل فلما انتهيت إلى الريّ إذ بعامل أبـي مسلم(1) قد أتاه كتابٌ يقول فيه [أبو مسلم]: «إنه بلغني أن عبد الله بن محمد [أبو جعفر المنصور] توجّه إليك. فإذا قدم فأشخصه ساعة قدومه عليك». فأتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبـي مسلم وأمرني بالرحيل. فازددت وجَلاً وخرجت من الريّ وأنا حَذِرٌ خائف. فلما كنت بنَيْسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبـي مسلم فيه: «إذا قدم عليك عبد الله بن محمد فأشخصه ولا تدعه يقيم فإن عملك به الخوارج ولا آمن عليه». فطابت نفسي وقلت: «أراه يُعْنَى بأمري». فسرت فلما كنت من مرو على فرسخين تلقّاني أبو مسلم في بطانته وعساكره، فلما دنا منّي ترجّل وأقبل يمشي حتى قبّل يدي، فأذنته بالركوب فركب. فدخلت مرو، فأنزلني داراً فمكثت ثلاثة أيّام لا يسألني عن شيء. وفي اليوم الرابع قال لي: «ما أقدمك»؟ فأخبرته بالرسالة، فسكت قليلاً ثم قال: «[فعلها أبو سلمة]، أكفيكموه». فدعا مرار بن أنس الضبّـي فقال له: «أنْطَلِقْ من يومك إلى الكوفة فَاقْتُلْ أبا سلمة حيث لقيتَه وٱنْتَهِ في ذلك إلى رأي الإمام».

قدم مرار على السفّاح في المدينة الهاشمية وكاشفه بسرّ قدومه ثم اختفى وأظهر السفاح رضاه عن أبـي سلمة وأمر مناديه أن ينادي في المعسكر أن أمير المؤمنين قد رضي عن أبـي سلمة، ودعاه إليه وكساه حلّة. وجعل أبو سلمة يتردّد عليه حتى وثق من رضاه، ثم دخل عليه ليلة فلم يزل يسمر عنده حتى ذهب عامّة

(1) كذا في الأصل، وفي الطبري «صاحب الريّ».

الليل ثم خرج منصرفاً إلى بيته يمشي وحده آمنا حتى توسّط المنازل، فعرض له مرار فيمن كان معه من الأعوان فقتلوه. ولما عُثِر عليه أشاعوا في الناس أن أبا سلمة قتله الخوارج. ثم أُخرِج من الغد واحتُفِل بدفنه في المدينة الهاشمية، وصلّى عليه يحيـى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس.

(وهكذا كانت خاتمة حياة هذا الرجل القدير الذي لعب أهمّ دور في تأسيس الدولة العباسيّة فكان بعمله كالساعي إلى حتفه بظلفه، رحمه الله وتجاوز عنه)[1].

ولما عُلِمت وفاته قال سليمان بن المهاجر البجلي (معرّضاً بالسفاح) [كامل]:

إنّ الـــوزيـــرَ وزيـــرَ آل محمّـــد   أَوْدى فمن يَشْنَاكَ كان وزيرا[2]

مقتل سليمان بن كثير:

حكى سلام[3] حاجب أبـي جعفر المنصور قال:

«صحبت أبا جعفر من الريّ إلى خراسان، فكان أبو مسلم يأتيه فينزل على باب الدار ويجلس في الدهليز ويقول: «استأذِنْ لي». فغضب أبو جعفر عليّ وقال: «ويلك إذا رأيته فافتح له الباب وقل له يدخل على دابّته». ففعلت وقلت لأبـي مسلم إنه قال كذا وكذا. قال نعم أعلم واستأذن لي عليه»[4].

(1) زيادة من المؤلّف.
(2) الطبري، 6/103.
(3) في الأصل «سلم» والتصحيح من الطبري.
(4) المصدر المذكور.

وحكى عبيد الله بن الحسين الأعرج وكان مقرّباً من المنصور أنه كان معه في هذا الوفد ثلاثون رجلاً فيهم الحجّاج بن ارطاأة وإسحاق بن الفضل الهاشمي وسلام الحاجب. ولما قدم أبو جعفر على أبـي مسلم سايره عبيد الله بن الحسين الأعرج وسليمان بن كثير معه. فقال سليمان بن كثير للأعرج: «يا هذا إنّا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون». فظن عبيد الله[1] أنّه دسيس من أبـي مسلم فخاف ذلك.

وبلغ أبا مسلم نبأ هذه الخلوة، فأتى عبيد الله أبا مسلم فأعاد له ما قال سليمان بن كثير، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اتّهمه فقتله. فبعث أبو مسلم خلف سليمان بن كثير فأحضره فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: مَنْ اتّهمتَه فاقتله»؟ ـ قال سليمان: «نعم». ـ قال: «فأنا أتّهمك». ـ قال: «بماذا»؟ ـ قال: «بما قلته لعبيد الله» فسقط في يد سليمان وقال: «أناشدك الله فيّ». فقال أبو مسلم: «لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غشّ الإمام»؟[2] فأمر بضرب عنقه. وحكى الطبري أنّه «لم ير أحداً ممّن كان يضرب عنقه أبو مسلم غيره». فندم المنصور على ما كان منه بحقّ سليمان بن كثير، حيث عرّض به للقتل جزاء إخلاصه.

ولما عاد المنصور إلى أخيه السفّاح قال له: «لستَ خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله». ـ قال: «وكيف»؟ ـ قال المنصور: «والله ما يصنع إلاّ ما أراد». ـ قال أبو العبّاس:

---

(1) في الأصل «المنصور»، والتصحيح من الطبري، 6/104.

(2) هكذا في الطبري، 6/104، وفي الأصل: «وأيّ مناشدة بعدما ظهر غشّك للدولة»؟.

«أسكُتْ وٱكْتُمْها»[1].

مقتل ابن هُبَيْرة[2]:

لما انهزم ابن هبيرة ليلة مقتل قحطبة بن شبيب تفرّق الناس عنه وخلّف على الأثقال قوماً قد ذهبوا بالأموال. فقال له حَوْثَرة: «أين المصير؟ وقد قُتِل قحطبة ولم تقبل رأيـي. إني أنصحك مرّة أخرى، ٱمْضِ إلى الكوفة ومعك جند كثير فقاتلهم حتى تُقتَل أو تظفر» ـ قال: «بل نأتي واسطاً فننظر». ـ قال: «ما تزيد على أن تمكّن الأعداء من نفسك وتُقتَل». وأشار عليه يحيـى بن حصين[3] باللّحاق بمروان. فقال: «إنك لا تأتي مروان بشيء أحبّ إليه من هذه الجنود. فالزم الفرات حتى تقدم عليه، وإيّاك وواسط فتصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل». فأبـى، ويقول الطبري أنه «كان يخاف مروان لأنه كان يكتب إليه في الأمر فيخالفه فخافه إن قدم عليه أن يقتله»[4]. فأتى واسطاً فدخلها وتحصّن بها. وسرّح أبو سلمة إليه الحسن بن قحطبة كما قدّمنا، فنزل بين الزاب ودجلة وضرب سرادقه حيال باب المضمار. فأوّل واقعة كانت بينهم يوم الأربعاء، فقال قوّاد الشام لابن هبيرة: ائذن لنا في قتالهم، فأذن لهم، فخرجوا وخرج ابن هبيرة وعلى ميمنته ابنه داود ومحمد بن نُبَاتة في جند من أهل خراسان فيهم أبو العود الخراساني وكان على ميمنة الحسن بن قحطبة خازم بن خزيمة،

(1) نفس المصدر.
(2) رواية مقتل ابن هبيرة منقولة بتصرّف عن الطبري، 6/104 وما بعدها.
(3) هكذا في الأصل، وفي الطبري «بن حضين»، 6/104.
(4) نفس المصدر.

فلم تكن إلا جولة واحدة حتى انهزم جند الشام والتجأوا إلى الخنادق، وبادروا إلى أبواب المدينة حتى غصّ باب المضمار ورمى أصحاب العرّادات بالعرّادات، والحسن واقف في وسط جنوده وأقبل عند الهزيمة يسير في الخيل فيما بين النهرين والخندق، فعاد إليه جند الشام فكرّ عليهم، فحالوا بينه وبين المدينة واضطرّهم إلى دجلة، فغرق منهم ناس كثير، فتلقّوهم باليدين فحملوهم وألقى ابن نباتة يومئذٍ سلاحه واقتحم فتبعوه بسفينة فركب وتحاجزوا فمكثوا سبعة أيّام ثم خرجوا إليهم يوم الثلاثاء، فاقتتلوا، فانهزم الجند الشامي هزيمة قبيحة، فارتدّوا إلى المدينة فمكثوا ما شاء الله لا يقتتلون إلا رمياً وراء الفصيل.

وقدم في تلك الأثناء على الحسن بن قحطبة من ناحية سجستان أبو نصر مالك بن الهيثم مدداً من قِبَل أبـي مسلم. فأوفد الحسن بن قحطبة وفداً إلى أبـي العبّاس السفّاح يعلمه بقدوم أبـي نصر عليه، وجعل على الوفد غيلان بن عبد الله الخزاعي، وكان واجداً[1] على الحسن [لأنه سرّحه إلى روح بن حاتم مدداً له]. فلما قدم على أبـي العبّاس قال: «أشهد أنك أمير المؤمنين وأنك حبل الله المتين وأنك إمام المتّقين». ـ قال: «قل حاجتك يا غيلان». قال: «أستغفرك». ـ قال: «غفر الله لك». فقال داود بن علي: «وفّقك الله يا غيلان، أمير المؤمنين يسألك حاجتك».
ـ فقال غيلان: «يا أمير المؤمنين مُنَّ علينا برجل من أهل بيتك».
ـ قال: «أوليس عليكم رجلاً من أهل بيتي: الحسن بن قحطبة»؟
ـ قال: «يا أمير المؤمنين مُنّ علينا برجل من أهل بيتك». فقال

(1) في الأصل «وافداً» والتصحيح من الطبري.

السفّاح مثل قوله الأوّل. ـ فقال: «يا أمير المؤمنين مُنّ علينا برجل من أهل بيتك، ننظر إليه وتَقِرّ به أعيننا. فسكت [أبو العبّاس] هنيهة ثم قال: «نعم، أصبتَ يا غيلان». فعيّن أخاه أبا جعفر، فجعل أبو جعفر غيلان على شرطته، فقدم واسطاً. فقال أبو نصر لغيلان: «ما صنعت إلا ما أردت». فمكث أيّاماً على الشرطة ثم قال لأبي جعفر: «لا أقوى على هذا العمل، ولكنّي أدلّك على من هو أجلد منّي». ـ قال: «مَن هو يا غيلان»؟ ـ قال: «جَهْوَر بن مرار العجلي». ـ قال: «إني لا أقدر على عزلك وقد استعملك أمير المؤمنين». ـ قال: «اكتب إليه فاعلمه». فكتب إليه أبو العبّاس أن اعمل برأي غيلان، فولّى شرطته جهوراً.

وبعد مقدم أبي جعفر دارت وقائع بين الجندَيْن أبلى فيها نصر. ومكثوا على ذلك إحدى عشر شهراً حتى أتى إسماعيل بن عبد الله القسري واسطاً وأخبر جند الشام بمقتل مروان وزوال الدولة المروانية. وكان الحصار اشتدّ على الجنود، فتجنّى اليمانيّة على ابن هبيرة، وقالت النزارية لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانيّة.

وهمّ ابن هبيرة أن يدعوَ إلى محمد بن عبد الله بن حسن، فكتب إليه فأبطأ جوابه. وكاتب السفّاح اليمانيّة من جند ابن هبيرة يطمعهم، فمالوا إليه وجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة حتى جعل له أماناً. وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضي ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفّاح فأقرّه بإمضائه. وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه. وكان أبو العبّاس لا يقطع أمراً دون أخذ رأي أبي مسلم فيه. وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على

أبـي العباس. فكتب إليه بمسألة ابن هُبَيْرة كلّها. فردّ عليه أبو مسلم: «يا أبا العبّاس إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد. لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة».

ولما وصل أبا العبّاس كتاب أبي مسلم كتب إلى أخيه أبـي جعفر عدم إمضاء شروط ابن هبيرة. فدعا أبو جعفر ابن هبيرة، فخرج إلى لقائه في ألف وثلاثمائة من البخارية[1]، فأراد أن يدخل الحجرة على دابّته كعادته. فقام إليه الحاجب سلام بن سليم، فقال: «مرحباً بك يا أبا خالد، انزل راشداً»، وكان حول حجرة أبـي جعفر نحو العشرة آلاف من الخراسنيين، فنزل وأمر له بوسادة ليجلس عليها، ثم دعا بالقوّاد فدخلوا ثم قال سلام: «ادخل أبا خالد». ـ فقال له: «أنا ومَنْ معي». ـ فقال: «إنما استأذنتُ لك وحدك». فقام فدخل ووُضِعت له وسادة فجلس عليها، فحادثه ساعة ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصره حتى غاب عنه. ثم مكث يغيب عنه يوماً ويأتيه يوماً في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل. فقال يزيد بن حاتم لأبـي جعفر: «إن ابن هُبَيْرة ليأتي فيتضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء. فإذا كان هو يسير في هذه الفرسان والرجّالة، فما يقول عبد الجبّار وجهور»؟ فقال أبو جعفر لسلام: «قل لابن هبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته». فقال سلام ذلك فتغيّر وجهه وجاء في حاشيته نحواً من ثلاثين. فقال سلام: «كأنك تأتي مُبَاهياً». ـ فقال: «إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا». ـ فقال: «ما أردنا بك استخفافاً ولا أمر الأمير بما أمر إلا نظراً لك». فكان بعد ذلك يأتي في

(1) في الأصل «النجاريّة»، والتصحيح من الطبري.

ثلاثة[1].

وكان أبو جعفر لا يشتهي في نفسه أن يوقع بابن هبيرة ليخالف فيه رأي أبي مسلم، حتى أنه احتمل منه هنة ما كان يتحمّلها لغيره. فقد حكوا أنه كلّمه مرّة فقال: يا هناه، وفي رواية أخرى: يا أيها المرء[2]. ثم رجع فاعتذر فقال: «أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به قريب، فسبقني لساني إلى ما لم أرده»، فلما يعدّها عليه. وكان كلّما كتب إليه السفّاح يلحّ عليه بقتله يراجعه ويقول: «كيف أفعل وقد أمنّاه»؟ حتى كتب إليه آخر مرّة: «والله لتقتلنّه أو لأرسلنّ إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولّى قتله». فبدا عند ذلك لأبي جعفر أن ينفّذ أمر أخيه. فانتدب خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة [بن ظهير]، وأمرهما بختم بيوت الأموال. ثم بعث إلى وجوه من معه من القيسيّة والمُضريّة يدعوهم إليه. فحضر محمد بن نُباتة وحَوْثَرة بن سُهَيْل وطارق بن قدامة وزياد بن سُوَيْد وأبو بكر بن كعب العقيلي وأبان وبشر ابنا عبد الملك بن بشر وجعفر بن حنظلة وهزّان[3] بن سعد، وكانت عدّتهم جميعاً اثني وعشرين قائداً. فخرج عليهم سلام بن سليم فقال: «أين حوثرة ومحمد بن نباتة»؟ فلبّياه فأدخلهما إلى حجرة بإزاء حجرة أبي جعفر، وقد أُجلِس فيها عثمان بن نهيك والفضل بن سليمان وموسى بن عقيل في مائة من الرجال. فنُزِعت سيوفهما وكُتِّفا. ثم دُعِي ابنا عبد الملك بن بشر، ففُعِل بهما

(1) المصدر المذكور، 6/108.
(2) نفس المصدر.
(3) في الأصل «وهشران»، والتصحيح من الطبري.

ذلك. ثم دُعِي أبو بكر بن كعب [وطارق بن قدامة]. فقام جعفر بن حنظلة، وكان يظنّ أن المدعوّين إنما يُدْعَوْن لمواجهة الأمير، فقال: «نحن رؤساء الأجناد فلِمَ يكون هؤلاء يُقدَّمون علينا»؟ فقيل له: «ممّن أنت»؟ ـ قال: «من بهراء». فقال له سلام: «وراءك أوسع لك، لا حاجة لنا بك»، ثم قام هزّان فتكلّم فأُخِّر. ولما علم بقيّة قوّاد ابن هبيرة ما فُعِل بمن أُخِذوا، جعلوا يصيحون. فخرج عليهم موسى بن عقيل، فقالوا له: «أعطيتمونا عهد الله ثم خنتم بنا. إنّا لنرجو أن يدرككم الله». ثم أُمِر بهم فقُتِلوا جميعاً وأُخذت خواتمهم. ثم انطلق خازم والهيثم بن شعبة والأغلب بن سالم[1] في نحو من مائة فأرسلوا إلى ابن هُبَيْرة: «إنّا نريد حمل المال». فقال ابن هبيرة لحاجبه: «يا أبا عثمان انطلق فدلّهم عليه». فأقاموا عند كلّ بيت نفراً ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدار، ومع ابن هبيرة ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيّوب وحاجبه وعدّة من مواليه وبنيٌّ له صغير في حجره. فجعل ينكر نظرهم، فقال: «أقسم بالله إنّ في وجوه القوم لشرًّا». فأقبلوا نحوه، فقام حاجبه في وجوههم، فقال: «ما وراءكم»؟ فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقه فصرعه وقاتل ابنه داود فقُتِل وقُتِل مواليه ونحّى الصبيّ من حجره وقال: «دونكم هذا الصبيّ»، وخرّ ساجداً، فقُتِل وهو ساجد. ومضوا برؤوسهم إلى أبي جعفر المنصور[2]. وخُتِمت بمقتل ابن هبيرة حياة عظماء رجال الدولة الأمويّة.

---

(1) الأغلب بن سالم هو والد مؤسّس الدولة الأغلبيّة بإفريقية إبراهيم بن الأغلب، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3 ترجمة رقم 420.

(2) الطبري، 6/109.

وممّا يذكر عن يزيد بن عمر بن هبيرة وشموخه وعراقته في الدولة أن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك كان خطب إليه ابنته على ابنه معاوية فأبى أن يزوّجه[1]، إذ لم يره كفأً لابنته إدلالاً على الخلفاء المروانيّين رحمهم الله جميعاً ونصر أيّامهم! .

---

(1) نفس المصدر، 6/110.

مراجع التحقيق

- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، 1982.
- البغدادي، **الفرق بين الفرق**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، د.ت.
- الثعالبي (عبد العزيز)، **تاريخ شمال إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، القاهرة، 1953.
- ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، 1979.
- ابن خلدون، **المقدّمة**، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، د.ت.
- ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1970.
- ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، القاهرة، 1948.
- الذّهبي، **دول الإسلام في التاريخ**، بيروت، 1985.
- السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1952.
- الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، د.ت.
- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت.

- الطرطوشي، **كتاب الحوادث والبدع**، تحقيق محمد الطالبي، تونس، 1959.
- ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر ليفي بروفنسال وكولان، ليدن، 1951.
- المسعودي، **مروج الذهب**، القاهرة 1948.
- مقديش (محمود)، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ (الجزء الأوّل)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، 1979.
- اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، 1960.

الفهارس

1 ـ فهرس الآيات القرآنية.

2 ـ فهرس الأعلام.

3 ـ فهرس القبائل والطوائف والفرق.

4 ـ فهرس الأماكن والبلدان.

5 ـ فهرس المواضيع.

1 ـ فهرس الآيات القرآنية

العدد	الآيـــــــــة	رقمها	السورة	الصفحة
13	﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾.	23	الشورى	205
14	﴿وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ﴾.	32	الأحقاف	120
15	﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.	10	الفتح	130
16	﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.	13	الحجرات	126
17	﴿تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.	22	النجم	48
18	﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ. . .﴾.	2	الحشر	69
19	﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى. . .﴾.	7	الحشر	205
20	﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾.	9	الحشر	122
21	﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.	21	الحشر	122

2 ـ فهرس الأعلام

- خ -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ن -

- هـ -

3 ـ فهرس القبائل والطوائف والفرق

4 ـ فهرس الأماكن والبلدان

5 ـ فهرس المواضيع

سقوط الدولة الأمويّة

1 ـ الحلقة الأولى :

الفهارس:

En effet les Musulmans non-Arabes, et surtout les Persans, choqués par l'inégalité régnant entre les Arabes et eux, ainsi que les pieux croyants scandalisés par les excès des derniers califes et en particulier Al-Walid Ibn Yazid (720-724), et par leur conduite peu respectable rallièrent le mouvement abbasside qui réclame le Califat non pour les Alaouites c'est à dite les partisans des descendants d'Ali seulement, mais pour tous les Hachémites.

Dirigé par Abou Mouslim, le soulèvement abbasside triompha d'abord au Khorassan, puis écrasa l'armée du calife Marwane Ibn Mohammed (744-750) en Irak en 750. A la suite de l'assassinat par ce dernier d'Ibrahim al-Imam devenu chef du parti abbasside, après la mort de son père Mohammed Ibn Ali, son frère Aboul Abbas As-Saffah fut proclamé Calife à Koufa en 750. Marwane Ibn Mohammed fut assassiné en Egypte et les Abbassides étendirent leur domination sur l'empire arabo-musulman qui avait atteint à cette époque l'Atlantique à l'ouest et la Chine à l'est.

Telles sont les principales péripéties de ces événements qui permirent aux Abbassides de renverser les Omeyyades et de prendre le pouvoir à leur place, lesquelles péripéties sont détaillées et commentées dans le présent ouvrage que nous sommes heureux de présenter à nos lecteurs.

L'éditeur

Présentation

Le présent ouvrage réunit les 11 articles composés en arabe par l'auteur tunisien Abdelaziz Thâalbi et publiés au courant des années 1921 et 1922 à Tunis dans la revue «Al-Fajr» sous le titre: **«La chute de la dynastie omeyyade et l'avènement des Abbassides: Causes et Conséquences».**

L'auteur utilisa surtout dans la relation des faits historiques la chronique de l'historien arabe Al-Tabari (839-923). Mais son ouvrage n'est pas une simple compilation, il contient au contraire plusieurs appréciations et remarques d'ordre purement personnel. En effet A. Thâalbi qui ne cache pas sa sympathie pour la dynastie omeyyade tenta d'analyser aussi objectivement que possible les causes de sa chute en l'an 132 de l'Hégire/ 749-750.

L'auteur commença par signaler que la monarchie omeyyade avait atteint son apogée sous les règnes du calife Abdelmalik Ibn Marwane (685-707) et de son fils Al-Walid (705-715). Elle tirait sa puissance du pouvoir centralisé entre les mains des califes et de l'unité des Arabes réalisée dans l'armée.

Mais après le règne de Hicham (724-743) cette unité fut brisée surtout par les luttes intestines entre les Arabes Yéménites et les Arabes du Nord ou Kaïcites. Ces luttes presqu'ininterrompues affaiblirent considérablement l'armée et l'administration provinciale et rendirent les Omeyyades incapables de venir à bout des mouvements d'opposition (Kharijites, Chiites,etc...) et en particulier le mouvement abbasside qui finit par les renverser.

A. Thâalbi mit l'accent sur les points faibles de la monarchie omeyyade qui expliquent la victoire de ce dernier mouvement fondé par Mohammed Ibn Ali arrière petit-fils d'Abbas, oncle du Prophète.

COPYRIGHT © 1995

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

B. P. 113-5787 BEYROUTH

Tous droits réservés. Il est absolument interdit de reproduire ce livre ou le conserver dans le but de prendre les informations, ou le transformer d'une manière ou d'une autre soit à l'aide d'une photocopieuse, suivant des cassettes magnétiques, des moyens mécaniques ou électriques sans l'autorisation écrite de l'éditeur.

Cette représentation ou reproduction, par quelque procédé que ce soit, constituerait une contre-façon sanctionnée du code pénal.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود

تلفون البناية: 340131/ تلفون مباشر : 350331 ص . ب . 5787-113 بيروت ، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم 1995/3/2000/270

التنفيذ: كومبيوتايب لصف الصفحات الالكترونية

الطباعة : دار صادر ، ص . ب . 10 - بيروت

ABDELAZIZ THAALBI

La chute de la Dynastie Omeyyade et l'avènement des Abbassides (750/132)

Présentation et Edition critique

Par

Hamadi SAHLI



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

La chute de la Dynastie Omeyyade

et l'avènement des Abbassides

(750/132)